أحمد منور

عاصفة على الجزر

رواية

مكتبة نوميديا

دار التنوير للنشر والتوزيع
الجزائر DAR TANOUIR-ALGÉRIE
أسسها المرحوم بإذن الله تعالى عبد الحفيظ بن محمد صحراوي

عاصفة على الجزر

(رواية)

العنوان: **عاصفة على الجزر (رواية)**
المؤلّف: **أحمد منّور**
حجم الكتاب: **14×21**
عدد الصّفحات: **428 ص**
سنة النّشر: **2023-1444**
الطبعة الأولى
النّاشر: **دار التنوير للنّشر والتّوزيع - الجزائر**
ردمك: **978-9947-56-102-7**

كل الحقوق محفوظة

لدار التنوير للنشر والتوزيع / الجزائر

هاتف:

+ 213 06 65 64 67 05

E-mail:

dartanouir@hotmail.com

يتحمل الكاتب وحده المسؤولية (الجنائية والأدبية والعلمية) كاملة عن كل الأراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب تجاه كل ما من شأنه أن يلحق ضررا بحقّ قائم.

الأراء والأفكار في هذا الكتاب لا تعبّر بالضّرورة عن رأي أو وجهة نظر الدار.

لا يُسمحُ بطبع هذا الكتاب أو جزء منه أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات بما في ذلك التصوير أو النسخ أو التسجيل أو التخزين دون إذن خطي من الناشر.

أحمد منور

عاصفة على الجزر

(رواية)

1

ثورةٌ ثقافيَّة على الطَّريقة الماويَّة

في موتسامودو، عاصمة الجزيرة، كان الشُّبان الثائرون قد أخرجوا كل محتويات دار البلدية من وثائق، وأرشيف قديم، وكل ما خُطَّ عليه حرفٌ أو رقم، أو رمز، وألقوا بها كلها في الساحة الخارجية للبلدية، ولم تسلم من أيديهم اللوحةُ الرُّخامية الكبيرة المُثبَّتة في أعلى البناية، تحت الساعة الكبيرة، التي كانت قد توقَّفت بعد رحيل الاستعمار قبل ثلاث سنوات، وبقي عقرباها يشيران إلى منتصف النهار وعشرين دقيقة. كانت اللوحة تحمل اسم البلدية منذ العهد السابق، فألقوا بها من الأعلى، لتتحطَّم على إسْفلت الشارع، وتتناثر شظايا وفُتاتا، ثم أضرموا النار فيما جمعوه في الساحة من محتويات البلدية، من أوراق، وملفَّات، وسجلَّات، وأختام، وأدراج خزائن، ومقاعد خشبية، تحت صيحات الابتهاج التي ارتفعت من حناجرهم في السماء. وعندما اشتدَّ لهيب النار، راحوا يرقصون حولها فيما يشبه رقص الوثنيِّين، على ألحان الأناشيد التي انطلقت من مُكبِّرات الصَّوت التي علَّقوها في شرفة مبنى البلدية.

من سلالم هضبة "هومبو" التُّرابية، وقبل أن يشرف على الساحة، رأى مصطفى بن سعيد الدخان الأسود يتصاعد في الفضاء، وتناهى إلى سمعه الصياح الذي ارتفع فجأة، ثم طغى عليه صوت مُكبِّرات الصوت، وموسيقاها الصاخبة. ومن موقع المدفعين القديمين المُشرفيْن على ساحة البلدية، المُصَوَّبيْن نحو البحر، وسط آثار بناء قديم ـ كانا قد نُصِبا في هذا الموقع، كما رُوِّيَ له، على عهد السلطان عبد الله الأول، الذي حكم الجزيرة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ـ وقف يتأمل ما كان يجري في الساحة من حركة غريبة، ومن صخب وفوضى، محاولا أن يفهم ما يحدث، لكنه لم يستطع أن يحدِّد طبيعته، هل هو احتفال شعبي، أم طقس ديني، أم هو شغبُ شباب، لم يجدوا طريقة مناسبة للتعبير عنه إلا بهذا الشكل الراقص، الصاخب؟ لكن حيرته إزاء إشعال النار، وبذلك الحجم المهول، كانت أقوى من تعجُّبه، فأسرع الخُطى، مُنحدِرا عبْر أدراج السلالم الواصلة بين الهضبة وساحة البلدية.

ووسط الهرج والمرج، راح يقرأ اللافتات التي رفعها المُتجمهِرون، وقد كتبوها كيفما اتفق، على ألواح خشبية، وقطع كرْتون، وورق تغليف، بخطوط رديئة، وأحجام مُتفاوتة، باللغة المحلية، وبالفرنسية، مع أخطاء إملائية صارخة، تحمل شعارات كان قد سمعها من قبل مرارا وتكرارا، تتردَّد على ألسنة الشبان المُنخرطين

في اللِّجان الثَّورية التي أنشأها نظام علي صواليح في الجزر الثلاث، على مستوى المدن، والأحياء، والقرى، والأرياف، وتضم فئات مختلفة من طُلاب الثانويات، ومن الشبان العاملين في الزِّراعة، وفي تعاونيات صيد الأسماك، وكانت كلها مقتبسة شعارات من خُطب زعيم البلد ومن تصريحاته عبر الإذاعة المحلية، من مثل: "الحُكم للشعب وحده"، "لا مكان للاستغلال في مُجتمعنا"، "لا للتَّمْييز العُنصري بين أبناء البلد الواحد"، "الشباب هو عماد الثورة ومُحرِّكها". لكنه لاحظ، بعد أن جال ببصره في كل الشعارات المرفوعة، وجود اثنين منها لم يطرقا سمعه من قبل، وهما: "سِجلات البلدية نظام استعماري" و" البيروقراطية سرطان يجب القضاء عليه". وهنا تبيَّن له، على وجه التقريب، حقيقة ما يحدث، دون أن يسأل أيَّ أحد من المُتجمهرين، وربط في ذهنه بين مضمون الشِّعارين الجديدين وبين الأوراق والسجلَّات البلدية التي كانت النيران تلتهمها، وجال بذهنه أن هذا لا يمكن أن يحدث بصفة عفوية، ودون أوامر فوقيَّة، وإلا لما أقدم شبان اللجان الثورية على القيام بهذه الخطوة الجريئة، والخطيرة، وبهذا الحماس والابتهاج، في غياب كامل لرجال الأمن، ولمُمثلي السلطة المحلية. وفي لحظة الصمت التي أعقبت انتهاء النشيد في مُكبِّر الصوت، وقبل انطلاق النشيد التالي، جاءه صوت من خلفه مُعلِّقا:

"الثورة تحرق مُخلَّفات الاستعمار، يا فوندي، وتحرق معها التقاليد الرَّجعيَّة البالية".

وأدرك حينئذ أن الخطاب مُوجَّه إليه، فالتفتَ إلى مصدره، ليجد أمامه "نايما"، تلميذته في صف البكالوريا العلمي، ورئيسة لجنة طلاب ثانوية موتسامودو المختلطة، والعُضْوَة الناشطة في اللجان الثورية على المستويين المحلِّي والمركزي، فابتسم لها وحيَّاها: أهلا "نعيمة". وكان يتعمَّد أن يناديها بهذا الاسم العربي، لاعتقاده أنه هو أصل اسمها، وكانت هي تعدُّه تحريفا فظيعا لاسمها، خاصة أن حرف العين فيه يجعل نُطقها له شيئا مستحيلا، ومع هذا لم تكن تغضب حينما يناديها باسمها "المُحرَّف"، لأنه كان يُرضي غرورها، ويشعرها بالتميُّز، وبالاهتمام الخاص بها. ولم يُعَلق على ما قالته نعيمة له بشيء، لأن الغناء والرقص كانا قد استُؤْنِفا على أشُدِّهما، وغطَّى ضجيجُ مُكبرات الصَّوت على كل الأصوات الأخرى، واستحالَ معه أي تبادل للكلام، فوقف يتفرَّج على المشهد.

وتخلَّصت نعيمة من "الشيروماني" التقليدي الذي كانت تلُفُّ به جسمها، ودخلت حلبة الرقص هي الأخرى، فراح يتابع رقصها بإعجاب، وكانت تتحكَّم في حركاتها بشكل يدعو للإعجاب حقا، وتتلوَّى كالغصن الطَّرَي، برشاقة لاعبي السيرك، في تناغم تام مع الموسيقى. والواقع أنه لم يتفاجأ برقصها، لأن الرقص

شيء متأصل في أهل هذه الجزر، الجميع يحبُّه ويُتقنه، ويتدرَّب عليه منذ الصغر، إناثا وذكورا، ويمارسونه في مختلف المناسبات والأفراح، بل بدون مناسبة، من أجل التسلية والمُتعة لا غير، وإنما تفاجأ برؤيتها وهي ترقص أمامه أول مرة، وبتلك البراعة، فظلَّ يتابع حركات جسمها الممشوق بمُتعة خالصة، وبعينين مُنبهِرتين، إلى أن انتهت الأنشودة، وتوقف معها الرقص، فصفَّق لها، وهتف بحماس: "برافو نعيمة"، فابتسمَتْ له، وبدت في غاية السرور، مع اعتداد بالنفس، وغرور ظاهر الأثر على وجهها، ثم لفَّت جسدها مُجددا بالشيروماني، وانشغلت بتجفيف العرق المُتفصِّد من جبينها، مُشكِّلا سواقي على وجنتيها.

ولم يحتمل ضجيج مكبرات الصوت وضغطها الحاد على طبلة أذنيه، كما شعر بلهيب الشمس يحرق وجهه وقمَّة رأسه، وبقميصه يلتصِق بظهره من شدة الرطوبة، فغادر الساحة متوجِّها إلى بقَّالة السيد "طاكي"، وكانت البقَّالة هي مقصده الأصلي حينما خرج من البيت، بغرض شراء حاجات خاصة لم تكن تتوفَّر إلا في بقَّالة السيد طاكي، ولاسيما المُنتجات الكمالية الفرنسية، حيث كان يتفرَّد باستيرادها من جزيرة "ماهوري" ـ التي انفصلت عن الأرخبيل، بعد إعلان استقلاله عن فرنسا قبل عامين، وظلَّت تابعة للسيادة الفرنسية ـ ليبيع تلك الكماليات لمَيْسوري الحال، على

قِلَّتهم في المدينة، بأضعاف ثمنها، وهي الحاجات التي كان يُعْفِي خادِمه عبدو من شرائها، لأنه لا يعرفها، ولا يميِّز بين أنواعها، وخاصة منها الأجبان، ومشتقات الألبان الأخرى، وأنواع الشوكولاطة والبُن المُمتاز.

عندما أزاح شرائط السِّتارة البلاستيكية المُسدلة على باب البقَّالة، أحدثتْ نواقيسُها الصَّغيرة المعلَّقة في أعلاها رنينا مُتسلسلا، كان يُذكِّره كلما دخل البقَّالة برنين أجراس الأبقار في فيلم "مونكالا ابنة الهند"، الذي شاهده أكثر من مرة وهو في سن المُراهقة، وعَلِقتْ منه في ذهنه انطباعات كثيرة عن الهند ـ الموطن الأصلي للسيد طاكي ـ منذ ذلك الحين، وكانت البقَّالة خالية من الزبائن في هذه الساعة، فرفع السيد طاكي رأسه عن دفتر كان مُنكبًّا عليه، غارقا في مراجعة حساباته فيه على ما يبدو، فبَصق ما تجمَّع في فمه من عصارة حشيش القات، وردَّ على تحيَّته بصوت مُغمغِم، لأن حنَكَه الأيمن كان "يُخزِّن" كميَّة مُعتبرة من القات، وهو ما جعل فمَه يبدو مائلا، وخدَّه مُتوَرِّما بشكل فظيع، كمن يعاني من ضِرس مُلتهب، وكانت شفتاه تلمعان، وتصْطبِغان باللون البرتقالي الذي يُفرزه القات المَمْضُوغ، كأنه استاك بلِحَاء جذور الجوْز. وكان السيد طاكي قد أدمن على تعاطيه قبل عشرين سنة، حينما كان مُقيما مع والده في عدن، وهناك تعلم اللغة العربية،

وصار ينطِقها باللهجة اليمنية، ولازمَتْه عادة تعاطي القات بعد أنِ غادر اليمن واستقر في جزر القمر. أمَّا كيف يحصل على القات وهو بعيد عن اليمن، فهذا ما لا يعرف الأستاذ بن سعيد جوابا عنه، ولم يتجرأ على طرح السؤال بشأنه على السيد طاكي، لأن فيه فضولًا لا يليق بمثله، ولأن العلاقة بينه وبين البقال لا تتعدَّى، في نهاية الأمر، حدود العلاقة بين زبون وتاجِر، وقد خشي أن يُسمِعه ما لا يُعجبه إن هو تجرأ وطرح عليه هذا السؤال.

وأثناء ما كان السيد طاكي يقوم بخدمته، ويحمل طلباته من الرُّفوف ويضعها أمامه على الكونتوار، دخل صبيُّه المتجر كالزَّوبعة، مُحدِثا جلبة كبيرة بنواقيس ستارة الباب، ومُبعِدًا عن وجهه مصائد الذُّباب اللَّزِجة التي كانت تتدلَّى من سقف المحل، وتبدو مثل أفلام الصُّور السالبة، مدهونة بزيت الدِّيزل، ليقول لمعلِّمه في لهجة زهو وانتصار، ودون أن ينتبه لوجود زبون في المحل:

"كل ملفات إدارة الضَّرائب رموها في الشارع وأحرقوها..".

ولم يفُته معنى ما قاله الصَّبي، على الرغم من أنه قاله باللغة المحلية، لأن أذُني الأستاذ بن سعيد بدأت تألف هذه اللغة وتفهمها، بعد إقامته في الجزيرة ما يقرب من ستة أشهر، ولاسيما أن بها الفاظا عربية وفرنسية كثيرة، وهذا ما جعله يستأنِس بها، ويفهم المعنى العام لما يقال بها أمامه.

وأدرك السيد طاكي أن زبونه قد فهم كل ما تفوَّه به الصبي، فحدَجه بنظرة قاسية، مشيرا من طرف خفي إلى "الفوندي" ـ وهو الاسم الذي يطلق على الأستاذ باللغة المحلية ـ فظهر النَّدم على وجه الصبي، وأمسك لسانه، وجمد في وقفته كالتمثال، لا يتحرك فيه إلا صدره اللاهث. وحينئذ تظاهر السيد طاكي، في حركة تمثيلية غير مُتقنة، بعدم الاهتمام بما أخبره الصبي به، وردَّ عليه مُغَمغِما، بخليط لغوي عجيب، محلي وعربي وفرنسي، بغرض إيصاله إلى زبونه، دون شك:

ـ هذا لا يعنيني. أنا بعثتك لتعرف إن كان مَرْكِب البضائع قد وصل من "ماهوري"؟

ـ سيصل بعد ساعتين، قال الصبي وهو يُداري ارتباكه وخجله.

ـ هذا كل ما يعنيني، والآن، اهتم بتنظيم السلعة على الرُّفوف، ولا تتدخَّل فيما لا يعنيك.

ودفع مصطفى بن سعيد ثمن مشترياته وخرج، متظاهرا بأنه لم يفهم شيئا مما دار بين المُعلم وصبيِّه، أما في الواقع فقد فهم كل شيء، وأهمُّ ما فهمه أن حرْق مِلفَّات إدارة الضرائب، يعني بالنسبة للسيد طاكي محو ما يجِب عليه دفعه لخزينة الدولة من

الضرائب، وهذا، دون شك، هو سر إرساله صَبيَّه ليتسقَّط له أخبار المؤسسات التي أحرقتها العصابات الشبانية الثائرة، وأهمها، بالنسبة إليه، إدارة الضرائب.

***

في طريق عودته إلى هومبو، لم يسلك الطريق المختصر الذي اتبعه عند النُّزول، وسلك الطريق الطويل المُسَفْلت، الصَّاعد إلى الهضبة في شكل مُتعرِّج يجعل مسافة الصعود أطول، ولكنها أريح للمُتَرَجِّل، وفي المُنعرج الثالث توقف عند دُكَّان أحمد "بَهْر سْوَفَا"، وهو دُكَّان، على صغره، يتِّسع لوصفه بالبقَّالة، والعطَّارة، والمقهَى، لأن كل هذه الصِّفات تنطبق عليه في جانب منها، ولا تنطبق في جانب آخر، فسارع أحمد إلى وضع مقعد خشبي صغير أمام الدُّكان ليرتاح عليه الفوندي، فشكره وجلس متكئا على الجدار بظهره، لأن المقعد كان بلا مُسنِد للظهر، وما كاد يجلس حتى جاءه أحمد بكأس من شراب الزَّنجبيل، الذي كان يتفرَّد بطريقة إعداده، ويحتفظ لنفسه بسرِّه، حيث كان يضيف إليه بهارات تجعله شرابا طيِّب المذاق، لاذعا بعض الشيء، وله مواصفات الدواء في الوقت نفسه كما يمتدِحُه صاحبه. وقد تعوَّد مصطفى على التوقُّف يوميا في هذا الدكان، وهوعائد من الثانوية، ليشرب كأسا من شراب الزنجبيل.

في وقت سابق، كان مصطفى قد توصَّل، بعد أن تأمل مع نفسه في لقب "بهْرسْوَفَا"، إلى احتمال أن يكون الاسم عربيا، مُحرَّفًا من عبارة "بَحْر الصَّفاء"، وما أوصله إلى هذا الاحتمال، أن الشِّيرازيين الذين نزلوا في زنجبار وأنجوان قبل خمسة قرون، كانوا مولعين بمثل هذه الأوصاف المُركَّبة والمُفخَّمة في أسمائهم، ولعل أحمد يكون منحدرا منهم دون أن يعرف، لاسيما أن ملامحه، وصفاء بشرته يرجِّحان هذا الاحتمال، لكنه، حينما عرض على أحمد ما توصَّل إليه من تأمله في لقبه، دون أن يذكر له مسألة الملامح وصفاء البشرة، لم يُبْدِ أي حماس لهذا التَّخريج اللغوي، ولا أي اقتناع به، مع العلم أنه كان يحسن اللغة العربية، وكان قد تعلَّمها نطقا وكتابة في جزيرة زنجبار، كما أخبره، وهي الجزيرة التي وُلد ونشأ فيها، إلى أن بلغ سن العاشرة، وعندما قُتل والده سنة 1964، في المجزرة التي ارتكبها جيش "تانجانيقا" بزعامة جوليوس نيريري، أثناء انقلابه على السلطان جمشيد بن سعيد، حاكم عُمان وزنجبار - وراح ضحيتها آلافٌ من سكان الجزيزة، من العرب العُمَانيِّين وغيرهم من المسلمين - هرب مع عمِّه وبقية الأسرة في قارب صيد، وقذفت بهم أمواج المحيط، بعد ثلاثة أيام، على شاطئ من شواطئ جزيرة أنجوان، فاستقروا بعاصمتها موتسامودو منذ ذلك الحين.

أثناء انشغال أحمد ببعض شؤون دكّانه، انصرف ذهنه إلى التفكير في دلالة ما شاهده في ساحة البلدية، وعواقبه الاجتماعية والسياسية، ثم أحس، وهو مستغرق في التفكير، أن هناك من يرقبه، فرفع رأسه، ليرى فتاة في العشرين من العمر، تقف على بعد أمتار منه، تتأمّله وتبتسم، وتُبدِي من وراء ابتسامتها أسنانا بيضاء، لامعة كعِقد من الجوهر الأصيل، وكانت تحمل على رأسها فرعا من شجرة موْز، ينوء بثقل ثماره الخضراء، المتزاحمة فيما بينها، كأصابع عملاقة يشدُّ بعضُها بعضا، لا يقل وزنه عن خمسين رطلا، وهو ما زاد من طول الفتاة، وجعلها تبدو في عينيه كواحدة من "الأمازونيات"، المُحاربات، اللائي تحدثتْ عنهن الأساطير اليونانية القديمة، وقد قفزت هذه الصورة إلى ذهنه حين شاهد ساطورا طويل النَّصل يتدلَّى من خاصرتها. وكانت تتصبَّب عرقا، وترتدي فستانا خفيفا، باهت اللون، رديء القماش، يلتصق بجسدها من العرق، ويكشف عن مُنحنَيَاته وتعرُّجاته، وقد وضعت الشيرومانى على كتفيها، لتُغطِّي به رقبتها وصدرها، عوض الاتِّزار به كما تفعل نساء الأرخبيل، فابتسم لها بعد أن زال عنه عنصر المفاجأة، وعندئذ تقدَّمتْ خطوة أخرى، وأنزلتْ حملها على الأرض، وانتزعت ساطورها من خصرها، ووضعته إلى جانبها لكي لا يُعيق جلوسها على الأرض، وقعدَتْ قُبالته وهي تبتسم له باستمرار.

وتذكَّر أنه شاهد العديد من الرجال والنساء يحملون مثل هذا الساطور، ليستعملوه في شؤونهم اليومية المختلفة، كقَطع ثمار النارجيل، وجذوع الموز، وفي مهنة الجِزارة، وفي تقطيع أسماك التُّونة الضخمة، ويستعملونه أيضا في شق الطرق في الغابة كما قيل له. واستنتج من حِمْل الفتاة للساطور، أنها من أولئك النِّسوة اللائي يَحتطِبْن المَوْز من الغابة، ليبِعْنه في سوق المدينة.

ظلت الفتاة صامتة، تتطلع إليه بعينين واسعتين، حوْرَاويْن، وجفنين رقيقين، يعلوهما حاجبان مقوَّسان بشكل هلالين، بما يناسب تماما اتساع عينيها، واستدارة وجهها، واكتناز شفتيها، واستقامة أنفها، المتسع المِنْخرين بعض الشيء، فتحرَّك في نفسه نحوها ذلك الإحساس الطبيعي الذي يحس به أي رجل نحو امرأة جميلة، مكتملة الأنوثة، حتى ولو كانت مجرَّدة من أية زينة، وترتدي ثيابا خَلِقة كهذه الأمازونية التي يمسك البُؤس بخناقها. وأحس أنها زعزعت كيانه من الداخل، وأن ابتسامتها قد فعلت في نفسه فعل السحر.

في هذه الأثناء كان أحمد قد فرغ من خدمة أحد الزبائن، فأقبل على الفتاة، ليتبادل معها بعض كلمات لم يَعِ منها شيئا، أو بالأحرى، كان ذاهلا عنها، ثم دخل أحمد دكانه وعاد حاملا إليها إبريق ماء، فأخذت تعبُّ منه عبًّا، على دفعات متتالية، لتَروِي غُلَّتها

من ظمأٍ شديد، ثم غسلتْ وجهها، وسكبتْ ما بقي من الماء على قدميها، بعد أن رفعت فستانها إلى الركبتين، وأبانت عن ساقين فاتنتين، تتناسبان تماما مع قدِّها الممشوق، وكأنهما نُحتتا بعناية ربَّانية من شجر السنديان البُنِّي، تنتهيان بقدمين خشِنتَيْن، تنتعلان حذاء مطاطيا رخيص الثمن، ثم راحت تنشِّف وجهها بطرف شيرومانها، فكشفت عن عنقها الطويل، وجزء من صدرها العامر، ونهْدَيْها النَّافرين، فتحرَّك غول الرغبة النائم في داخله دون إرادة منه، وأحس أن مفاتن الأنثى فيها قد سلبته ما بقي لديه من عقل، لكنه سرعان ما تدارك أمره، وغضَّ بصره عنها، وأخذ يؤنِّب نفسه عن هذا السلوك غير الحضاري، الذي لا يليق برجل مثقف مثله، ويقول في سريرته: "كان حرِيًّا بك أن يتحرَّك ضميرُك من بؤسها، لا أن تتحرك غرائزك نحوها".

وانتبه إلى حوار تفاوضي دار بينها وبين أحمد، عن شيء لم يتبيَّنه ما هو، وكل ما فهم منه أن أحمد يرفض عرضها، فتدخَّل وسأله بالعربية عن المشكلة، فأخبره أنها تريد أن تُقايضه ببعض الموز مقابل قطعة صابون مُعطَّر، فقال له بدون تردُّد: "إعطها الصَّابون، وسأدفع لك ثمنه". فدخل أحمد الدكان وجاءها بقطعة الصابون، فأدركتْ أنه هو من طلب من أحمد ذلك، فقامت، وتناولت ساطورها، وقطعت حوالي ثلاثة أرطال من أصابع الموز،

وقدَّمتها لمصطفى، فرفض استلامها منها، فأصرَّت، واحتاج إلى أحمد ليقوم بالترجمة بينهما، وعبثا حاول أن يُقنعها بأنها هديةٌ منه، فأفهمَتْه عن طريق المترجم أنها لن تقبل قطعة الصابون إذا لم يقبل موْزها، فوجد نفسه مُضطرًّا إلى القبول حتى لا يُغضبها، ولا يُفسد عملية المُقايضة. وحينئذ عادت إليها ابتسامتها، ودسَّت الصابون في جيب صدرها، وعلَّقت ساطورها في خِصرها، وحملتْ موْزها على رأسها، وانطلقت مُنحدِرة نحو سوق المدينة.

وراح مصطفى يتْبَعها بعينين مُندهشتين، ومُعجبتين بكل شيء فيها، بجمالها، وبأنَفَتها، واعتزازها بكرامتها التي منعتها، على الرغم من عوَزِها، إلى أخذ أي شيء بلا مقابل، وبكفاحها في سبيل أن توفِّر لنفسها لقمة العيش بشرف، دون أن ينسيها ذلك أنها امرأة، وأنها تحتاج إلى العناية بأنوثتها، حتى ولو بقطعة صابون معطَّر، تُزيل به عرقها، وتُنعِش برائحته الطيِّبة جسدَها. وظل يرقبها من مكانه إلى أن اختفت في المُنحدر، سالكة الطريق المختصر، المُفضي إلى موقع المِدْفعين المُشرفين على ساحة البلدية.

وحين غابت عن عينيه سأل أحمد عنها، لكنه لم يخبره بشيء مهم، ما عدا أنه اعتاد على رؤيتها وهي راجعة من الجبل، تحمل الموز، بمفردها حينا مثل اليوم، أو مع نسوة أخْريات في معظم الأحيان، ليتوقَّفن عند دُكَّانه لاسترجاع بعض قُواهُن، وإرْوَاء

عطشهن، ثم شراء بعض حاجاتهن من دكانه. وقد سمع زميلاتها ينادينها "جُمان"، ومن بعض ما كان يدور بينهن من حديث، عرف أنها تُعيل أمها وإخوة لها.

وأخذ مصطفى يكرِّر اسم جمان على لسانه، كأنه كان يخشى نسيانه، ثم تذكر أن هذا الاسم قد مرَّ به من قبل، في قصة قرأها وهو في مرحلة الدراسة الثانوية، للكاتب الفرنسي "بروسبير ميريمي" عن الجزائر، كانت البطلة فيها تحمل اسم "جُمان"، وقال مُحدثا نفسه: "سبحان الله، إنه اسمٌ على مُسَمَّى، إنها حقا لؤلؤةٌ من الجوهر النادر، لم يستخْرِج مثلها صيادٌ قط من عمق البحر". وانساق مع التداعيات، ليرى نفسه هو ذلك الصياد الذي سيُخرِجها من الأعماق، ليصقلها بكل عناية، ويجعل منها أجمل جوهرة، في أجمل عِقد.

وانتبه فجأة إلى أنه قد أوغل في الوهم، وأطلق لخياله العنان ليسْرح ويمرح، ويتصوَّر أشياء بعيدة عن الواقع، وراح يتساءل مع نفسه مرة أخرى: "ترى، بأي صفة يُمكنني أن أكون ذلك الفارس الذي يُنقذ هذه المخلوقة مما هي فيه؟ وبأية وسيلة؟ وما حقيقة مشاعري نحوها؟ أهي الحب، أم الشفقة، أم غاية أخرى لا أمتلك الشجاعة لكي أصارح بها نفسي؟ هل سأغويها مثلا بالوُعود المعسولة، كما يفعل بعض صائدي الفتيات الفقيرات؟ وبأي لسان

وحاجز اللغة يقف حائلا بيننا، فلا أنا أفهمها، ولا هي تفهمني؟ أم أغريها بالمال والهدايا؟ وفي هذه الحال، هل أستطيع أن أغري فتاة بهذا الإباء وعزَّة النفس؟ وحتى لو تمكَّنتُ من إغرائها، أو الكذب عليها كما يفعل بعض صائدي الفتيات الفقيرات، هل سيطاوعني ضميري على التلاعب بمشاعرها، لأتخلى عنها في الأخير حين أمل منها؟".

وصارح نفسه بأن أوهامه هذه ما كانت لتراود خياله لو لم تكن الفتاة جميلة وفقيرة. ومرَّت في مُخيِّلته في هذه اللحظة صورة أولئك النسوة اللائي يَراهُن يوميا في السوق، وهن يرتزقْن ببَيع الموز، أو الليمون، أو جوز الهند، أو زيت النارجيل، أو الخُضار، أو ما شابه هذه البضاعة التي لا تُسمِن ولا تُغني من جوع، وقد أحرقت الشمس وُجوههُن، ودَبَغتْ جُلودهن، وامتصَّ الفقر عُصارة الشباب والجمال من أجسادهن، فخجل من نفسه، وتكدَّر من مواجهة الحقيقة، فقام ودفع لأحمد ثمن مشروب الزنجبيل وقطعة الصابون، وانطلق مكمِّلا مشواره، صاعدا نحو بيته في هضبة هومبو. وبعد أن سار مسافة، أدركه أحمد، ليسلِّمه، وهو يلهث، أصابع الموز التي قايضت بها جُمان قطعة الصابون.

وحينما دخل البيت، وجد عبدو ينتظر رجوعه، لينطلق إلى حال سبيله، بعد أن أنهى كل أشغال البيت، وأعدَّ له مائدة الغداء.

وقام عبدو، قبل أن ينصرف، بوضع ما أتى به مُستخدِمُه من جُبن وياغورت ومايونيز في البرَّاد، ورتَّب معجون الأسنان وصابون الحلاقة وعِطر ما بعد الحلاقة في الحمَّام، ثم سأله:

ـ هل أقلِي لك الموز؟

واستغرب سُؤال عبدو، وردَّ عليه:

ـ وهل يُقلَى الموزُ؟!

ـ بلَى، إذا كان أخضر، مثل هذا الموز الذي اشتريته.

ـ نجرِّبه إذن!

وبعد عشر دقائق، وهو الوقت الذي انتهى فيه مصطفى من اخذ حمَّام فاتر، كان عبدو قد انتهى من قلي المَوْز، ووضعه على السُّفرة مع الطعام الذي أعدَّه له من قبل للغداء، ومعه المَلَّحة وهريسة الفلفل الحار، فتناول شوكة، وتذوَّق الأكلة الجديدة، بعد أن ذرَّ عليها قليلا من الملح، وغمس قطعة الموز المقلي في الهريسة، فوجدها لذيذة جدا، وعبَّر عن إعجابه بها بحركة من رأسه وحاجبيه. وحينئذ ابتسم عبدو، واستأذنه في الانصراف، فأذن له، لأن ساعات عمله اليومي قد انتهت.

وأقبل مصطفى على غَدائه بشهيَّة. وأثناء ذلك راح يستردُّ في ذاكرته ما شاهده في هذا اليوم من أشياء استثنائية، بدْءً بما رآه في

ساحة البلدية، مرورا بما سمعه في بقّالة طاكي عن حرق إدارة الضرائب، إلى غريب المُصادفة التي حدثت له حين قابل الفتاة المُحاربة "جمان"، وما أحدثت في نفسه من أثر. وبعد أن أنهى غداءه، تمدَّد كعادته على سريره للقيلولة، واستسلم لغفوة لذيذة وهادئة، وصورة جُمان تداعب خياله.

قبل الثامنة مساء بدقائق، فتح الراديو على محطة الإذاعة المحلية، التي تُقدِّم في هذه الساعة نشرة أخبار يومية كاملة باللغة الفرنسية، وكان مُتشوِّقا إلى معرفة دافع إقدام اللجان الثورية على حرق محتويات البلدية في ذلك اليوم، وألحقوا بها إدارة الضرائب، وعبثوا بأوراق دار البريد. واكتشف، من نشرة الأخبار، أن حرق وتخريب مؤسسات الدولة قد مسَّ كل مُدن الأرخبيل بلا استثناء، وفي وقت واحد، وهو ما جعله يستنتج أن المسألة مُدبَّرة من فوق، كما ظن منذ الوهلة الأولى، واكتشف أيضا أن عملية الحرق قد شملت أرشيف القضاء الإسلامي، وسِجل الأصول الثابتة من عقارات وأراضي فلاحية أيضا، وفكَّر أن حرق أرشيف القضاء وسجل العقار، لا يمكن أن يكون ناتجا عن خطأ، كما حاول المذيع أن يبرر ذلك، ولكنه يكون أمرًا قد دُبِّر من أطراف لها مصلحة في حرقهما، مثل أرشيف الضرائب. وحين اندفع المذيع في تبرير ما حدث، بعبارات مُنمَّقة ومُفخَّمة، ويمتدح "الخطوات الثورية

الشجاعة التي أقدم عليها الشباب الثائر، في سبيل محو آثار الاستعمار، وقطع دابر الإقطاعية، وتحرير المجتمع من العبودية والاستغلال، إلى آخره" شعر مصطفى بالتقزُّز من هذا الخطاب الدُّهْمَوِي الممْجوج، فمد يده وأغلق الراديو، وقام إلى الحمَّام ليهيئ نفسه للنوم.

***

2

درسٌ في التشرِيح

لم يكن المُختبر الذي ورثته الثانوية عن الفرنسيين إلا هيكلا فارغا، يفتقر إلى أدنى مُتطلَّبات المخابر المدرسية، باستثناء بعض البَيارق والأنابيب الزُّجاجية، والأواني المعدنية، وبعض المشارط، والمقاص، والملاقط، وقناني كحول ومُطهِّرات، لهذا لم يكن يستعمل المختبر لإجراء التجارب مع طلبته إلا في حالات نادرة، عندما توَفُّر الإدارة بعض المُستلزمات التي تتطلَّبها التجربة، أو عندما يتعلق الأمر بفحص عيِّنات من البذور، أو النباتات، أو الحشرات والقوارض المَحليَّة، وهو ما جعل دروس العلوم جافة ونظرية في أغلب الأحيان، يعتمد فيها على الوصف، وعلى الصُّور إن وُجدت، أو على الرسوم المبسَّطة بالطَّباشير على اللوح الأسود.

عندما دخل الثانوية في السابعة صباحا هذا اليوم، أخبرته الإدارة أنها أحضرت له فأرين من فئران المنازل، بعد أن تعذَّر عليها توفير الفئران البيضاء التي طلبها منها قبل حوالي أسبوعين، بغرض إجراء عملية تشريح عليها مع طلبته. قيل له إنهم أحضروا

الفأرين من فندق "موريس"، فقرَّر في التَّوِّ أن يؤجل درس البقوليَّات، الذي كان قد أعدَّه لهذا اليوم عن أنواع الفاصوليا، إلى يوم آخر، ليقدِّم بدلا عنه الدرس المتأخر عن الأعضاء الباطنية للفأر. وفي المُختبر وجد عبد الرحمان، المراقب العام للثانوية ـ وهو يمني الأصل ـ في انتظاره بنفسه، ومعه عامل نظافة يحمل فأرين داخل مِصيلة من الأسلاك المعدنية، شبيهة بالقفص. وبعد تحية الصباح، سأل المراقب مازحا:

ـ آمل أن لا يكون السيد موريس قد باع الفأرين للثانوية؟

ـ لا يجرؤ على ذلك، لأنَّ له بِنْتا تدرس عندنا.

ـ هل يوجد مُخدِّر؟

ـ موجود منه قنِّينة في هذه الخزانة.

ـ والقُفَّازات؟

ـ ها هي ذي أيضا، في هذه العلبة الورقية. هل تحتاج إلى شيء آخر، يا أستاذ؟

ـ سلامتك.

ـ إذن، سأطلب من الطلبة الالتحاق بك هنا في المختبر بعد قليل.

وخرج عبد الرحمان والعامل، وتركاه يتأمَّل الفأرين، وكانا سمينين، تبدو عليهما أمارات النِّعمة، بفضل بقايا الأطعمة الكثيرة التي يتخلَّى عنها زبائن موريس في مطعم الفندق، وفي غرف النوم، مع العلم أن "فندق الهِمالايا"، وهذا هو اسمه، لا يستقبل النزلاء القادمين من خارج الجزيرة إلا نادرا، أما السُّواح، فلا وجود لهم أصلا، ولهذا كان موريس يعتمد في دخله على النزلاء المؤقتين، الذين لا يقصدون فُندقه إلا من أجل السُّكر، والبحث عن اللذة الرخيصة مع بائعات الهوى، اللائي اتخذن من "الهمالايا" مركزا للاستِرزاق، فيصعدوا معهن إلى غرف النوم، لقضاء ساعة متعة أو ساعتين، ويدفعوا مقابل ذلك ثمنا يُعادل قيمة المَبيت ليلة كاملة. ولم يكن يُهِمُّ السيد موريس وزوجته، إلا ما يدفعه زبائن الغُرف والمطعم، ولا تعنيهما بعد ذلك في شيء نظافة الغرف، ولا نوعية الأكل الذي يقدِّمانه للزبائن، وهو ما جعل الفئران تسرح وتمرح في أرجاء الفندق، وتتمتَّع بامتيازات النزلاء المُمَيَّزين.

وابتسم عندما تذكَّر تلك الليلة الليلاء التي قضاها في هذا الفندق البائس، عندما نزل أول مرة في الجزيرة، قادما إليها من "موروني" العاصمة، بعد أن عُيِّنْ أستاذا في ثانوية المدينة، فبات جائعا بسبب رداءة الأكل في مطعم الفندق، ولم يغمض له جفن طوال الليل، ولم ينم على السرير القذِر الذي وجده في الغرفة، مع

أن السيد موريس كان قد أعلمه، بفرنسيةٍ مُكسَّرة، أنها أحسن غرفة عنده في الفندق، واكتفى بالاسترخاء على أريكة جلدية كانت في الغرفة، ولم يُطفئ النور طوال الليل، خشية غزو الفئران. وكان كلما غلبه النوم أيقظه الضجيج الذي تثيره الفئران بين الحين والآخر في الروّاق الداخلي، الفاصل بين صفّين من الغرف، وهي تتصارع فيما بينها على بقايا أكل النزلاء، أو دقّاتٌ على الباب من بائعات الهوى لعرض بضاعتهن عليه. وما إن لاحت بشائر الصباح حتى غادر الفندق الموبوء على عجل، وكأنه هارب من خطر داهم، وقرَّر أن لا يبيت فيه ليلة أخرى، حتى لو اضطر إلى قضاء الليل في الشارع. ولحسن حظه أنه لم يخرج في ذلك اليوم من مكتب السيد عبد الودود، مدير الثانوية، إلا ومفتاح سكنه في مرتفع "هومبو" بجيبه.

لم يخرجه من ذكرى كابوس فندق موريس إلا دخول الطلبة عليه، وتحلُّقهم حول المصيدة الموضوعة على الطاولة الرُّخامية، حيث انشغلوا عنه بمراقبة الفأرين اللذين اشتد اضطرابهما في هذه اللحظات، بعد ما علت الضوضاءُ حولهما، وأحسًّا بخطر العيون المركَّزة عليهما، فاعتبر ذلك عاملا جيدا لجلب انتباههم لموضوع الدرس قبل الشروع فيه.

ودقَّ بالمسطرة المعْدنيَّة على الطاولة، فشدَّ انتباههم إليه، وطلب منهم توسيع الدائرة حول المصيدة، وشرح لهم باختصار

الغرض من وجود الفأرين، وهو القيام بعملية تشريح لواحد منهما، ومُعاينة مختلف أجهزته البيولوجية الباطنية. وهنا رأى التقزُّز يرتسم على وجوه بعضهم، وكان يتوقَّع رد الفعل هذا منهم، ولاسيما من الطالبات، فحاول أن يهوِّن الأمر عليهم بقوله: سنُخدِّر الفأر، حتى لا يشعر بأي ألم.

وفي هذه الأثناء التحقت "نايما" بالمختبر، ودخلت متسلِّلة لكي لا تُلفت النظر إليها، ولكن الأستاذ أحرجها عن قصد، عندما قال لها مُرحِّبا: أهلا نعيمة.

فالتفت الجميع نحوها، فراحت تعتذر وتتأسف عن التأخر. وأراد أن يمازحها فقال لها:

ـ نقبل اعتذارك بشرط واحد.

فأجابت على الفور، ودون تفكير: أقبل.

ـ دون أن تعرفي الشرط؟

ـ ولوْ..

ـ إذن، سأعطيك المقص، بعد أن أخدِّر الفأر، لتقومي أنتِ بعملية التشريح.

وانفجر الجميع ضاحكين، واندهشت نعيمة من المفاجأة، وتراجعت عن قبول الشرط، في حين راح بعض زملائها يحثونها على القبول، لكنها كانت مُصمِّمة على الرفض.

وانتظر قليلا إلى أن توقفت موجة التعاليق والضحك، واقترح أن تتطوع طالبة أخرى للقيام بالمُهمة بدلا عن نعيمة، فثارت الفوضى من جديد، وقابلت الطالبات الاقتراح بالرفض الجازم.

وعندما تفرَّس في وجوه الطلبة الذُّكور، فهموا غرضه، وحوّل معظمهم نظره عنه حتى لا يقع الاختيار عليه. وردَّ عليه إيسا (عيسى) قبل أن ينطق، حينما رآه يركِّز نظره عليه:

ـ لا أستطيع، يا فوندي، مستحيل.

وتخلَّى عن الفكرة، لأنه من الأول كان يمازحهم. وخطرت بباله في تلك اللحظة فكرة أخرى طريفة، فيها بعض المزاح، وفيها اختبار لهم، ليرى ردود أفعالهم إزاء ما سيعرضه عليهم، فقال في لهجة جادة:

ـ أمامنا، كما ترون، زوج من الفئران، ذكر وأنثى، فهل تفضِّلون أن نُشرِّح الذَّكر أم الأنثى؟

وجاءت النتيجة كما توقَّع، كل الذكور قالوا "نشرِّح الأنثى"، وكل الإناث قالوا "نشرِّح الذَّكر"، ووقعت بينهم فتنة، وساد الهرج، وتعصَّب كل فريق لجنسه. وانتظر إلى أن خفَّت حِدَّة الخلاف بعض الشيء، ليقترح عليهم حلا، كان قد فكر فيه في ذات اللحظة التي خطرت له فيها الفكرة، فقال:

ـ أدخِل يدي في المصيدة، وآخذ أولَ فأر تقع يدي عليه، دون تمييز، وسنتعرَّف على جنسه فيما بعد.

فوافقوا على المُقترح بالإجماع. وحينئذ لبس قُفَّاز المطَّاط الصِّناعي الرقيق، ونفَّذ العملية أمامهم وهم يراقبون حركة يده. وكان قد أعدَّ مادة التَّخدير مسبقا، فأمسك بالفأر من جلد رقبته من الخلف، ووضع القطن المبلل بالمُخدِّر على خيشومه، وظل مُمسكا به إلى أن سرَى المُخدِّر في جسده، وتوقَّف عن الحركة، فوضعه على قطعة خشب فوق الطَّاولة الرُّخامية، مقلوبا على ظهره، وتهيأ لعملية التشريح.

كانت عيونهم تنظر إليه، وخاصة عيون الطالبات، وكأنه جلّاد مُتحجِّر القلب، يُجهِز على ضحيَّته بلا رحمة، لكنه لم يُبَالِ بنظراتهم، وراح يقطِّع جلد الفأر، بدْءً من البطن، نزولا نحو فخذه الأيمن الخلفي، فالفخذ الأيسر، ثم صعودا إلى القفص الصدري، وإلى القائمتين العُلَيَايَيْن. وفي كل مرة كان يمسِك جِلد الفار بالملقط، ويثبِّته في قطعة الخشب بالدَّبابيس، على يمين الفأر وعلى يساره.

وأكمل العملية بشق جسد الفأر إلى حلقه، وقطَّع سجَف البطن، فظهر الحجابُ الحاجز وراءه، فقطَّعه هو الآخر من الوسط،

صعودا إلى الأعلى، فانكشف القلب، والغُدة الدَّرقية، وصارت كل أجزاء الفأر الباطنية واضحة: الرِّئتان، والكبد، والمعدة، والمستقيم، والأمعاء الدقيقة. ودعا الطلبة إلى تأمل كل هذه الأجهزة في الفأر، ومقارنتها بأجهزة جسم الإنسان الباطنية، في حين كانوا هم ينظرون إلى الجُثة المشرَّحة بتقزُّز ونفور، ثم سألهم: هل ترون أي فرق بين الجهاز التنفسي والهضمي في الإنسان وفي الفأر؟

وتردَّدوا في الإجابة، ولكن أكثرهم قالوا في الأخير: "يبدو أن لافرق"، والقليل قالوا "لا ندري"، فأكَّد لهم أن الفأر، كما يقول علماء التشريح، هو الأقرب إلى الإنسان في تركيبه الباطني من أيٍّ حيوان آخر.

ـ حتى القرد؟ سأل هالد (خالد).

ـ حتى القرد. إذ لا ينبغي علينا أن ننخدع بالشَّبه الظاهر بين الإنسان والقرد.

فاعترض خالد: لكنني قرأت أن عالما بريطانيا، لا أتذكر اسمه، قال إن الإنسان سليل القِرد.

ـ وهل صدَّقت هذا القول؟

ـ لا، لأن البشر كلهم من آدم وحواء! هذا ما نعرِفه كلنا.

ـ سأضع الجانب الاعتقادي جانبا، لأقول لك: إن عالم الأحياء البريطاني تشارلز داروين، وهذا اسمه، قد جاء بنظرية تقول إن أصل الإنسان قرد. قال هذا قبل ما يزيد عن قرن ونصف القرن، ولم يُثبت، لا هو ولا غيره من الأتباع، بالدليل العلمي القاطع صحة نظريته، وقال أيضا إن كل الكائنات الحيَّة من أصل واحد، وهذا القول أكثر إقناعا من الوجهة العلمية، بدليل ما ترونه في الفأر المُشرَّح أمامكم. لكنني أحذّركم هنا من التَّسرع في الاستنتاج، والقول بأن أصل الإنسان فأر!!

وضحكوا للنُّكتة، وعندما هدأوا، ولم يطرحوا أسئلة أخرى، ولم ينافشوا، أخذ يقطِّع أعضاء الفأر عضوا عضوا، ويعرضها أمام أعينهم، ليتبيَّنوا شكل العضو، وحجمه، وخصائصه، ودعاهم إلى لْمسها، فتراجعوا إلى الخلف، ولم يجرؤ أي واحد منهم على لمسها ولو بطرف المِلقط.

و سألهم، كعادته في نهاية كل درس، إن كانت لديهم أسئلة، فعاد خالد ليسأله:

ـ لا أدري، يا فوندي، ما الفائدة من دراستنا للفأر، وتشريحه؟!

فتعجب من سؤاله، ورد عليه بالسؤال:

ـ ألم تر التشابه الكبير بين أجهزة الفأر الباطنية ومثيلاتها لدى الإنسان؟

ـ وماذا نستفيد من هذا؟! أجاب خالد مُكابرا.

ـ دعنا من الفائدة التي تعود علينا بشكل مباشر، وأجبني، ألم يتوصل الأطباء الباحثون، عن طريق دراستهم للفأر، وإجراء التجارب عليه، إلى نتائج باهرة، عادت على صحة الإنسان بفوائد كبيرة؟

ـ لكنَّ دراستنا للزِّراعة أهم، من أجل توفير الغذاء، لأن بلدنا زراعي في المقام الأول.

ـ أوافقك من حيث المبدأ، ولكن، ينبغي أن لا يصرفنا هذا عن دراسة أشياء أخرى، ومنها الحشرات والقوارض، وهي جزء من منهج دراسة العلوم، وهنا أعود إلى الزراعة لأسأل: ألا يوجد من بينكم من ينوي التخصص في دراسة الزراعة مستقبلا؟

ـ أنا، أجاب أبوبَكَر، أريد أن أكون مُهندسا زراعيا مثل رئيسنا علي صواليح.

ـ هذا جيد. لكن، ألا تتطلب الزِّراعة دراسة البيئة المحيطة بها؟ مثل دراسة الجوائح والآفات التي تُصيب الزراعة، ومنها الفأر

الذي يُعدُّ واحدا من أخطر الآفات التي تتسبب في إتلاف المزروعات، وإلحاق الأضرار الكبيرة بها. أتدرون كم تلد الفأرة الواحدة في السنة؟

وتطلَّع في وجوههم، وانتظر الجواب، ولمَّا لم يُجب أي أحد، تولَّى الإجابة عن سؤاله بنفسه:

ـ تلد الفأرة ما بين ثمانين ومائة وأربعين فأرا في السنة. ويُقدِّر المختصُّون مقدار ما يُتلفه الفأر الواحد من المحاصيل الزراعية بعدَّة قناطير من الحبوب في السنة، كما يتلف سنويا جذور آلاف النَّباتات والأشجار، ولكم أن تُجْرُوا عملية حسابية بسيطة لتقدِّروا ما يتسبب فيه الفأر من الأضرار. ومن هنا نستنتج أنه عدو لدود للإنسان، فكيف لنا أن نتغلَّب على هذا العدو الشرس، ونمنعُه من إلحاق الضرر بنا إذا لم ندرسه، ولم نعرفه معرفة جيدة؟

وراح ينظر في وجوههم، ليتبيَّن أثر كلامه عليهم، وتوقَّف عند خالد، ليسأله: ماذا تقول يا خالد؟

ولم يجبه بشيء، وظل يُبحلق فيه بنظرة استغراب أكثر ممَّا هي نظرة اقتناع، وحينئذ أضاف:

ـ ... ولا أريد أن أسرد عليكم بعضًا من الكوارث التي تسبَّب فيها الفأر للإنسان قديما، بما كان ينقله من الأوبئة الفتَّاكة،

ولاسيما وباء الطاعون الذي أفنى الملايين من البشر في القرون الوسطى.

وفي هذه الأثناء دقَّ جرس الاستراحة، وكان عليه أن ينتقل بعد انتهاء فترة الرَّاحة إلى فصل آخر، لتقديم درس لفوج طُلابي آخر عن البعُوض المُسبِّب لحُمَّى الملاريا، فطلب منهم تأجيل أسئلتهم إلى يوم آخر، على الرغم من إلحاحهم عليه ليخبرهم بجنس الفأر الذي شرَّحه؟ وكيف يُمكن لهم أن يفرقوا بين ذكر الفأر وأنثاه.

في قاعة الأساتذة قابل الأستاذين البلجيكيَّيْن "غابريال لامبير" و"أرتور لانسن"، فبادره هذا الأخير، وعلامات السرور بادية على وجهه: أستاذ بن سابيد، أنتَ مدعوّ لحفلة عُرسي يوم السَّبت القادم.

وقدَّم له ظرفا يحوي بداخله بطاقة الدَّعوة، فشكره، وهنَّأه على دخول القفص الذهبي، ثم مضى إلى آخر القاعة حيث كان الأستاذ السنغالي أمادو ديالو، أستاذ اللغة الفرنسية، جالسا بمُفرده، يُقلِّب بعض أوراق الطلبة أمامه، قبيل الالتحاق بفصله، ووقعتْ عينه على واحدة من تلك الأوراق، وكانت تحمل العلامة 20/5 فسأله: كيف أحوال طلبتك، يا سيد ديالو؟

فأجابه، والأسف بادٍ على وجهه: كما ترى. سُقوط حُر، للأغلبية الساحقة.

وضحك وردَّ عليه: لستَ وحدك في هذا، فكلنا نعاني من تدنِّي مستوى الطلبة.

وانشغل بإخراج رسوم وبيانات من دُرج خزانته في قاعة الأساتذة يحتاج إليها في درسه، وراح يراجعها واقفا، إلا أن جرس انتهاء الاستراحة لم يُمهله حتى ينتهي من مراجعتها، فوضعها في محفظته، وتوجَّه رأسا إلى حجرة الدرس.

***

بعد الغداء، استسلم لنوم لذيذ، في قيلولة هادئة، استغرقت حوالي ساعة، ولم يوقظه من نومه إلا شخير مُحرك سيارة دخل إلى فناء بيته ثم توقف، فتطلَّع من وراء ستارة النافذة، فرأى سيارة "مِهاري" مكشوفة السقف متوقِّفة، ولم ير راكِبيها، لأنهم كانوا قد نزلوا منها، وسمع دقًّا مُتعدِّد الأيدي على الباب. ولأنه كان يجهل من يكون زُوَّاره، وكان مُتجرِّدا من ثيابه إلا من سروال قصير، بسبب الحرارة المُرتفعة، وخُلوِّ المسكن من جهاز للتَّكييف، فقد شدَّ حوْل وسطه، على طريقة أهل البلد، مِنشفة قطنية كبيرة، من مناشف الخروج من الحمَّام، وتوجَّه ليفتح الباب، ففوجئ بمجموعة من

طلبته، تتقدَّمهم نعيمة. ولاحظ بسرعة وجود وجه بينهم لم يعرفه، وكان يبدو أكبرهم سِنًّا، فبادرتْه نعيمة مُتحدِّثة باسمهم:

ـ جئنا نزورك، ونطرح عليك أسئلة تتعلق بدرس الصَّباح، إكمالا للنقاش الذي دار معك حول الفأر.

ولم ير بأسا في استقبالهم، لأنهم كانوا جماعة من فتيان وفتيات، على الرغم من انزعاجه من زيارتهم، لأنهم لم يُعلِموه بها، ولم تكن في وقت مُناسب، والأسوأ من هذا أنهم لم يعتذروا له، ولو شكليًّا، فدعاهم إلى الجلوس في الصالون، ورجع إلى غرفة النوم ليرتدي قميصا قطنيا خفيفا، مقطوع الكُمَّين، واحتفظ لنصفه السُّفلي بِمنشفة الحمَّام.

وفي غياب عبدو، قام بنفسه يخدمُهم، وقدَّم لهم "كانيطات" من الكوكاكولا والسِّيفن آب، التي كان يحتفظ بها دائما في البرَّاد، احتياطا لمثل هذه الزيارات المفاجئة، وكان قد أوصي عبدو بتجديدها كُلَّما نفَدت، أو أوشكت على النفاد، ووضع أمامهم على طاولة الصالون صحن مُكسَّرات، وعلبة من كُوَيْرات صغيرة من الشوكولاطة السويسرية، المغلَّفة بورق فضي وقرمزي جميل، كان قد اشتراها آخر مرة من بقَّالة السيد طاكي.

وأراد أن يعرف السبب الحقيقي الذي أتى بهم، فسألهم بلهجة بين الجد والهزل:

ـ ترى أي ريح هبَّت وحملتكم إلى هضبة هامبو؟ أهو درس التَّشريح حقا، أم هو شيء آخر؟

وتطوَّعت نعيمة مرة أخرى لتجيب:

ـ كنا في جلسة عمل مع الحاكم العام للجزيرة، وعندما انتهينا، اغتنمنا الفرصة وقررنا أن نزورك، وهذا كل شيء.

ـ أهلا وسهلا. لكنني لم أتعرَّف على هذا "الرَّجل الشاب" المُرافق لكم؟

ـ هذا "أبو- سيندي"، مسؤول اللجان الثورية، ورئيس الـ "مايِنْدروزي" على مستوى جزيرة أنجوان.

ـ عفوا، لم أفهم معنى "مابيندروزي"؟

ـ معناها المُناضلون الثوريُّون.

ولمعت عينا أبو- سيندي بما يشبه الزَّهو بأهمية الوظيفة الثورية التي يشغلها، وكان يلعب بمفاتيح "المهاري" في يده، وافترَّ فمه عن ابتسامة أبانت عن ثنايا ناصعة البياض، زادها سوادُ بشرته القاتِم لَمعانًا، فخاطبه بالعبارة المحفوظة في التعارف الأول: "مسرورٌ بمعرفتك".

ولم يجد الأستاذ تفسيرا لصمت أبو- سيندي، وعدم مشاركته في الحوار، أكان بدافع واجب التحفُّظ الذي تفرضه عليه مُهمته

كرئيس للجان الثورية، أم صعوبة التعبير عن أفكاره باللغة الفرنسية، وهي اللغة التي كان يتحاور بها مع الطلبة، ورجَّح هذا الاحتمال الأخير من العبارات القليلة التي تفوَّه بها أبو- سيندي، لكنَّ ما أزعجه من هذا الثوري، المُعتز بمكانته، هو إشعاله سيكارة دون استئذان، راح ينفض رمادها عند قدميه، وهو ما صبر عليه وتحمَّله مُكرها، لأنه ضيف في بيته، لكن ما أزعجه منه أكثر، هو طلبه زجاجة بيرة، فكظم دهشته من جُرأته وأجابه:

- لا أشرب، ولا أدخِّن.

وكان ينتظر منه، بعد سماعه هذا الرَّد، أن يبادر إلى إطفاء سيكارته، لكنه لم يفعل، وظل ينفث الدخان في فضاء الصالون حتى أتى على السيكارة، ثم قام من مكانه ليتوجَّه إلى الحمام، دون استئذان، مرة أخرى، ليلقي بعقِب السيكارة في المرحاض، ويتبوَّل بعدها واقفا، وقد سمعه وهو يفعل ذلك لأنه لم يُغلق باب الحمَّام، وسمعه رفاقُه مثله، دون شك، ورجع دون أن يسحب ماء السِّيفون على بوْله، فترك هذا التصرُّف انطباعا سيئا في نفسه، وتساءل في سريرته متعجبا: "أهذا هو نموذج القائد الثوري الذي يوجِّه غيره، ويعمل على توعيَّتهم، والسير بهم في طريق التغيير؟! ألا ما أتعَس ما تركتَ وراءك يا "غِيفارَا" من أشباه الثوار في هذا العالم!"

وأخرجته نعيمة مما كان يفكر فيه، بسؤالها عن الكيفية التي تجعل الشخص يميِّز بين الفأر الذَّكر وأنثاه؟

وكان الأستاذ مصطفى يأمل أن يتطرقوا إلى موضوع حرْق وثائق البلدية عوض السؤال عن الدرس، لعلَّه يستَشِف حقائق أخرى تختفي وراء العملية، أو يتبيَّن له، على الأقل، مدى وعي هؤلاء الشباب بنتائج الفعل الذي قاموا به، ومدى تداعياته على المستوى الاجتماعي في المستقبل. وكان حريصا أن لا يسألهم عن ذلك، نظرا لكونه أجنبيا عن البلد، ولا يحق له أن يتدخل في شؤونه، وأن يترك المبادرة تأتي منهم، لكنهم لم يتطرقوا للمسألة مطلقا. وفكَّر أن امتناعهم عن ذلك، ربما يعود إلى وجود أبو ـ سندي معهم، فتركوا له المُبادرة، باعتباره المسؤول الأول عن تنفيذها في الجزيرة.

وبدا وكأنه كان يفكر في السؤال الذي طرحته عليه نعيمة، ثم أجابها وهو يبتسم:

ـ نتعرف على تكون جنس الفأر بفحص أعضائه التناسلية، ونستطيع، على العموم، أن نميِّز بين الذكر والأنثى من حجم كل واحد منهما، حيث نلاحظ أن حجم الذكر أكبر، وهذا ينطبق على الإنسان كما تعلمون، ونستطيع أن نتعرف على الأنثى بوجود

خمْس أو ستٌ حلَمَات وردِيَّة اللون في صدرها، تُرضع منها خمسة أو ستة من صغارها في وقت واحد.

وتوجَّه إلى نعيمة ليضيف قائلا:

ـ وتستطيعين أن ترجعي في هذا إلى الكتب العلمية عن القوارض بمكتبة الثانوية، أو إلى دراسات مفصَّلة عن الفأر، تجدينها في أعداد من مجلة "ناشيونال جيوغرافيك"، وهي موجودة في المكتبة أيضا، ولكن إذا كنتِ تحسنين القراءة باللغة الإنكليزية.

وسأله أبوبَكَر عن كيفية القضاء على الفأر في المنازل وفي الحقول. فأوضح له أن هناك فرقا بين فأر المنازل وفأر الحقول، من حيث الحجم واللون، فالأول أصغر حجما، ولونه رمادي في الغالب، أما فأر الحقول فهو أضخم، ويميل لونه إلى السواد، وأما أفضل طريقة للقضاء عليه في المنازل، فتكون بحرمانه من مصادر الأكل والشرب، لأن الفأر لا يحتمل الجوع أكثر من يومين، والعطش أكثر من أربعة أيام، وذلك بالغلق المُحكم على المواد الغذائية، فلا يصل إليها، وتجفيف البِرك والأحواض المائية حول البيت، وعدم إلقاء القمامة في غير الأماكن المخصَّصة لها، وتكون هي الأخرى مُحْكَمة الغلق، لكي لا يتسلَّل الفأر إلى داخلها. وأما القضاء على فأر الحقول فهو أمر أصعب، ولا تنفع معه طرق الإبادة

التقليدية. ولهذا ابتكر العلماء الهنود والصينيون، في العصر الحاضر، طريقة فعَّالة تحُدُّ من تكاثر أعداده، وتوفِّر آلاف الأطنان من الحبوب التي يستهلكها، أو يُتلفها كل سنة، وتتمثل في وضع أدوية تعقِّم إناث الفئران، وتمنعها من الحمل والولادة، وقد أعطت هذه الطريقة نتيجة باهرة.

وعلَّقت نعيمة على هذا الابتكار وهي تتصنَّع الجِد:

ـ الأنثى في الأخير هي التي تدفع الثمن، حتى في مجتمع الفئران.

وضحكوا من لهجتها الاحتجاجية، وعلَّق الأستاذ على قولها مبتسما، وباسطا يديه في استسلام:

ـ هذا قدَرُها.

وتدخَّل أبو ـ سيندي في هذه المرة ليقول: سنستورد هذا الدواء المعقِّم للفئران من رفاقنا الصِّينيين، فهم أصدقاؤنا، وحلفاؤنا في النضال ضد الأمبريالية، ولن يبخلوا علينا به.

وفي هذه اللحظة قامت نعيمة فلبست شيرومانها، إيذانا بانتهاء الزيارة، فقاموا معها، لأنها هي صاحبة فكرة الزيارة حسب ما بدا للأستاذ، غير أنها توقَّفت فجأة، وكأنها تذكَّرت شيئا ما مهما، لتسأله:

ـ لكنك، يا فوندي، لم تخبرنا إن كان الفأر الذي شرَّحته في المختبر ذكرا أم أنثى؟

وأجابها بلا تردد: كان ذكرا.

ـ لحسن الحظ أن الأنثى نجت في هذه المرة من المِشْرط.

وضحك الأستاذ ساخرا من ارتياحها، فأثارت ضحكته شكوكها، وسألته في إلحاح:

ـ هل في المسألة سر؟ أخبرنا من فضلك، يا فوندي

وراح الجميع يتطلع لما سيجيبها به، فحرَّك رأسه وقال:

ـ كان كلا الفأرين ذكرًا

وأبدت نعيمة ارتياحها مرة أخرى:

ـ المهم أن الفأر المُشرَّح لم يكن أنثى.

وتدخل خالد أخيرا ليسأله متعجِّبا:

ـ إذا كان كلا الفأرين ذكرا، فلماذا خيَّرتنا بين تشريح الذَّكر أو الأنثى؟

ـ فعلت ذلك لكي أعلِّمكم درسا عمليًّا آخر، لا يدخل في علوم الطبيعة.

ورآهم يتطلَّعون جميعا لمزيدٍ من شرح ما يعنيه، فأضاف:

ـ هذا يدخل في الفلسفة، وعلم الاجتماع، والسياسة، وما إلى ذلك. لقد أردتُ أن أعلِّمكم، بطريقة عملية ملموسة، كيف تُثار الفِتن في المجتمعات، عن طريق النَّعرات القبلية، أو الاختلافات الدينية، أو العِرقية، أو التمييزيَّة بين المرأة والرجل. فهذه الفِتن كلها تخلق الصِّراعات داخل المجتمع الواحد، وتُفرِّق صفوفه، ولا تعود بالفائدة على أي طرف فيه.

ـ لكنك أعطيتنا حلا سهلا للمسألة قبِل به الجميع، يا فوندي! وهو أن تمسك بالفأر الذي تطاله يدك دون تمييز.

ـ هذا صحيح، لأنني أنا الذي أمسِك بخيوط اللعبة، وأنا الذي أثرتُ الفِتنة بينكم، أعني بين الطلة والطالبات، لأن مثير الفتنة هو الذي يتحكَّم فيها، وهو الذي يوجِّهها الوجهة التي يريدها، وفي هذا درس آخر يمكن الاستفادة منه، وهو أن لا تعطوا الفُرصة لأيٍّ كان ليتلاعب بعقولكم، ويثير الفتنة فيما بينكم، ذلك هو غرضي الأول والأخير من هذا الاختبار، وأتمنَّى أن تستفيدوا منه أيضا.

وعلى غير توقُّع منه، سأله أبوـ سيندي:

ـ وما رأيك، يا فوندي، في المؤامرات والفتن التي يثيرها أعداء الثورة في مجتمعنا؟

وبطبيعة الحال، لم يكن الموقف مناسبا للخوض في الموضوع، ولا الإجابة الصريحة عنه ممكنة، وخاصة مع واحد من حرًاس النظام القائم. وجال بخاطره أنه ربما أراد أن يدفعه بهذا السؤال إلى كيل المديح للنظام أمام الطلبة، والتَّنديد بأعداء الثورة، كما وصفهم، ولهذا قرَّر أن يضعه في حجمه الطبيعي، ويَحرِمه من هذا الشرف الذي طمع في الحصول عليه منه، فردَّ قائلا:

ـ لا أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال، لأنني لم أقِم في بلدكم مدة طويلة، تسمح لي بإبداء الرأي في موضوع كبير كهذا.

وبهذه الإجابة الدبلوماسية، والمخيِّبة لرجاء رئيس اللجان الثورية، خُتِمت زيارة "المابندروزي" له، فشيَّعهم إلى خارج البيت، ثم قفل راجعا، لإعداد فنجان قهوة من بُن أرابيكا الأصيل، يعدِل به مِزاجه، ويُعينه على التركيز في إعداد درسه لليوم التالي.

* * *

3

عُرسٌ بِلجيكِي قَمَري

قَرَّر أرتور لانسن أن يقيم حفل عُرسه في كَباريه "عُش الغُراب"، الواقع خارج المدينة، على بعد ثلاثة أميال منها تقريبا، تكتنِفه الغابة من جهات ثلاث، ويشرف على البحر من الجهة الغربية، وهو يشبه في شكله، عند النظر إليه من خارجه، عُش غُراب مقلوب، غُطِّيت قُبَّته بالقش، ومن هنا جاءت تسميَّته بعُش الغراب، أما فِناؤه الخارجي المُحاذي للبحر، ويفصِله عنه جدارٌ صخري، فقد سُقِّف بالقصب لحماية الزَّبائن من شمس النهار الحارقة، وفي هذا الفناء الرَّحب، المفتوح على البحر، تُقام معظم الحفلات، نظرا لحرارة الجو في الأرخبيل طوال شهور السنة، مما يجعل إقامة الحفلات في أماكن مغلقة أمرا مستحيلا، ويتَّسع الفِناء للجوقة الموسيقية، التي تعتلي سطحا صغيرا في الركن المُلاصق للعُش، يرتفع قليلا عن مستوى أرضية الفناء، بما يسمح لرُوَّاد الكَباريه برؤية جميع العازفين، ويتَّسع وسطُه لما لا يقل عن عشرين راقص، وتُحيط بجوانبه طاولاتٌ يجلس إليها الزبائن ليأكلوا،

ويشربوا، ويتمتَّعوا بالتفرُّج على الرَّاقصات والراقصين، أو يدخلوا معهم حلبة الرقص بسهولة، حينما تهزُّهم النشوة، وتلعب برؤوسهم الخمرة.

في السادسة مساء، خرج مصطفى بن سعيد من بيته، حتى يتمكَّن من الوصول إلى مكان الاحتفال في الوقت المناسب. وكان قد تهيأ للمناسبة بما يليق بها من الأناقة، فأخذ حمَّاما ساخنا، وحلق ذقنه بعناية، وتعطَّر، ولمَّع شعره بأحد أجود كريمات الشعر، كان قد اشتراه قبل شهور من باريس، حين مروره بها وهو في طريقه إلى الجزر، وظل يرقد في حقيبة سفره كل هذا الوقت، ولبس بنطلونا أزرق، بلون البحر، من قُماش "التِّرغال" غير القابل للانكماش، وقميصا أبيض، مقطوع الكُمَّين، مُخطَّطا بالأزرق الفاتح والبُني، وانتعل حذاء صيفيا خفيفا، يريح القدمين، ويحُول جلدُه المُثقَّب دون تعرُّقهما.

ما إن تجاوز باحة بيته بعدة أمتار، حتى صادف في طريقه سيارة أجرة، كانت عائدة إلى وسط المدينة، بعد ما أوصل سائقُها أحد قاطني هضبة هومبو، فأوقفه، وطلب منه أن يوصله إلى عُش الغراب. وكانت السيارة من نوع "رونو 4"، وهي السيارة المستعملة أكثر من غيرها عند أصحاب سيارات الأجرة في المدينة، نظرا لصغر حجمها، مما يتيح لها الدخول إلى الأزقة الضيقة،

ورخص ثمنها قياسا بغيرها، وقلة استهلاكها للوقود، وتوفُّر قطع غيارها نسبيا. وكانت أغلب سيارات الأجرة في الجزيرة قديمة، ومستهلكة، لكن السيارة التي ركبها كانت أسوأ من أية سيارة تنقَّل فيها من قبل، إذ كانت في حالة يُرثى لها من القِدَم والتَّدهور، وقد مال هيكلها على جانبها الأيمن، وتخلُّعت أبوابها، وتهالكت مقاعدها، وحال لونها، وعلاها الغبار، حتى إنه خشي على بنطلونه وقميصه أن يتحوَّلا إلى اللون الرَّمادي الباهت، وفكَّر في النزول منها، والبحث عن غيرها، ولكنه تراجع حينما ألقى نظرة على ساعة معصمه، وقدَّر أنه قد لا يجد في الأنحاء سيارة أجرة أخرى بسهولة، فيصل متأخرا، وهوالذي لا يحب التأخر في المواعيد، فتحمَّل البهْدلة مضطرا، إلى أن وصل. واكتشف أن السائق رجل طيِّب وقَنُوع، حينما لم يطلب منه، كما توقَّع، ثمنا مرتفعا، يتناسب مع مظهره، فنفحه لأجل ذلك بقشيشا مُحترما.

وجد في الاستقبال غابريال لامبير، صديق أرتور وابن بلده، يساعده شخص آخر من أبناء الجزيرة، خمَّن أنه قد يكون من أسرة العروس، فسلَّمه غابريال قصاصة ورق، ودعاه إلى اختيار مكان للجلوس إلى إحدى طاولات الفِناء، وكان أكثرها ما يزال في هذا الوقت شاغرا، فدسَّ القُصاصة في جيبه، واختار مكانا مُتميِّزا، يُشرف على البحر، ويبْعُد عن منصَّة الجوقة الموسيقية بمسافة

مقبولة، تجعله بمنأى عن الضجيج المباشر لأصوات آلاتها الموسيقية العالية. وحيث أن العروسين مازالا لم يصلا بعد، والحفل لم يبدأ، فقد انصرف إلى متابعة قرص الشمس الأحمر وهو يلامس الأفق البعيد، ويغطِس في ماء البحر شيئا فشيئا، في منظر أخّاذ، إلى أن غاب أخيرا عن ناظره، تاركا وراءه شفقا شديد الاحمرار، كأنه ناتج عن حريق مهول.

عندما غابت الشمس، أُشعِلت الأضواء في العُش، فرجع ببصره نحو فضاء الفناء، فوجد العديد من الطاولات قد شُغلت، حينما كان منصرفا لمشاهدة منظر الغروب، والتقت عيناه بأعين بعض زملائه من الأساتذة المدعوّين، وكان من بينهم "فيكتور ماتياس" وزوجته "هيلان"، وهما من لوكسمبورغ، يشاركهما في الطاولة نفسها خليل الحارثي، اليمني الأَصل، وزوجته الفرنسية ماريان، وغير بعيد عنهم جلس الثلاثي الكندي، سوزان، وإيميلي، وبرتران، الذين لم تعلق ألقابُهم بعدُ بذاكرته، لقلة اللقاء معهم، وقد انضم إليهم في الطاولة نفسها أمادو ديالو السنغالي، فحيًّا من مكانه كل من التقت عيناه بعينيه منهم، بابتسامة خفيفة، وانحناءة من الرأس.

وتذكّر القُصاصة الورقية التي سلّمه إياها الأستاذ غابريال عند وصوله، فأخرجها من جيبه، وقرأ ما حوَته، وكانت عبارة عن تعليمة

موجَّهة للمدعوِّين جميعا، مكتوبة بخط واضح وجميل، تقول إنه لا يحق للمدعوِّ أن يتناول أكثر من طبق أرز واحد بسمك التُّونة، وزجاجة بيرة، أو كانيطة كوكاكولا واحدة، ويدفع من جيبه كل ما زاد عن هذا الحد من الأكل أو الشراب، فنظر عند قدميه يمينا ويسارا، بحثا عن سلة مُهملات، وعندما لم يجد، أعاد دسَّ القصاصة في جيبه، وهو يقول مع نفسه: "يا له من كرم بلجيكي لا مثيل له !".

وفي هذه اللحظات وقف قُبالته رجلٌ أربعيني، مهيب الطلعة، وخَطَ الشَّيب عارضيْه، يضع نظارات طبية مذهَّبة الإطار، ويلبس طقما صيفيا أبيض، مقطوع الكُمَّين، ويضع على رأسه قبَّعة قَش باللون نفسه، تُضفي عليه مزيدا من الأناقة، وتدلُّ على أنه أجنبي عن البلد. وكانت إلى جانب الرجل فتاة في العشرينيات من العمر، متأنقة هي الأخرى في لباسها، ولكنه لم يدقِّق النظر في تفاصيل لباسها، لأنه انشغل بالرد على الرجل حين سأله وهو يبتسم له:

ـ هل تجلس وحدك إلى الطاولة؟

ـ كما ترى.

ـ أتسمح لنا أن نجلس معك؟

ـ بكل سرور.

ووقف احتراما للرجل ومرافِقته، ومدَّ يده مُصافحا، ومقدِّما نفسه:

ـ مصطفى بن سعيد، أستاذ العلوم بثانوية موتسامودو المُختلطة.

فصافَحَه الرجل، وقدَّم له مرافقته أولا:

ـ الآنسة أندريانا باليانوفانا، مُحاسِبة رئيسية في شركة "المنشآت الهيكلية"، الفرنسية الملغاشية المحدودة.

ـ أتشرف بمعرفتك، آنسة أندريانا باليا...

وتعثَّر لسانه وهو يحاول النطق باسمها الثاني، فقالت وهي تبتسم:

ـ يمكنك أن تناديني، ببساطة، أنْدرِيَا، فهذا أسهل.

وحينئذ قدَّم له الرجل نفسه:

ـ اسمي جورج، المهندس المسئول عن فرع شركة المنشآت في الأرخبيل، وأُعفيك من ذكر لقبي، لأنك لن تحفظه أبدا.

وأتبع المهندس كلامه بضحكة، ثم أضاف شارحا:

ـ ألقابُنا، نحن المَلغاشيِّين، طويلة جدا، وفيها حروف مُتصادِمة، وهذا سببُ الصُّعوبة التي يجدها الأجنبي في نطقها، أو حفظها.

فقال بكل أدب:

ـ سأناديك إذن، السيد جورج. أتشرَّف بمعرفتك.

فرد عليه الرجل مجاملا:

ـ نادِني جورج، بلا كُلفة، أرجوك.

ودعاهما إلى التفضُّل بالجلوس، ثم سأل:

ـ أنتما إذن، من مدغشقر؟

ـ من العاصمة "أنتاناناريفو"، أو ببساطة: تناناريف.

وما إن اتخذا مكانيهما إلى الطاولة حتى وصل، في تلك الأثناء، موكب العروسين، فانقطع الحوار بينه وبين المهندس، ودوَّت القاعة بالتصفيق، وصفَّق ثلاثتهم مع المُصفقِّين للعروسين، وكانا في أبهى حُلة لهما، أرتور بطقم أسود، وقميص أبيض، زُيِّنت ياقتُه بربْطة سوداء، عقدها حول عنقه في شكل فراشة، على الرغم من الحرارة والرطوبة العالية، مما جعل جبينه يتفصَّد عرقا، وقد سوَّى شعره الأشقر بعناية، وشذّب لحيته، الضاربة إلى الأحمر، وصونيا بكامل لباس العروس، من طرْحة بيضاء، وحذاء، وقفازين من ذات اللون، وتاج ذي لون فضِّي على الرأس، مرصَّع بالجواهر الاصطناعية البرَّاقة، وقد زادتها أناقةً زهورُ الياسمين والورد التي زيَّنت بها شعرها ونحْرها. وكان في صحبة العروس صديقاتُها

المقرَّبات، اللائي لم يعرف الأستاذ مصطفى منهن إلا تلميذتيه نعيمة وبهيرة، وكنَّ يلبسن قمصانا ناصعة البياض، في انسجام مع لباس العروس الأبيض، وتنُّورات طويلة إلى حد الكعبين، مزركشة بألوان مختلفة، زاهية، يغلب عليها اللون البرتقالي والأصفر، ويُزيِّنَّ، هن الأخريات، شُعورهن ونُحورهن بأزهار الياسمين والورد، وهو ما أشاع في جو المكان رائحة عبِقة، دغدغت أنوف المدعوِّين، وقد نزعْن عنهن الشيرومان التقليدي، وكشَفْن بذلك عن قُدود فارِهة، وصدور ناهدة، مما جعل عيون المدعوِّين مُوزَّعة بينهن وبين العروسين.

تصدَّر العروسان المجلس، وجلست صديقات العروس على يمينهما وشِمالهما. وفي هذه الأثناء التحق بمكان الحفل السيد عبد الودود، مدير الثانوية، صحبة عبد الرحمان، المراقب العام، وعزيز، المُحاسب، وبعض الإداريين الآخرين، فهنأوا العروسين قبل أن يستقر بهم المجلس في أماكن خُصِّصت لهم مُسبقا.

كانت كل الأنظار مُنصبَّة على أرتور وصونيا، وقد بدا فرق العمر بينهما صارخا، فهو قد تجاوز الأربعين، بينما كان عمرها هي أقل من عشرين عاما، حتى وإن بدت في مظهرها أكبر من سنِّها ببضعة أعوام، لأن الفتيات في هذه المناطق الاستوائية الحارة ينضُجْن بسرعة كبيرة، ويصِرْن نساء مُكتملات الأنوثة قبل الأوان،

كما تبايَن أرتور عن صونيا في لون البشرة، فهو شديد الشُّقرة، وهي شديدة السُّمرة، بحيث يخيَّل للناظر إليهما في جلستهما تلك، كمن ينظر إلى يقطينة حمراء ناضجة، وإلى جانبها باذنجانة لم يكتمل نضجُها. وصونيا، بالمناسبة، ليس هو اسمها الأصلي، كما علِم مصطفى، وإنما هو اسم مُستحدَث، دأب أستاذها أرتور على مناداتها به، فأعجبها، فتبنَّته، وطلبت من زميلاتها أن لا ينادينها إلا به، فغلب اسمَ ميلادها الأصلي، ولم تعد تُعرَف إلا به.

كانت علامات السعادة مرسومة بشكل بارز على وجه صونيا، والفرح يكاد ينِط من عينيها، كيف لا وقد حقَّقت حُلما طالما داعب مُخيِّلتها، وهو أن تتزوج رجلا أوروبيا أبيض، أو من "الموزونغو" (الخنزير)، كما يُسمَّى الأوروبي في اللغة المحلية. وقد وُلد حُلمها وأخذ يكبر منذ دخلت صف الأستاذ أرتور، ولاحظت اهتمامه بها، وتفضيله لها على كل زميلاتها في الفصل، وهو ما جعلهن يحْسُدنها على مكانتها عنده، ثم أخذن في وقت لاحق يتهامسْن في السر، عن وجود علاقة حب بينه وبينها. وقد غذَّت هي نفسها مثل هذا الظن، حينما كانت لا تنفي ما يُنقل إليها من أصداء عن تلك العلاقة، بل زادها ذلك إصرارا على المُضي في تحقيق حلمها، بالتقرُّب أكثر من الأستاذ أرتور، وإغرائها له بالدلع، مختلف الوسائل، والنظرات، والحركات، والتلميحات، وإبراز مفاتنها له

كلما وجدتْ الفرصة سانحة، إلى أن تطوَّرت الأمور بينهما، وصارت تزوره في بيته، لتعاطي كاسات الحب، وليُعلنا في الأخير خطبتهما بصفة رسمية.

وقد حرصت صونيا على دعوة زميلاتها في الفصل لحفل زفافها، وألحَّت عليهن في الحضور، كما دعت صديقات أخريات لها في الثانوية، إرضاء لغرورها، وتباهِيًا أمامهن بزواجها من أستاذها أرتور، وهو الزواج الذي لم تشهد المدينة مثيلا له من قبل، كيف لا، وهو الرجل الأوروبي الأبيض، بل الرجل الأشد بياضا ـ كما كانت تردِّد أمام زميلاتها ـ من كل المُدرِّسين البيض في ثانوية موتسامودو، إن لم يكن في المدينة كلها، بل في كامل الأرخبيل؟! ولم يكن يهم صونيا، بعد أن حققت حلم عمرها، إن هي أحرقت قلوبهن غيرة وحسدا، وملأت صدورهن غيظا وحسرة.

ما إن تصدَّر العروسان والمُرافقات لهما المجلس، واكتمل حضور المدعوِّين، حتى دخلت فرقَة الموسيقيِّين، فضجَّت القاعة بالتصفيق لهم، وحينما انتهوا من تحية الجمهور، واستقروا في أماكنهم على المصطبة المُخصَّصة لهم، راحوا يضبطون أوتار قيثاراتهم الكهربائية، ويجرِّبون النقر على الآلات الإيقاعية، ثم أخذوا يقدِّمون وصلات موسيقية خفيفة، تتناسب مع تناول طعام العشاء، الذي شرع نُدُلُ الكاباريه في تقديمه للمدعوِّين. ولم يكن

العشاء مفاجئا لأحد، حيث كان مطابقا لما جاء في القُصاصة الورقية التي وُزِّعت على الجميع، ما عدا طبقا إضافيا صغيرا من الموْز المشوي، مع هريسة الفلفل الحار، قدَّمه صاحب الكباريه للمدعوِّين هدية منه، وإكراما، على ما يبدو، للعروسين، فاتخذه شاربو البيرة مَزَّة لهم، يُغيِّرون به طعمها المُر.

لم يشرب جورج وأندريا زجاجة البيرة التي قُدِّمتْ لكليهما مع العشاء، وطلبا كأسين من "الأنيزات" الفاتح للشَّهية، على حسابهما، واكتفى الأستاذ مصطفى بزجاجة الكوكاكولا، شاكرا لجورج دعوته لمشاركتهما بكأس فاتح للشهية مثلهما، لكنه شاركهما في أكل سمك الرُّوجي (السلطان إبراهيم) المشوي، الذي طلباه خصيصا مع الأنيزات.

وما إن انتهى العشاء بالنسبة لأغلب المدعوِّين، حتى بدأت الأوركسترا تعزف ألحانا سريعة، تغريهم بالرقص، فسارع بعضهم إلى دخول الحلبة، وانضم إليهم آخرون، ثم فسحوا المجال للعروسين، وراحوا يصفِّقون لهما، وكانا مُبهِريْن برقصهما، الذي جمع بين الطابعين الأوروبي والمحلِّي، وحينما نال منهما التعب، وتصبَّبا عرقا، عادا إلى مكانهما، مُفسحَيْن المجال لغيرهما ممن يرغب في الرقص، فدخل الحلبة ماتياس وهيلان، ولحق بهما خليل وماريان، ثم اتسعت الدائرة لتشمل راقصين وراقصات آخرين.

واستفز الرقص السيد جورج، فقام يرقص مع أندريا، لكنهما عادا بعد وقت قصير، حيث لم يستطع جورج مواكبة سرعة الريتم الذي كانت تعزفه الجوقة. ولاحظ مططفى أن أندريا كانت ترغب في مواصلة الرقص، فانتهز الفرصة ودعاها لإكمال الرقصة معه. ومن سوء حظ السيد جورج، أن الجوقة أوقفت الريتم السريع بعد مغادرته الحلبة، وحوَّلته إلى إيقاع بطيء، من نوع "السَّلوْ"، وأُطفِئت أنوارُ القاعة، وعوَّضَتها كرةٌ تدور في السقف ببطء، وترسل أضواء ملونة، خافتة، وهو ما كان يقتضي أن يلتصقَ الراقصون والراقصات ببعضهم بعضا، ويحيط كل فارس خِصْر فارسته بيَدٍ، ويُمسك بالأخرى يدها، ووجد مصطفى نفسه يحتضن أندريا، ويتمايل معها في حميمية تتطلَّبها الرقصة، وراح يشمُّ عطرها، ويحس بأنفاسها المُشبعة برائحة الأنيزات تُلهب خدَّه، مما أثار مكامِن اللذة في جسده، فزاد من ضمَّها إليه، وهو ما تجاوبت معه، فلفَّت يديها على رقبته، ووضعت خدَّها على صدره، وراحت تشم بدورها رائحة عطره وعرقه، وتعطَّلت لغة الكلام بينهما، وتكلَّمت بدلا عنها لغة الجسد. ولم يستفيقا من حميمية تلك اللحظة إلا حينما توقَّفت الموسيقى، وأشْعِلت أضواءُ الصالة من جديد.

عندما عادا إلى مكانيهما، وجدا جورج قد طلب ثلاثة كؤوس ويسكي بالثلج، وبادرهما بالقول:

ـ في صِحَّتكما. من أجل أن تحلو السهرة، ويُهضم الأكل.

وكانت زجاجة الكوكاكولا، التي قُدِّمت لمصطفى مع العشاء، ما تزال لم تُمس، فعرض على أندريا تخفيف الويسكي بالكوكا، فلبَّت عرضه شاكرة، أما جورج فقال إنه يفضِّله خالصا دون إضافة أي شيء إليه، وحينئذ أفرغ ما بقي من زجاجة الكوكا في كأسه.

وشاهدوا في هذه الأثناء مدير الثانوية وهو يغادر الحفل، منتهزا فرصة توقُّف الموسيقى، ولحق به بقية الإداريين الآخرين، حيث قدَّموا التهاني للعروسين مرة أخرى، ثم ركبوا سياراتهم وانطلقوا. وانطلقت الموسيقى مُجدَّدا، دون أن تمنح ثلاثتهم أية فرصة لتبادل الكلام، والتعارف أكثر. وكانت الموسيقى أشد صخبا مما كانت عليه، وعاد معها الراقصون إلى الحلبة، فشجَّع جورج نفسُه مُرافقيه على العودة إلى الرقص، لأنه لم يستطع الانسجام، كما قال، مع تلك الموسيقى الصاخبة.

كانت الموسيقى أسرع مما كانت عليه في كل المرات السابقة، فلم يستطع أن يصمد لها إلا القليل، الذين اغتنموا الفرصة ليظهروا براعتهم في الرقص، وينالوا إعجاب المُتفرِّجين، وقبل مصطفى وأندريا التحدِّي، وواصلا الرقص إلى أن توقفت الموسيقى، وعادا إلى مكانيهما وهما يقطران عرقا. وانتهز جورج فرصة توقف العزف، ليعلِّق:

ـ هذه موسيقى مجانين.

فردَّ عليه مصطفى موضحا، وهو يمسح عرقه:

ـ أخبرني بعض طلبتي أنها موسيقى مُتداولة في حفلاتهم، وهي من وضع مجموعة من الشباب، تطلق على نفسها اسم "مجموعة البُوتو"، وهي كما فهمت منهم، يسارية في توجُّهها، حداثية في غنائها، وتعتمد في موسيقاها وغنائها على التراث المحلي، ولكنها متأثرة في الوقت ذاته بالإيقاعات الملغاشية، والإفريقية، والعربية، والأوروبية معا، انطلقت في هذه الجزيرة ، أنجوان، منذ سنوات، وانتشرت أغانيها الآن في كامل أرخبيل القمر.

ـ هل سمعتِ عنها شيئا، يا أندريانا؟ سأل السيد جورج

ـ قليلا.. وأعرف أسماء بعض مغنيِّيها المشهورين، وأشهرهم عبدو زبير، وإبراهيم ساندو.

ـ برافو أندريانا، مع أنه لم يمر عليك أكثر من عام في هذا البلد، قال جورج.

فبدا السرور على وجه أندريا من إعجاب مديرها، وأضافت مزهوة:

ـ وتعلَّمت الكلام باللغة المحلية أيضا.

ـ هذا جيد، وهو ما يمكن أن نسمِّيه الاندماج الاجتماعي الناجح للغريب عن البلد.

وسأله مصطفى:

ـ هل أفهم من كلامك أنك غير مُقيم هنا في موتسامودو؟

ـ أنا أتنقل باستمرار، بين أنتاناناريفو وموتسامودو وباريس، وتعتمد مؤسستنا كثيرا على أندريانا في تسيير شؤونها هنا في هذه المدينة.

وافترَّت شفتا أندريا عن ابتسامة رِضَى وهي تسمع هذا الإطراء من رئيسها المباشر.

وفي هذه الأثناء عادت الجوقة للعزف، فقطعت حديثهم، غير أن موسيقاها في هذه المرة كانت هادئة، وكأن رئيس الجوقة يتعمد التنويع في العزف، بين السريع والبطيء، لكي يرضي كل الراقصين والراقصات، البارعين منهم، والأقل براعة.

ولم يدْرِ مصطفى كيف ظهرت نعيمة أمامه فجأة، لتطلب رقصة معه. وألقى نظرة خاطفة نحو صويحباتها الجالسات إلى يمين ويسار العروسين، فلاحظ أنهن يراقبنها من هناك باهتمام، وكأن رهانا قد تم بينهن وبينها، فلم يشأ أن يردَّها خائبة، ولم يرَ ضيْرا في الرقص مع تلميذته، لكن الشيء الذي لم يعمل له حسابا هو تحوُّل

العزف من السريع قليلا، إلى البطيء تماما، مما يحتِّم عليه احتضانها، واحتكاك جسمه بجسمها، وهذا ما حدث عندما انطفأت الأضواء في الصالة، وانطلقت كرةُ السقف في الدوران عوضا عنها، لتشع بأضوائها الملوَّنة، الخافتة. ولم يكْفِ نعيمة احتضانه لها، فتعلَّقت برقبته بكل جرأة، وراحت تراقصه في حميمية لا تكون عادة إلا بين العشاق، وتدسُّ رأسها في صدره المُبلل بالعرق، وتمرِّر شفتيها على شعر صدره، وهو ما فلجأه وأحرجه، على الرغم من الظلام السائد، فهمس لها: "نعيمة، انتبهي لنفسك. زميلاتك يراقبْنك"، لكنها لم تهتم بتحذيره، وراحت تلتصق به أكثر فأكثر، وتمتص عرقه، في حين كان هو يشم رائحة الياسمين والورد الذي زيَّنت به شعرها ونحرها، وعندما انتهت الرقصة، وقبل أن تُشعَل الأضواء، اختطفت منه قبلة على الشَّفتين، ثم انطلقت مسرعة نحوِ زميلاتها وهي في قمة السَّعادة والفخار.

ورجع مصطفى حيث كان يجلس مع جورج وأندريا، وقد تشوَّش فكره، وتأكدت له شكوكه عن وجود مؤامرة ضِدَّه، دبَّرتها صُوَيْحِبات نعيمة، ونفذَّتها هي بكل جرأة، لكنه أخفى ارتباكه عن مُنادِميْه، وقال في ما يشبه تبرير قبوله لدعوة الفتاة للرقص معه:

- هي تلميذتي في قسم البكالوريا. كأنها تريد أن تُثبت لنفسها أنها كبرت، وصارت امرأة.

- شيء طبيعي - علّق جورج - فالبنت في هذه السن تتخلى عن تعلُّقها بوالدها، وتتعلق بأستاذها.

"تفسير مُقنع"، عقّب مصطفى، ونادى على النادل، وكأنه أراد أن يصرف النظر عن الموضوع، ليطلب، على حسابه، ثلاثة كؤوس ويسكي بالثلج، مع زجاجتي كوكاكولا. وكان قد فكّر في هذا من قبل، ليشارك جليسيه، كما هو معمول به بين الندماء، في دفع جزء من فاتورة الشراب.

وفي هذه الأثناء شوهد العروسان يتأهبان للانصراف، فصفّق لهما الجميع، وهتف بعضهم "يحيا الأزواج"، وقامت الفتيات المُصاحبات لهما، يتبعن خطواتهما، لينصرفن هن أيضا، وفتح ذلك المجالَ أمام أزواج آخرين لمغادرة المكان، ولم يبق في عش الغراب إلا القليل من المدعوّين، ومن تعوَّد على ارتياد العش، ولاسيما في يوم السبت، أي اليوم الأول من نهاية الأسبوع، حيث تمتد السهرة ببعضهم إلى الفجر.

وواصل مصطفى السهرة مع جورج وأندريا، ورقص مع أندريا مرتين، وعقب انتهائهما من الرقصة الأخيرة، استأذن جورج في الانصراف، لأنه غير متعوِّد على السهر الطويل، وحيث أن أندريا هي التي ستوصله في سيارتها الخاصة، فقد لزم أن تنصرف معه. وسألته:

ـ مصطفى، هل لديك سيارة خاصة؟

ـ لا، ولكنني سأتدبر الأمر.

ـ يمكننا أن نوصلك معنا.

ـ سنكون مسرورين باصطحابك معنا، أضاف جورج مُشجِّعا له.

فتخلَّى عن تحفُّظه وركب معهما. وعندما مرَّوا بفيلاً فخمة، غير بعيدة عن الثانوية، قالت له أندريا:

ـ هذه هي الفيلَّا التي أسكنها، وهي تابعة لشركة المنشآت، وفي جناحها الأيسر يوجد مكتبي.

وتدخَّل جورج ليقول له:

ـ يمكنك أن تزور أندريا فيها متى تشاء، ويسرُّني أن ألتقي بك عندما آتي إلى موتسامودو في المرة القادمة، لتكون لنا فرصة أكبر للحديث، وللتعارف أكثر.

ـ يسعدني هذا، ولكن، هل يعني هذا أننا لن نراك غدا؟

ـ سأسافر في طائرة الحادية عشر صباحا.

عندما أنزلاه أمام بيته في هومبو، قال لهما:

ـ .. وهذا بيتي، ويشرِّفني أن أستقبلكما فيه في أي وقت.

وودَّعهما، ودخل، وأسرع إلى الحمام لينزع عنه بطلونه وقميصه المتشبِّع بالعرق، ويستحم بالماء البارد، أو الفاتر، بتعبير أصح، نظرا لارتفاع درجة الحرارة ولو في الليل، فانتعش جسمه، وأحس براحة كبيرة، واكتفى، بعد أن نشَّف جسمه، بارتداء سروال قطني قصير، وألقى بنفسه على السرير، وراح يسترجع، وهو بين اليقظة والنوم، كل ما مرَّ به من وقائع مثيرة في سهرة عش الغراب، ولكنه سرعان ما غفتْ عينُه، وغاص في نوم عميق ولذيذ.

***

4

انقلابٌ صيْفي في عِزِّ الشِّتاء

في شهري ديسمبر وينايِر يحدث الانقلاب الصيفي في أرخبيل القمر، لوقوعه في نصف الكرة الأرضية الجنوبي، تحت خط الاستواء، وشمال مَدار الجَدْي، فترتفع الحرارة فيه إلى معدل 35 درجة، وتصل الرُّطوبة إلى درجاتها القصوى، بسبب هطول الأمطار الموسمية الغزيرة، التي تقاس فيه بالمتر لا بالمليمتر، ويستمر هطولها، احيانا، أياما بلياليها دون توقف، ولولا تربة الجُزر البُركانية الخشنة، التي تجعلها تبتلع مياه الأمطار مهما كانت كمياتها، لكان الأرخبيل قد غرق في المحيط، ولم يعد له وجود. وفي هذا الفصل تنضج ثمار المانجو، ويكثر البعوض، وينتشر معه مرض الملاريا، والحمَّى الصفراء.

لهذا، كان على مصطفى بن سعيد أن يتكيَّف مع هذه الظروف المناخية الجديدة عليه، وعلى غيره من الأجانب العاملين في قطاعات التعاون المختلفة في الأرخبيل، ومن أهمها قطاع التعليم، الذي كان يضم خليطا لا نظيرِ له من العرب مثله، والأوروبيِّين، والأفارقة، والأمريكيين الشماليِّين، فكان عليه أن

يتناول يوميا حبوب الكينا المُضادة للملاريا، وأن يحتمي في يقظته بدَهْن أعضائه المُعرَّضة لِلَسْع البعوض بالليمون، وزيت النعناع، وبمراهم طبيِّة تحتوي على الأحماض الأمينية، وفي نومه كان يحتمي بناموسية كبيرة، فصَّلها لدى خيَّاط في المدينة، مختص في صنع النَّاموسيات من نسيج أبيض خفيف، لا يمسك الحرارة، ولا يمنع الهواء عن النائم، تُعلَّق في سقف الغرفة، لتشكِّل خيمة شفَّافة، تُغطِّي الجوانب الأربع للسرير.

وخلَّصه الدكتور سايدو أبوبَكَر من تناول الكينا يوميا، عندما وصف له دواء آخر مركَّزا ضِد الملاريا، يشربه مرة واحدة كل أسبوعين. كان هذا حينما زاره أول مرة في مستشفَى المدينة وتعرَّف عليه، وكان داعي الزيارة معالجة جرح في رجله، سبَّبه له مسمارٌ صدئ، داس عليه في فناء بيته المُعشِب. وكنوع من الاهتمام به، لم يكتفِ الدكتور أبوبَكَر بتنظيف الجرح وتطهيره فحسب، فحقنه بإبرة مُضادَّة للكُزاز، احتياطا من ايَّة مضاعفات في الجُرح. والدكتور أبوبَكَر هذا هو طبيب عامّ، وجرَّاح أيضا، من أبناء البلد، وكان الطبيب الوحيد في مستشفى المدينة الصغير، تساعده في عمله زوجته الفرنسية، السيدة إفلين، وهي مُمرضة عالية التكوين، مختصة في معالجة مشكلات الحَمْل والولادة، ويساعده أيضا مجموعة مُمرضين وممرِّضات، كوَّنهم بنفسه، ليقوموا بالأعمال التي يحتاج إليها المستشفى من تنظيف وتعقيم، وإطعام، وسهر على راحة المرضى،

وتوزيع الدواء على المُحتاجين منهم، والقيام بالإسعافات الأولية، مثل تطهير الجروح وتضميدها، والحَقْن بالإبر، وما إلى ذلك.

اعتاد الأستاذ مصطفى في هذه الأيام الحارة على التوجه إلى البحر عصرَ كلِّ يوم، ليبرِّد جسمه، ويتسلَّى برؤية الصيادين العائدين في المساء بقواربهم التقليدية الصغيرة، ليعود إلى بيته عند غروب الشمس. وكان الصيادون يسلِّمون عليه، ويتحدثون إليه أحيانا، لأنه غالبا ما يكون المُستحِم الوحيد على الشاطئ، وقد يشتري منهم سمكا في بعض المرَّات بأثمان زهيدة، خاصة إذا تعلق الأمر ببعض الأنواع منها، مثل جراد البحر والسَّرطانات، التي لا يجدون من يشتريها منهم إلا الأجانب. وقد كوَّن صداقات مع بعضهم، بحيث صاروا يأتونه بالسَّمك إلى باب البيت، فإذا زهد في شرائه، أو كانت كمِّيته تزيد كثيرا عن حاجته، راحوا يعرضونه على غيره من المُتعاونين الأجانب، القاطنين في هومبو.

في هذا اليوم، لم تخترق الشمس طبقات السحب الكثيفة، السوداء، طول النهار، ولم تتوقف الأمطار عن الهطول، فلزِمَ بيته، وألغى من برنامجه الذهاب للسباحة، وظل بعد إغفاءة القيلولة ممدَّدا على سريره، يفكر في كل ما مرَّ به خلال أيام الأسبوع، وكان أكثرها إلحاحا على ذاكرته ما حدث له يوم السبت في عش الغراب، أثناء حفل زواج أرتور وصونيا، وبالأخص، تصرف نعيمة المُستفِز

له وهي تُراقصه، وكرّر مع نفسه ما حكم به عليها من قبل، بأنه كان تصرُّفا طائشا منها، مهما كان دافعها إليه، لكنه ظل غيرَ متأكد إن كان ذلك بتشجيعٍ من زميلاتها، أم كان تحدِّيا منها لهُن، أو لسبب آخر لا يدريه، كأن يكون غرضها إثبات ذاتها، والتأكد من مكانتها عند أستاذها، ولاسيما أن المناسبة نفسها كانت مُواتيَّة لها لإقدامها على ما قامت به، حيث شكَّل زواج أرتور من صونيا سابقة بالنسبة إليها وإلى طالبات الثانوية كُلهن، وربما تكون قد فكَّرتْ أنه إذا كان قد حدث هذا الزواج مع أرتور وصونيا، فما يمنع أن يتكرر حدوثه مع غيرهما، ولم يستبعد أن يكون عقلُها قد صوَّر لها أن لن تنتهي السنة الدراسية إلا ويكون كل الأساتذة العُزَّاب قد تزوَّجوا مع تلميذات في فصولهم! ولم يُعفِ الأستاذ مصطفى نفسه من مسؤولية ما وقع، واعترف بأن إعجابه بذكاء نعيمة، وتقديره لقوة شخصيتها، وإشادته بتفوُّقها أمام زملائها في قاعة الدرس، هو ما جعلها تتوهَّم أنه يحبُّها، أو هو ما جعل غيرَها يوحي لها بأنه يحبها.

وانتقل ذهنه، بصفة تلقائية، إلى التفكير في أندريا، التي جمعته المصادفة بها في ذلك اليوم، فوقعت في نفسه منذ اللحظة التي وقع نظره عليها، مع أن جمالها لم يكن خارقا، ولكنه شعر بسحر غامض فيها شدَّهُ إليها، وأحس أنها هي الأخرى قد أعجِبت به،

وبدا له ذلك من نظراتها إليه، التي كانت تُفصِح عن إعجاب شديد به. وهمست له وهي تراقصه: "إنك تحمل في ملامحك كل صفات العربي"، ولم يُعر أهمية كبيرة لعبارتها في تلك اللحظة، واعتبرها نوعا من المُجاملة لا غير، لأنه لم ير أي أساس بَنَتْ عليه انطباعها عن ملامح العرب.

وحنَّت نفسه إلى اللقاء بأندريا ثانية، ولكنه لم يهْتدِ إلى وسيلة تجمعه بها، وتجعل اللقاء عاديا، وطبيعيا. وتذكَّر أن السيد جورج كان قد دعاه إلى زيارتهما في مكتب الشركة بالفيلَّا التي تسكنها، ولكنه تذكر أيضا أن السيد جورج قد سافر في صبيحة اليوم التالي من تعارفهم، فإن هو زارها في غياب رئيسها، فقد يسبب لها ولنفسه حرجا، لاسيما أنه مازال غير واثق تماما من مشاعرها نحوه. لهذا قرَّر أن لا يتعجَّل في الاتصال بها.

وضاق ذرعا بالحرارة الكاتمة للأنفاس، وبالبقاء مُمددا طوال الوقت على السرير، يجتر ما خزَّنته ذاكرته من حفل عش الغراب، ويكرِّر ما شغل باله طوال الأسبوع، فقرَّر أن يخرج إلى باحة البيت، ليلتقط نسمات المساء، ويستقبل هواء البحر الصاعد إلى الهضبة، حتى ولو كان مُشبعا بالرطوبة العالية. وقد شجَّعه على الخروج توقُّف المطر، وإطلالة الشمس على استحياء من وراء الغيوم، فأخرج كُرسيا، وجلس بعيدا عن شجرة الأفوكا الضَّخمة التي تتوسط الباحة، لأنها

كانت ما تزال تقطر بماء المطر، وهي الشجرة التي تعوَّد أن يجلس تحتها كلما اشتدت الحرارة بعد الظهر، وكان الجوُّ صحْوا.

كان المكان هادئا، والطريق النَّازلة من حي هومبو خالية من المارة، وحركة السيارات فيها منقطعة، باستثناء بعض سيارات الأجرة التي كانت توصل أفرادا من ساكني الهضبة إلى بيوتهم، أو بعض الشاحنات العسكرية الصغيرة التي كانت تنقل، بين الحين والآخر، جنودا من المركز الأمني وإليه، القريب من بيته. وأثناء ما كان يتصفَّح مجلة علمية، ظهر أمامه شيخٌ يُناهز الستين من العمر، بلحية طغا عليها الشيب، وكان يتكئ على عصا، ويلبس قفطانا من الصُّنع المحلِّي، مطرَّز الصدر والحواشي، ويضع على رأسه عمامة مُزركشة، غلب عليها اللون الأخضر والأصفر. حيَّاه الرجل بتحية الإسلام، بلكنة خفيفة في لسانه، فردَّ عليه بلسان عربي فصيح: "وعليكم السلام ورحمة الله"، فتهلَّل وجه الشيخ، وتقدَّم نحوه ليسلم عليه ثانية، وكأنه يريد أن يتأكد مرة أخرى مما سمعه منه، وهو ماكرره مصطفى عليه، وحينئذ طلب منه الشيخ بلغة عربية فصيحة: أريد شربة ماء، يرحمك الله.

ونظر مصطفى في وجهه فرأى علامات الإجهاد بادية عليه، فقام من كرسيِّه وعرض عليه الجلوس، ودخل ليأتيه بالماء. وبعد أن ارتوى، سأله:

ـ الظاهر أنك عربي.

ـ بلَى، أنا عربي، وأعمل أستاذا في ثانوية موتسامودو، واسمي مصطفى بن سعيد.

وظهر السرور على وجه الشيخ وقال:

ـ أنا مسرور بهذه المُصادفة السعيدة، يا أستاذ مصطفى، كنتُ أعلم بوجود أساتذة عرب، بعثتْ بهم الجامعة العربية إلى الجُزر لتعليم أبنائنا، ولكن، لم يحصل لي شرف اللقاء بأي واحد منهم قبلك.

وسكت الشيخ لحظة، بلع فيها ريقه، ثم أضاف:

ـ ... أما اسمي انا فهو الشيخ عُصمان، أو الحاج عصمان، إمام جامع موتسامودو العتيق.

ـ أهلا بك يا شيخ عصمان. تشرَّفتُ بمعرفتك. هل كنت في زيارة أحد المَعارف في هومبو؟

والتفت الشيخ، في توجُّس، نحو جهة المركز الأمني، ليتأكد أن لا أحد يراقبه، ثم أجاب بصوت خافت:

ـ جاؤوا بي للتحقيق معى، ثم أطلقوا سراحي.

ـ تعني أنك كنت مَوْقوفا؟

فنظر الشيخ ثانية نحو المركز الأمني ولم يجب، وبدا مرتبكا وخائفا، فأدرك مصطفى أنه خائف من أن يكون هناك من يسمعه، مع أن الحديث كان يدور بينهما بالعربية، والمركز بعيد عنهما بما لا يقل عن خمسمائة متر، وتحجبه عنهما نباتات كثيفة وأشجار وارفة، وحينئذ غيَّر مصطفى موضوع الحديث وسأله:

ـ وأين درَسْت اللغة العربية يا شيخنا؟

وهنا انتعش الشيخ، وأجاب في شيء من الحيويَّة والحماس:

ـ لم أسافر لأتعلم في الجامع الأزهر كما كنتُ أمنِّي نفسي، لأني كنت أساعد والدي، رحمه الله، في زراعة القرنفل والفانيليا، وأشرف على بيع المحصول بدلاً عنه، ولكنني اغتنمت فرصة نزول شيخ أزهري في جزيرة القمر الكبرى، قبل استقلال بلدنا عن فرنسا، هو الشيخ خالد رمضان الأسيوطي، وقد عُرِف بعِلمه وتقواه، وبلغتنا شهرتُه هنا في موتسامودو، فاستأذنت والدي، وسافرتُ للدراسة على يديه، ولازمتُه طوال عامين، لا أعود فيهما إلى "هنزواني" إلا في وقت جنْي المحصول، فكان للشيخ الأسيوطي الفضل عليَّ، وعلى عدد من طلاب العلم أمثالي، في تعلم اللغة العربية، ودراسة النحو والفقه، وتجويد القرآن. وقد ساعدني حفظي للقرآن الكريم،منذ صغري على التعلم، وسرعة الحفظ

والفهم، وأجازني الشيخ الأسيوطي، قبل رجوعه إلى بلده، بإجازة تشهد لي بالتفوُّق، وتجيز لي الرواية عنه، وتدريس العربية والفقه للفتيان، وإمامة الناس في الصلوات، وهذا ما أقوم به منذ أكثر من خمسة عشر عاما.

ـ ما شاء الله، هذا هو حب العلم، وهذا هو التَّفاني في تحصيله، وفي نشره بين الناس.

ـ الحمد لله وحده، إليه يرجع الفضل، ثم الفضل بعد ذلك، للشيخ خالد الأسيوطي، الذي علَّمني وأجازني، جازاه الله عني خير الجزاء.

وهبَّ الشيخ عصمان واقفا، متكئا على عصاه، ومتأهبا للنزول في اتجاه المدينة، ثم سأله مُستدرِكا:

ـ لكن، لم تقل لي، يا أستاذ مصطفى، منذ متى وأنت في موتسامودو؟

ـ منذ شهر أكتوبر الماضي.

ـ أرجو أن تزورنا في المسجد العتيق، لنكمل حديثنا، ونتعارف أكثر.

ـ إن شاء الله، سيكون ذلك في أول فرصة.

وقام يُودِّعه، فانصرف الشيخ عصمان بخطوات وئيلة، تتناسب مع سنه، وظل مصطفى يتبعه بعينيه إلى أن اختفى عن نظره، فاقتعد كرسيه من جديد، وراح يفكر في حال الشيخ، محاولا أن يكتنِهَ السَّبب الذي حققوا معه من أجله، ولم يتبيَّن له أي سبب معقول، إلا حينما ربط بين التحقيق وبين وظيفته كإمام للجامع، فرجَّح أن يكون الشيخ قد تفوَّه في دروس وعظه بما لا يعجب السلطة، فأرادت أن تُرهِبه عن طريق أداتها القمعية، وتُفهمه أنها تُتابع ما يقوله، وتحذِّره من الخوض مستقبلا فيما لا يتفق وسياستها، وربَّما يكونون قد طالبوه في المركز الأمني بالعمل بتوجيهات معينة، أو بالترويج لأفكار تخدم السلطة وتؤيِّد سياستها، أو تبرِّرها دينيًّا، حتى تحظَى بالقبول لدى المؤمنين من روَّاد المسجد الجامع. وعذَر الشيخ في التزامه الصمت، وعدم إفصاحه له عن سبب التحقيق معه، فسِنُّه المُتقدمة، ومركزه الديني والاجتماعي لا يتحمَّلان البهْدلة وسوء المعاملة.

وتجهَّم وجه السماء من جديد، فأبرقت وأرعدت، وأدركه المطر قبل أن يُهرولِ ليلوذ بالبيت، وقدَّر أن الشيخ عصمان مازال في هذه الأثناء لم يصل إلى الجامع بعدُ، فتأسف على عدم توقُّعه لعودة هطول المطر، وفاته أن يستبقِيَه إلى حين مرور إحدى سيارات الأجرة، لتوصله إلى مقصده.

جلس في الصالون، وأشعل المروحة الكهربائية، لتُجفِّف الرطوبة، وتلطِّف حرارة الجو، ثم فتح الراديو لسماع الأخبار، وكان الراديو هو نافذته الوحيدة التي يطل منها على العالم، إذ لم تكن هناك صحف محلية ولا أجنبية، إلا بعض المجلّات الأسبوعية الفرنسية، التي كانت تصل متأخرة بأسبوع على الأقل، وكانت الجُزر القمرية آخر ما يهمُّ تلك المجلات، فإذا تذكَّرتها في بعض الأحيان، صادرتها السلطات المحلية، لأنها لا تورد عن الأرخبيل إلا ما يسيء إليه وإلى حاكمه ونظامه، فكانت إذاعة البي بي سي، باللغة العربية، وإذاعة فرنسا الدولية هما وسيلته الوحيدة التي يُتابع عن طريقها أخبارا وتعاليق عمَّا يحدث في شما إفريقيا والشرق الأوسط، وبلدان إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، وبالأخص، ما يحدث في مستعمرات فرنسا السابقة، ومن ضمنها أخبار أرخبيل القمر. كما كان يتابع كل مساء نشرة أخبار باللغة الفرنسية من الإذاعة المحلية في موروني، وأخرى من تناناريف في مدغشقر.

في انتظار نشرة الأخبار على أمواج إذاعة فرنسا الدولية، راح يُتابع البرنامج الثقافي الترفيهي"لعبة الألف فرنك"، التي كان يُقدِّمها المنشِّط الإذاعي الشهير "لوسيان جوناس"، وكان يجلس في حالة استرخاء، على الرغم من الحيويَّة والإثارة التي كان يقدم بها

المنشّط برنامجه. وما كاد البرنامج ينتهي، حتى تدخل مذيع الرَّبط، ليُعيد إذاعة الخبر الرئيسي الذي أعلن عنه من قبل، وجاء فيه: "علمنا من مراسلنا في "كوتونو"، بوقوع محاولة انقلابية ضد نظام الرئيس البينيني"ماتيو كيريكو"، الشيوعي، اللينيني، قام بها مئةٌ من المرتزقة الأوروبيين والأفارقة، المدجّجين بالسلاح، وقد فشلت العملية، فانسحب المُهاجِمون نحو المطار، ليركبوا الطائرة التي أتوا فيها من خارج الحدود البينينية، ويطيروا في اتجاه مجهول، تاركين خلفهم قتلى وجرحى، وكمية معتبرة من الأسلحة والذَّخيرة". وختم المذيع بالعبارة المعروفة، التي تقال حينما يكون الخبر ذا أهمية، ويحتاج إلى تفاصيل أكثر: "... وسنوافيكم بكل جديد عن هذه المحاولة الانقلابية الفاشلة في نشراتنا المقبلة".

أثار الخبر اهتمامه ولكنه لم يفاجئه، فالانقلابات في إفريقيا، وفي بلاد العالم الثالث عامة، صارت أمرا عاديا جدا، كحوادث الطُّرق تماما، رئيس يُزيح آخر عن كرسي الحكم، وجنرال يخلِف جنرالا، وصراعات لا تنتهي على السلطة والمال والنفوذ، يستعين فيها هذا بالعسكر، ويستعين ذاك بالقوى الأجنبية، أو بهما معا، ولا شيء يتغيَّر إلا الأسماء والوجوه، والمصالح والتَّحالفات.

وبعد حوالي ساعة، عادت الإذاعة نفسها لتضيف معلومات جديدة عن الانقلاب الفاشل، وذكرت "أن قائد المرتزقة الذي قاد

المحاولة، هو الضابط السابق في الجيش الفرنسي، العقيد "بوب دونار"، الذي شارك من قبل كمرتزق في عدة حروب وانقلابات، منها حرب اليمن، وكاتانغا، وبيافرا، وأن الطائرة التي نقلت الانقلابيين، وهي من نوع "دي سي7". انطلقت من قاعدة تدريب عسكري في المغرب، مُحمَّلة بسبعين مُرتزق أوروبي، لينضم إليهم في السنغال حوالي ثلاثين عنصرا من معارضي النظام في كلٍ من غينيا والبينين، واتجهت بهم الطائرة، بعد فشل الانقلاب، إلى الغابون".

هذه المعلومات الجديدة جعلت مصطفى يتبيَّن خيوط اللعبة الانقلابية، وأبرز اللاعبين فيها، وتأكد لديه، بما لا يدع مجالا للشك، أن القوة الاستعمارية التي كانت تحتل البلد، هي التي تآمرت على نظام كيريكو، مع أنها هي القوة التي كوَّنته في صفوف جيشها، وقلَّدته الرُّتب العسكرية، وأعدَّته ليكون رَجُلها المعوَّل عليه في الإبقاء على هيمنتها السياسية والاقتصادية في البلد، لكنها تنكَّرت له وقرَّرت أن تعاقبه بعد أن تمرَّد عليها، وأقام نظاما شيوعيا مارقا لا يخدم مصلحتها.

وحتى وإن شعر مصطفى بالتعاطف مع الشعب البينيني المتآمر عليه، لأنه هو من سيدفع الفاتورة في نهاية الأمر، فإن عقله لم يستوعب أن تكون الأنظمة الإفريقية بمثل هذه الهشاشة، حيث تستطيع كتيبةٌ من المرتزقة أن تزعزع كيانها، وتعرِّض أمن بلدها

للخطر. لكنه عاد ففسَّر هشاشتها بضعف الروابط التي تربطها بشعوبها، وتبعيَّتها المُطلقة للقوى الأجنبية، وتغليبها للمصلحة الشخصية على مصلحة الوطن، وإلا لما تجرأ عليها المرتزقة ومن يجنِّدهم ويدفع لهم، ويزوِّدهم بالسلاح.

وجاء التنديد بالانقلاب، من مدغشقر، حيث ندَّد رئيسها، راتسيراكا، عبر الإذاعة، "بالانقلاب الأمبريالي الذي استهدف الشعب البينيني"، و"عبَّر عن تضامنه المُطلق مع الرفيق كيريكو"، و"أشاد بشجاعة الجيش الوطني البينيني الذي أفشل المؤامرة". لكن الشيء الذي استغربه مصطفى، أن لا يكون الانقلاب في البينين هو أول خبر تفتتح به الإذاعة القمرية نشرتها المسائية، وأن يلتزم الرئيس صواليح الصمت، لا يندِّد بالانقلاب كما فعل نظيره الملغاشي. ولم يتمكن من تفسير هذا اللغز، إلا حينما تذكَّر أن الرئيس صواليح، كان قد وصل إلى كرسي الرئاسة، قبل عامين، بالانقلاب على الرئيس أحمد عبد الله، بالاستعانة بالعقيد بوب دونار نفسه، ومرتزقته البيض في الإطاحة بغريمه، فبدا له أن صواليح يكون قد تحرَّج من التنديد بانقلاب قاده بوب دونار، صاحب الفضل عليه، مع أن القطيعة كانت قد حدثت بينهما، وتحوَّل إلى عدوٍّ لدود له، حين أعلن عن تبنِّي نظامه للنَّهج الشيوعي.

***

كان لدى الأستاذ مصطفى فراغ بين الدروس لمدة ساعة، ما بين العاشرة والحادية عشر، فقصد بقّالة طاكي، التي لا تبعد عن الثانوية إلا بحوالي خمس مئة متر، لعله يظفر بعدد من مجلة "أفريك ازي"، أو "جُون أفريك"، وهما الأسبوعيتان الفرنسيتان اللتان تعوّد على قراءتهما منذ أن نزَل بالجُزر، لتخصّصهما في معالجة القضايا والأحداث المستجَدّة في إفريقيا والبلاد العربية، وكانتا على طرفي نقيض في خطّهما الافتتاحي، تبعًا لتوجُّههما اليَساري والليبرالي على التوالي، وهو ما يجعل مُعالجتهما للمسألة الواحدة تختلف اختلافا كاملا، وهذا ما كان يُعجبه فيهما، ويدفعه إلى قراءة كل ما تنشُرانه من تحقيقات صحفية، وتعاليق على الأحداث، ومقابلات مع شخصيات سياسية، وحوارات مع كتّاب وفنّانين، أفارقة وعرب، لأنه لم يكن لديه ما يمْلأ به فراغه بعد انتهائه من إعداد دروسه إلا القراءة، ولاسيما إذا كان الجو مُتقلّبا، ولم يكن هناك من وسيلة يسلّي بها نفسه، فلا تلفزيون، ولا سينما، ولا مسرح، ولا أي نوع من أنواع التّسليّات الحديثة، ما عدا لعبة الكُرات الحديدية، التي كان يلعبها في المساء، حينما يكون الجو صحْوًا، بالاشتراك مع زملاء أساتذة آخرين، وكان بارعا في هذه اللعبة، مما يجعل فريقه يفوز في معظم المُنافسات، وما عدا مباريات في كرة القدم كانت تقام في أيّام الآحاد، في ملعب صغير غير بعيد

عن سكنه، فكان يشارك فيها كمُتفرِّج، أو كمدافع، أو ظهير أيمن عند غياب بعض اللاعبين المتمرِّسين.

لم يجد في البقَّالة مجلَّتيه المُفضَّلتين، ووجد عوضا عنهما مجلتي "باري ماتش" و "لوبوان"، ولم يكن يقرأهما، لأن معظم صفحات الأولى كانت تُخصَّص لأخبار الأميرات والأمراء في أوروبا، ومشاهير السينما والغناء، والوجوه البارزة في المُجتمع المَخملِي، وعالم الأزياء، والباقي كله عبارة عن كمٍّ هائل من الإعلانات المصوَّرة، بألوان عالية الدِّقة، عن مختلف أنواع الألبسة والأحذية الفاخرة، ومَواد التجميل، والعطور الغالية، والسلع الكمالية الأخرى التي لا تعنِي إلا طبقة الأثرياء في فرنسا نفسها، أما المجلة الأخرى فتركِّز على الشأن الداخلي الفرنسي في المقام الأول، والشأن العام الأوروبي بعد ذلك، وهذا كله لا يعنيه كثيرا.

وأثناء ما كان يجُول ببصره في أرجاء البقَّالة، لفت نظره رُفٌّ صغير، خاص بالعطور الباريسية المُمتازة، فخطرت بباله فكرة، طرأت على ذهنه في تلك اللحظة، وتساءل مع نفسه: "لماذا لا أزور أندريا في مكتبها، وأقدِّم لها زجاجة عطر من هذه الأنواع الفاخرة، عوضا عن الزُّهور التي لا يوجد محلٌّ واحد لبيعها في المدينة، فتكون تعبيرا عن إعجابي بها، ووسيلة لتمتين الصداقة معها، خاصة أن العطر في النهاية ليس إلا خلاصة مركَّزة من رحيق الزُّهور، ومن

مائها المُقطَّر، ويحمل مثلها رسائل رمزية، دأبَ العُشاق على تبادلها فيما بينهم!".

وفي الحين، شرع في وضْع الفكرة موْضع التَّنفيذ، فطلب من طاكي أن يُنزل له من رُف العطور أفخرها، ليختار واحدة منها كهدية، ووضع صاحب البقَّالة عددا معتبرا منها على لوح الكونتوار، وهو يمتدح أصنافها بصوته المُغمغِم، وفمه المحشوٌ بالقات، وكانت تختلف أسماءً، وأشكالا، وأحجاما، وأسعارا، فراح يتخيَّر منها الأجمل تغليفا، والأعلى تركيزا، والأقوى رائحة، حيث كان يفتح أقفالها، ويتشمَّم رائحتها، ثم يقرأ ما كُتب على عُليها باهتمام، ليعرف أصلها وتركيبتها.

ووقع اختياره أخيرا على واحدة منها لم تُنزع من عُلبتها الأصلية، وهي من الماركة الباريسية المشهورة "شانيل 5". ودُون أن يسأل عن ثمنها، وكان على يقين أنها غالية جدا، طلب من السيد طاكي تغليفها بورق الهدايا، وربْطها بشرائط حمراء كما جرى العُرف، مُوضِّحا له أنه سيقدمها كهدية لامرأةعزيزة عليه، ولكن السيد طاكي اعتذر عن تلبية طلبه، لأنه لا أحد قبله طلب تغليف هذه الحاجات في ورق خاص، ولا هو فكَّر في استيراد ورق تغليف من نوع خاص.

وأُسقِط في يَد مصطفى، وفكَّر جدِّيا في التراجع عن شراء الهديَّة، لأن تقديم الهديَّة بشكل غير لائق، يُعطي، في تقديره، انطباعا سيِّئا عن ذوق صاحبها، وهو لا يريد أن تُكوِّن أندريًّا عنه مثل هذا الانطباع. وحينما رآه السيد طاكي جادًّا في التراجع عن شراء الهدية، وقد ردَّ نقوده إلى جيبه، راح يبحث في أدراج الكونتوار عن شيء يُنقذ به الصفقة المُربِحة، ولا يضيِّع فرصة بيعه لسلعة لا يقدر على شرائها إلا القليل من الزبائن، فعثر على كيس ورقي صغير، مُزركش اللون، مَطويٍّ بعناية، مقبول في مظهره لأن يحمل الهدية الثمينة، فقلَّب مصطفى الكيس بين يديه، وفحصه جيدا، ليتأكد أنه لم يستعمل من قبل، ووضع الهدية داخله، ثم دفع الثمن، دون أن يناقش السِّعر، ووضع الكيس في محفظته الجِلدية، مع أوراقه ومذكرات دروسه، وقفل راجعا في اتجاه الثانوية، ومنها قصد مقر شركة المنشآت الهيكلية التي كانت على مرْمَى حجر من هناك.

وفوجئت أندريا بزيارة مصطفى لها في مكتبها، وأظهرت سرورها الشديد بهديَّته، وأثنتْ على ذوقه الرفيع في اختيارها، وقدَّمت له عصير مانجو بالثلج، فعجَّل بشربه، وكان عطشان، ثم نظر في ساعة يده وقام مستأذنا ومعتذرا باقتراب موعد درسه مع طلابه في الثانوية، فلم تُلِح عليه بالبقاء وقتا أطول، غير أنها لم تُفوِّت فرصة زيارته، وعرضت عليه يُرافقها مساء السبت إلى الحفل الصغير الذي

ستقيمه صديقتها السيدة "إفلين نادو"، وزوجها الدكتور أبوبكَر في بيتهما، بمناسبة الذكرى الثامنة عشر لزواجهما. وحين لاحظ لها أنه غير مدعوٍّ من صاحبي الحفلة، أوضحت له قائلة:

ـ الدعوة التي تلقيّتها موجهة لشخصين، ولو كان السيد جورج موجودا حاليا في موتسامودو لأعفيتك من الحرج، لهذا أرجوك أن تقبل دعوتي، وتأتي معي، وكن على يقين أن السيدة إفلين والدكتور أبوبكر سيكونان مسرورين جدا بحضورك.

وتردَّد بعض الشيء في الاستجابة لدعوتها، ولكن نظرة الرجاء التي رآها في عينيها جرَّدته من أية مقاومة، فأجابها موافقا:

ـ أوكِي.. يومَ السبت مساء.

ولاحت الفرحة في عينيها، أتبعتها ببسمة عريضة على شفتيها، ثم أضافت موضحة:

ـ انتظِرْني في بيتك، إذن، سأمُرُّ عليك في السادسة مساء، لنذهب معًا بسيارتي.

فكرَّر لها العبارة نفسها وهو يغادر مُوَدِّعا:

ـ أوكِي.. إلى اللقاء..

***

5

سهْرة في بيْت الدُّكتور أبوبَكَر

في صباح يوم السبت، أعفَى مصطفى خادمه عبدو من أشغال البيت، وطلب منه أن يذهب إلى منطقة البساتين، في الجِهة الغربية من المدينة، ليشتري له من أصحابها ما يكفي لتشكيل باقة ورْد مُحترَمة، بينما نزل هو إلى مركز المدينة راجِلا، ليَتريَّض مشْيًا ساعة أو بعض الساعة. وعندما بلغ مُنعرَج الطريق الذي يوجد فيه دُكان احمد، وجد الدُّكان مُغلقا، على غير العادة، وأوَّل ما تبادر إلى ذهنه أن يكون مرِيضا، أو شغله أمرٌ طارئ اضطره لغلق الدكان، فتابع طريقه، مُنحدِرًا نحو ساحة البلدية، مرورا بموقع المِدفَعين المُشرفين عليها. ومن الساحة قادته قدماه إلى بقًّالة طاكي، ليجد عنده آخر عدد من مجلة "جون أفريك"، فسارع إلى اقتنائه قبل أن تتنبه الرقابة إليه وتصادره، لاسيما أن المُحاولة الانقلابية التي وقعت في البينين كانت موضوع المجلة الرئيسي، وصورة الرئيس ماتيو كيريكو، بالألوان، تتصدَّر غلافها، ثم واصل طريقه نحو السوق.

ومرَّ مرَّ الكرام على المعروضات المتنوِّعة التي كانت مطروحة على الأرض مباشرة، وموزَّعة ذات اليمين وذات الشِّمال، وفي كل

الاتجاهات، في حالة فوضى عامَّة، لا يجمعها رابط، ولا يحكمُها ترتيب أو تنظيم، ولا يراقبها مراقب، حيث تتجاور الأواني المنزلية بجميع أنواعها وأحجامها، مع سِلال الأسماك، وأكداس الخضر، وزيوت النارجيل، وأدوات الخُردة، وأكوام الأحذية المطاطية، وحُزَم الحطب، وأكياس الفحم، تفصل فيما بينها، أحيانا، هِضابٌ صغيرة من القُمامة، يتجمَّع عليها الذُّباب، ويحوم حولها البعوض، والجميع يبيع ويشتري، ويدفع ويقبض، غير آبِه بالشمس الحارقة، ولا مُنزعج من سحائب البعوض وطنين الذُّباب، أو لِنقُل إنهم تعوَّدوا على ذلك، فصار جزء من حياتهم، أو بالأحرى، تعوَّدن على ذلك، لأن النساء، من مختلف الأعمار، هن اللائي كُنَّ يشكِّلن معظم البائعين، أما المشترون فكان أغلبهم رجالا.

وربط في ذهنه، من خلال ما قرأه في الكُتب عن النظام الاجتماعي السائد في الجزيرة، وبين نشاط المرأة الذي يراه أمام عينيه في الواقع المعيش، باعتبار المرأة ركيزة الأسرة وعمادها الأساسي، حيث تعود الملكية إليها، وإلى أولادها، في حالة وفاة الزوج، أو حصول الطلاق بينهما. وأثناء عبوره السوق، كان مُتنبِّها، بصفة خاصة، لبائعات الموز، لعله يُصادف جُمان بينهُن، لكنه لم يرَها، ففكَّر أنها قد تكون راجعة من الغابة في تلك الساعة، لأن الوقت مازال مُبكِّرا نِسْبيًّا.

عندما خرج أخيرا من فوضى السوق، وجد نفسه عند مدخل المدينة القديمة، فدخلها بدافع الفضول، بغرض استكشافها، لأنه لم يسبق له أن دخلها من قبل، وكانت عبارة عن متاهة بالنسبة إليه، بسبب أزِقَّتها الضَّيِّقة، ودُورِها المُتلاصقة ببعضِها بعضًا، ومسالِكها المُتشعِّبة، والمُتشابهة. وتذكَّر الشيخ عصمان، إمام المسجد العتيق، الذي واعده بالزيَّارة، وكان يعلم أن المسجد موجود في المدينة القديمة، فسأل عنه فتى مراهقا قابله في الطريق، فتطوَّع الفتى وأوصله إليه.

وقف متأملا الجامع من الخارج، وكان آية في فن العمارة، وفيه فخامة تُزرِي بكل الدُّور المحيطة به، غير أنه لم يستطع أن يحدِّد طرازه بالضبط، ولا عصره، فهذا يرجع لأهل الاختصاص، أو لمن يكون لديه معلومات تاريخية عنه. ولاحظ في شكله العام أنه لايختلف عن الطراز المعماري المُتَّبع في بناء المساجد في البلاد الإسلامية عامة، ولاسيما في كثرة الأعمدة، وفي الأقواس التي تعتلي الأبواب والنوافذ، لكنه انتبه إلى وجود اختلاف في كون الأقواس ثلاثية العدد، حيث تعتلي الباب أو النافذة الواحدة ثلاثة أقواس متصلة ببعضها بعضا، قوس على اليمين، وآخر على اليسار، وثالث في الأعلى.

ومع جهله بفن العمارة، فقد لاحظ أيضا بروز الطابع المحلي في بناء المسجد، المتأثر، دون شك، بفن المِعْمار الإفريقي، ولاسيما في

مراعاته لارتفاع درجة الحرارة طوال السنة، مما يستوجب أن يكون مُنفتِحا على الخارج، مُتعدِّد المَداخل، كثير المنافذ. وشدَّ انتباهَه شكلُ المِئذنة الوحيدة، التي لم ير لها مثيلا في بلاد المغرب أو المشرق التي زارها، فهي ترتفع عن البناء في شكل دائري بحوالي عشرين مترا أو أقل بقليل، وتشبه إلى حد كبير صاروخا ضخما مُوجَّهًا نحو السماء، وبها منافذ عِلَّة للضوء في الأسفل، وأربع فتحات كبيرة في الأعلى، يُطل منها المؤذن على الجهات الأربع عندما يرفع صوته بالأذان.

في هذه اللحظة خرج من المسجد جمْعٌ من الصبيان يتدافعون فيما بينهم، ويُحدثون ضجَّة، ثم أخذوا يتفرَّقون في اتجاهات مختلفة. وفهم من ذلك أنهم كانوا يتعلَّمون القرآن، أو يتلقُّون درسا في العربية أو الفقه، وقد سمع بعضهم يردِّد آيات من القرآن، وبعضهم يتلفَّظ بعبارات عربية، فتأكد أن هناك من سيستقبله في الداخل، وقد يُصادف الشيخ عصمان نفسه، فنزع حذاءه عند الباب ودخل، ولكنه لم يقابل أحدا، فراح يتأمل الأقواس والأعمدة، والثريات المُتدلِّية من السقف، ويقرأ الآيات التي كتبت بخط جميل على الجُدران، وفي أعلى المِحراب. ووقف عند المنبر الخشبي العتيق، الذي صنع من خشب الأبنوس، وزُيِّن بنقوش محلية في غاية الإتقان، ولم يكن يرتفع عن الأرض إلا بخمس درَجات. وكان كل شيء في الجامع يوحِي بالقدم، ويشير إلى تاريخ عريق.

وأثناء ما كان غارقا في تأمله، أحس بحركة خفيفة خلفه، وسمع القادم يحيّيه: "السلام عليكم"، فالتفت إليه فإذا هو الشيخ عصمان نفسه، الذي عانقه، وبالغ في الترحيب به، وفي إظهار سروره بزيارته، ثم قاده إلى مكتبه الذي خرج منه، وكان عبارة عن حجرة صغيرة إلى جانب المحراب، بها أثاث بسيط، ورفوف جِداريَّة تضم نُسخا من المصحف الشريف، وبعض الكتب الدينية، يبدو عليها القِدم هي الأخرى، وعُلِّقت على الجدار صورة فوتوغرافية في برواز، وساعة حائطية، ووُضِعت على المكتب مروحة كهربائية، وهي الأشياء التي لا توحي بالقدم في هذا المكتب.

وبادر بسؤال الشيخ عن الصِّبيان الذين خرجوا من الجامع قبل قليل، فأكد له أنهم يأتون لحفظ القرآن وتعلُّم العربية على يديه، ويزداد عددهم يومي السبت والأحد، حين تكون المدارس الرسمية في عطلة.

وسكت الشيخ لحظة ثم أضاف: الأهالي عندنا متعلِّقون بالدِّين، ويحرصون على تحفيظ أبنائهم القرآن، وتعليمهم مبادئ الفقه واللغة العربية، لأن العربية هي وسيلتهم لفهم القرآن والدين.

ـ ألا تصِلكم مساعدات من الدول العربية؟

ـ مع الأسف لا.. صحيح أننا نسمع، بين الحين والآخر، بوصول مساعدات من الدول العربية، ولكن السلطات عندنا توجِّهها إلى أمور أخرى، بعيدة عن خدمة بيوت الله، فلا تكون حِصَّتنا منها إلا حصة اليتيم في دار لا يخاف ربُّها عقاب الله.

وانتبه الشيخ عصمان إلى تعلُّق نظر زائره بالصورة المعلَّقة على الحائط، وكانت قد أُخِذت له في الكعبة المشرَّفة، فلم ينتظر أن يسأله عنها، وقال موضِّحا:

ـ هذه صورتي في المسجد الحرام، وأنا أؤدي مناسك الحج في عام 1380 هجري، وعمُرها الآن حوالي عشرين سنة، أخذتها في يوم التروِيَّة، وكنَّا حينذاك نتأهب للرحيل إلى مِنًى.

ـ ما شاء الله، علَّق مصطفى، وكنت آنذاك شابًّا قويًّا، حسب ما تُظهِره الصورة.

ـ الحج فيه مشقَّة كبيرة، ولذلك يكون من الواجب على المُسلم القادر أن يحُج وهو شابٌّ.

وسكت الحاج عصمان لحظات، بدا أثناءها وكأنه يسترجع شيئا في ذاكرته، ثم ابتسم واستأنف:

ـ بعد ما أتممنا مناسك الحج، ووفَّقنا الله في ذلك بفضله وعوْنه، انتقلنا إلى المدينة المُنوّرة، فحدثت لي حادثة مؤسفة،

ولكنها كانت بالنسبة إليَّ درسا مُفيدا، فأثناء ما كنتُ أشتري ذات يوم بعض الهدايا للأهل، حاولت أن أناقش البائع في السعر، وحدَّثتُه باللغة الفرنسية، فانتزع السلعة من يدي، وقال لي غاضبا ما معناه، حسب الكلمات التي فهمتها: "هذه لغة الشيطان، لماذا لا تتكلم بالعربية؟"، فأفهمته، بصعوبة كبيرة، أنني لا أحسن الكلام باللغة العربية، فسألني: ألستَ مُسلما؟ فأجبته: "بلى والحمد لله، وجئت لأداء مناسك الحج"، فخفَّ غضبه قليلا، وقال لي: إذن، يجب عليك أن تتكلم باللغة العربية. ومنذ ذلك اليوم عقدت العزم على تعلُّم لغة القرآن الذي كنت أحفظه، وبذلت جهدا كبيرا في تعلُّمها، وكان لشيخي خالد رمضان الأسيوطي، الذي حدثتك عنه في لقائنا السابق، الفضل الأكبر في تعلُّمها، وإتقانها، والحمد لله.

وعلى ذكر الشيخ عصمان للقائهما الأول في هومبو، لم يستطع مصطفى أن يكبح فضوله، ليسأله عن سبب استدعائه للتحقيق في مكتب الأمن، لكنَّه مهَّد لذلك بسؤال آخر:

ـ ذكَّرتني بذلك اليوم، فقد انشغلت عليك بعد أن هطل المطر من جديد بغزارة. ألم يُدرِكك قبل وصولك؟

ـ بلى، ولكنني كنت على وشك الوصول إلى بيتي.

ـ نأمل أن لا يستدعوك مرة أخرى، ولا يزعجوك بالتنقّل عندهم.

ـ أرجو ذلك من الله، لكن، مع هؤلاء، كل شيء جائز!

ـ اعذرني عن فضولي، سيدي الشيخ، ألم يحترموا مقامك كرجل دين وهم يحقّقون معك؟

وأطرق لحظة، ثم أجاب بصوت يَشِي بالمرارة:

ـ كما قلت لك، كل شيء جائز معهم، فهم لا يحترمون المواطن ولو كان شيخا كبيرا، وحتى لو كان إمام مسجد، يقوم بمُهمة عظيمة هي إرشاد الناس، وتعليم الصبيان القرآن الكريم.

وأطرق لحظة ثم أضاف:

ـ بعد أسئلة كثيرة عن دروس الوعظ والإرشاد التي أقدّمها للمؤمنين، طلبوا مني أن لا أتكلم إلا في الشؤون الدينية وحدها، وأن لا أزيد شيئا على تعليم الصبيان، وإمامة الناس في الصلاة، والإجابة عن الأسئلة الدينية لا غير، وبصفة فردية.

ـ وخطبة الجُمعة؟

ـ سمحوا لي بها، ولكن، دون إطالة، وأن لا أكلّم المصلين فيها إلا في أمور الآخرة، أما شؤون الدنيا، والأمور السياسية، فلا

يحق لي الخوض فيها بأي صفة من الصفات، وإلا سيكون حسابي عسيرا معهم.

ـ لكن هذا تهديد صريح!

ـ .....!!

وفهم مصطفى الأمر بِرُمَّته، واكتفى بهذا القدر مما أفضَى به إليه الشيخ عصمان، وقام مستأذنا بالانصراف، فشيَّعه الشيخ إلى عتبة الباب الخارجي للجامع، ودعاه إلى تكرار الزِّيارة.

عندما رجع إلى البيت، وجد عبدو قد سبقه إليه، وأتى له بباقة رائعة من الورد الأحمر، الفاتح اللون، مازالت تلمع بقطرات الندى، وقد ملأ أريجها الطيِّب جو الصالون بأكمله، فسُر بذلك سرورا عظيما، وقدَّر أن هديَّته، وأندريًّا، ستفاجئ الدكتور أبوبكَر وزوجتَه، وسيفْرَحان بها.

وحينما لاحظ على مائدة السُّفرة النقود التي سلَّمها لعبدو ليشتري بها الورود، أخبره عبدو، حين سأله، أن أحد أصحاب البساتين أعطاه إياها مجانا، فمنحه النقود مُكافأة له على نجاحه الباهر في مهمته. وسرَّحه في هذا اليوم قبل أن تنتهي ساعات عمله.

***

قبل الغداء، تابع أخبار الظهيرة من هيئة الإذاعة البريطانية بالعربية، ومن إذاعة فرنسا الدولية بالفرنسية، ثم أخرج كرسيا إلى الفناء، وجلس تحت شجرة الأفوكا، وراح يقرأ تفاصيل محاولة انقلاب البينين في مجلة "جون أفريك"وأثناء ما كان مستغرقا في القراءة، لمح بطرف عينه خيالا يقف غير بعيد عنه، فرفع رأسه، وفوجئ بجُمان تقف قُبالته، وتبتسم له البسمة الساحرة ذاتها، التي أسرته بها في المرة السابقة أمام دكان أحمدووكان وجهها ينضح عرقا، وساطورها يتدلّى في خاصرتها، وكانت تحمل الموز على رأسها، كالعادة، فقام من كرسيِّه ودعاها بإشارة من يده إلى الجلوس، فجلست ولكن على الأرض مباشرة، بعد أن أنزلت الموز ووضعته إلى جانبها، ونزعت ساطورها من خصرها.

وسارع مصطفى إلى إحضار الماء لها، فشربت، وغسلت وجهها بما بقي منه في الإناء، مثل المرة السابقة، وتلفَّظت ببعض العبارات لم يفهم معناها بالتحديد، ولكنه فهم أنها تشكره على تقديم الماء لها، ثم أضافت عبارات أخرى، وهي تشير إلى البيت، وفهم على وجه التقريب مرة أخرى، أنها تسأل عما إذا كان يعيش بمفرده في هذا البيت؟ وتأسف في هذه اللحظة على تسريحه لعبدو قبل الأوان، فلو تأخر قليلا لقام بالترجمة بينهما. وظلا في جلستهما تلك، صامتين، ينظران لبعضهما بعضا، ويتبادلان الابتسام.

ووردت في خاطره وهو يتأملها أغنية فيروز، من شعر أحمد شوقي: "وتعطلت لغة الكلام، وخاطبتْ عيْنيَّ في لغة الهوى عيْناك"، وابتسم لها، وحرَّك رأسه، فارتسم سؤال كبير في عينيها وملامحها، أتبعته بإشارة من يدها، وكأنها كانت تريد أن تعرف سبب ابتسامته، وما صاحبها من حركة رأسه، فترجم لها بالحركات عجزه عن إفهامها السبب.

وعندما قامت لتواصل طريقها، أخذت ساطورها، وقطعتْ له من حمولتها حوالي عشر موزات خضراء، وقدَّمتها له، فتردَّد في أخذها منها، ثم استلمها منها خشية أن يُخجِلها برفض هديَّتها، ووضع الموزات على الكرسي، وطلب منها عن طريق الإشارة أن تنتظره قليلا، ودخل مسرعا إلى البيت، ليعود إليها حاملا قطعتين من الصَّابون الفاخر، فأبت أن تأخذهما منه، وقالت له كلاما كثيرا، فهم منه أنها قدمت له الموز هدية وليس مقايقضة، غير أنه أصرَّ، وحاول أن يفهمها بأنه لن يقبل هديتها إذا لم تأخذ منه قطعتي الصابون. وفي الأخير مدت يدها وأخذت منه الصابون، ودسَّته في صدر فستانها الحائل اللون، الذي كانت ترتديه في المرة الماضية، وانطلقت منحدرة في طريقها نحو ساحة البلدية وهي في غاية السرور. وكانت تتوقَّف بين الفينة والأخرى لتلتفت إليه بكامل جسمها، بسبب حِمْل الموز الذي كان على رأسها، لتجده في كل

مرة واقفا عند حافة الطريق، يتبعها بنظره، ويلوِّح لها بيده كلَّما التفتتْ إليه.

***

كانت الساعة السادسة إلا بضع دقائق مساء عندما سمع محرك سيارة يدخل فناء البيت، ثم يتوقف، وكان قد تهيأ للسهرة الخاصة في بيت الدكتور أبوبكر وزوجته، فأسرع إلى الباب يفتحه، ليستقبل أندريًّا، وكانت تلبس سروال "جين"، على غير ما كان يتوقع كلباس للسهرة، وقميصا أبيض، شفَّافا، تَظهَر من تحته حمَّالة ثدْييْها، وقد صفَّفت شعرها بعناية فائقة، وشدَّته بمُشبِّكات شعر ملوَّنة، في شكل دائري، وزيَّنت أذنَيْها بقرطين فِضِّيين كبيرين، يتلاءمان تماما مع طول رقبتها، وينتهيان بحبَّات من المرجان الأحمر، مما ذكَّره ببطلة فِلْم، شاهده قبل سنوات، من أفلام القراصنة، تجري حوادثه في البحر الكاريبي.

قبَّلها على خدَّيها، فغمرته رائحة عطر "شانيل 5"، وهو ما أشعره بالارتياح، لأنه وُفِّق في اختيار الهدية التي قدمَّها لها. وعرض عليها الدخول، ولكنها شكرته ودعته إلى الركوب، لكي لا يصلا إلى السهرة مُتأخِّرين، فعاد بسرعة إلى الصالون، وتناول باقة الورد، وأغلق الباب، وركب السيارة إلى جانبها، فأبهرتها باقة الورد، وتشمَّمت رائحتها بعمق، وسألته:

ـ من أين جاءتك هذه الفكرة العبقرية، إذْ لا يوجد، حسب علمي، محلٌّ واحد لبيع الزهور في المدينة؟

وأجابها مُبتسما، ومنشرحا من إعجابها بالفكرة:

ـ لكن الجزيرة كلها زهور وخُضرة طوال الفصول الأربعة.

وسكت لحظة، ثم قال بلهجة مازحة:

ـ وهذا ما جعلني أفكر في التخلي عن التدريس، وفتح محل لبيع الزهور.

ـ ستخسر كل شيء، لأنك لن تجد من يشتريها منك ولو بفلْس واحد، فالناس هنا غير متعوِّدين على شراء الزُّهور.

ـ لكنني سأُصَدِّرها إلى أوروبا.

ـ ... وهل تقبل أن نكون شريكيْن في مشروع التصدير؟

ـ بكلِّ سرور.

وضحكا من جموح الخيال بهما، وكانا قد وصلا في هذه اللحظة إلى مكان العُزُومة، لأن الدكتور أبوبكَر وإيفلين كانا يسكنان فيلَّا فخمة في مُرتفع هومبو أيضا. وقدَّم لأندريا باقة الورد، لتقدِّمها لسيدة البيت، فاعترضت عليه قائلة:

ـ لكن الفكرة فكرتك، والهدية هديتك.

ـ لكنك أنت وأنا واحد.

فدغدغت العبارة مشاعرها. فقبَّلته على خدَّيه، وأخذت الباقة منه. واستقبلهما الدكتور وزوجته عند الباب، ورحَّبا بهما، فقدمت أندريا باقة الورد لسيدة البيت قائلة:

ـ سنة حلوة، وكل عام وأنتما في سعادة وهناء.

وشكرتها السيدة إفلين، وأظهرت سرورا كبيرا بباقة الورد، وعندئذ قدَّمت لها مرافقها:

ـ مصطفى بن سعيد، أستاذ العلوم بثانوية موتسامودو.

فصافحته قائلة: مسرورة بمعرفتك، أستاذ بن سعيد.

ـ تهانينا لك، سيدتي، وللدكتور أبوبكر بذكرى زواجكما.

وعندما همَّت أندريا بتقديمه للدكتور أبوبكَر، سبقها هذا الأخير إلى القول:

ـ أمَّا أنا، فلا داعي لتقديمه لي، لأنني عرفت الأستاذ بن سعيد قبل اليوم، حينما زارني ذات يوم في المُستشفى.. مرحبا بكما، تفضَّلا بالجلوس مع ضيوفنا في الصالون.

كان قد سبقهما في الوصول كلٌّ من خليل اليمني وزوجته ماريان، وفيكتور ماتياس اللوكسَمْبورجي وزوجته هيلان، وكان على

مصطفى، في هذه المرة، أن يقدِّم لهم أندريا، ثم جلسا، فتقدم منهما خادم في كامل أناقته، يلبس سترة قرمزية اللون، وقميصا أبيض، بربطة عنق سوداء، وقفَّازين أبيضيْن، ليسألهما أي شراب يُفضِّلان: ويسكي، أو شامبانيا، أو باستيس. فطلبت أندريا كأس شامبانيا، قائلة لمصطفى: الشامبانيا أخَف، حتى لا نسكر، فطلب كأسا مثلها.

وألقى نظرة على الصالون، فبدا له أوسع بكثير من صالونه، وقد صُفَّت حول صحنه أرائك وكراسي، تاركة فراغا في الوسط، وأمامها مناضد صغيرة، عليها سلال الفاكهة وصحون المُكسرات، وخلفها على الجدران، تدور مراوح عديدة، بسرعة مُخفَّضة، مُوزَّعة بشكل دقيق على القاعة. وكان هناك "بار" صغير في جانب من الصالون، صُمِّم بإتقان كبير، من خشب رفيع، به رفوف عديدة، تحمل قناني كحول من مختلف الأنواع والأحجام، وُضع أكثرُها، فيما بدا له، للزِّينة لا للاستهلاك. وكانت هناك أنوارٌ جدارية خفيفة السُّطوع، تضيء جوانب الصالون، مصوَّبة نحو الحيطان، لتنعكس على الوسط، فيما يُشبه ضوء القمر في ليلة اكتماله. ولاحظ في الجهة المقابلة للبار، ثلاث دِبْلومات مُعلقة في براويز على الحائط، وتحتها صور كثيرة متفاوتة الأحجام، بعضها مُبرْوَزٌ هو الأخر، وبعضها مُلصق على الورق في الجدار مباشرة، ولكنها كانت بعيدة عنه، بحيث لم يستطع أن يتبيَّن من في صور.

في اللحظة التي وضع النادل الشامبانيا أمامهما، وصل أرتور لانسون وصونيا، يتبعهما صديقهما غابريال لامبير صحبة امرأة، بدت لمصطفى أكبر سنا من تلميذات الثانوية، وبالنظر إلى تبرُّجها المُفرط، وعدم انسجام لباسها على جسمها، رجَّح أن تكون من بائعات الهوى في فندق الهِمالايا.

وعندما جلسوا، وقدَّم لهم النادل ما طلبوه من مشاريب، رفعت السيدة إفلين كأسها، وخاطبت الجميع:

- نرفع كؤوسنا، لنشرب نَخْب الزَّوجين الجديدين، أرتور وصونيا.

وصفَّق لهما الجميع، وقرعوا الكؤوس، وشربوا نَخْبهما.

وبعدها وقف الدكتور أبوبكَر ليقول:

- ...واسمحوا لي أن أرفع كأسي نخب عزيزتي إفلين، وحبيبتي إلى الأبد، وأقول لها "عيد سعيد بالذكرى الثامنة عشر لزواجنا".

واحتضن إفلين، وقبَّلها على شفتيها، فضجَّ المدعوُّون كلهم بالتصفيق، ورفعوا أصواتهم مُهنِّئين: Joyeux anniversaire ثم راحوا يقرَعون الكؤوس، ويشربون نخبهما.

وأشار الدكتور إلى النادل، فأحضر كعكة عيد ميلاد كبيرة، مُزيَّنة بحلقات من الأناناس، والكيوي، والفراولة الحمراء، تتسوسطها شمعة مشتعلة، فصفق لها الجميع. وأشار الدكتور إلى النادل ثانية، فأطلق من جهاز "الستيريو" أغنية عيد الميلاد المشهورة، وأخذ الكل يردِّد كلمات الأغنية، في تناغم مع الصوت المنبعث من الجهاز، وتقدمت السيدة إفلين وزوجها فأطفآ الشمعة بنفس واحد، وتعالى التصفيق ثانية، وراحت النساء تقبِّل المُحتفَى بهما على السواء، والرجال يقبِّلون إفلين، ويصافحون الدكتور.

ولم يمنح هذا الأخير مهلة لضيوفه، فخاطبهم قائلا:

ـ لدينا، أنا وإفلين، مفاجأة رائعة لكم، هي عبارة عن رسالة صوتيَّة، بعثت بها إلينا إبنتنا مريام، التي تعيش في مدينة مونبيلييه بفرنسا، مع جَدَّيْها، ونحب، بهذه المناسبة، أن نُشرككم في سماعها.

وأشار إلى الخادم، فأطلق صوت الجهاز، ليَصْدُر منه صوت فتاة في غاية الرِّقة والصفاء، تخالطه غُنَّة لطيفة، تزيد من تأثيره على السامعين، وجاء في رسالتها:

"أمي الحبيبة، أبي الغالي، يسرُّني أن أبعث إليكما برسالتي الصوتية هذه، بمناسبة عيد زواجكما السعيد الثامن عشر، الذي ما كنتُ لأُوجَد في هذا العالم لولاه. إنني فخورة جدا أن تكون إفلين

الرائعة، التي تحمل قلبا كله حب وحنان هي أمي، وأن يكون "سايدو" العطوف، الذي طالما دلَّلني هو والدي. تمنياتي لكما بدوام الصحة والسعادة وطول العمر. جدَّتي مارتين، وجدِّي جان بيار يبعثان لكما، تحياتهما، وتهانيهما بهذه المناسبة السعيدة. قُبلاتي الحارة. ابنتكما ميريام التي تحبكما كثيرا".

عندما انقطع صوت ميريام، صفَّق ضيوف والديها للكلمات الرقيقة التي عبَّرت بها عن حُبها لهما، وشوهدت إفلين وهي تجفِّف دموعها في تأثر واضح.

ـ كم عمُر ميريام؟ سألت ماريان

ـ ستَّة عشر عاما، أجابها الدكتور

ـ هي ابنتكما الوحيدة؟ سأل توماس

ـ الوحيدة، أجابت إفلين.

وتعدَّدت الأسئلة عن ميريام، وعن إقامتها عند جدَّيْها في فرنسا، فشرحت إفلين لهم:

ـ لأن جدَّيها يُحبانها كثيرا، ولا يقدران على فراقها، وقد رضينا من جهتنا، أنا ووالدها ببُعدها عنا، على الرغم من شوقنا الدائم إليها، بسبب انشغالنا عنها هنا بعملنا في المستشفى،

ولأن الفرصة أمامها هناك في الدراسة أكبر، والحصول على شهادة تضمن لها حياة مستقرة ومريحة أوفر.

ـ هل تريدان أن تكون طبيبة مثلكما؟

ـ تريد أن تكون طبيبة أسنان، أجابت إفلين.

ودعاهم الدكتور أبوبكر إلى الانتقال إلى معرض الصُّور الصغير، الذي أقامه بهذه المناسبة، في الجهة المقابلة من الصالون، وكان يضمُّ عشرات الصور التذكارية له ولزوجته، تمثِّل مختلف مراحل حياتهما، منذ أن كانا طالبين في كلية الطب بمونبيلييه، وإلى أن تخرَّجا، وتزوَّجا، ويضُم أيضا صورا مع ابنتهما، في مختلف مراحل عمرها، ومع جَدَّيها، في أماكن عديدة، في فرنسا وفي الجُزر، فأبدى الضيوف إعجابهم بالمعرض، وبتنظيمه الدقيق، حيث تجلَّى من خلاله حرص الزوجين على توثيق حياتهما بالصور، مع كتابة تاريخ التقاطها في حواشيها السفلية، وأسماء الأماكن التي أخِذت فيها، بل، وذكر المناسبة أحيانا، وهو ما عكس بشكل واضح، طابع حياتهما الموسومة بالعمل الجاد، والنظام في كل شؤون حياتهما، دون أن يمنعهما ذلك من السفر، والتمتع مع ابنتهما بالعطل وأوقات الفراغ.

عندما عادوا إلى أماكن جلوسهم، طاف عليهم النادل بالكؤوس المملوءة بالمشاريب المتنوِّعة، ثم انطلقت الموسيقى

الراقصة من جهاز الستيريو، وبدأت الأجساد تتفاعل معها، والنفوس تنتشي بفعل الخمرة، فافتتح الدكتور أبوبكر وإفلين حلبة الرَّقص، ثم بدأ يلتحق بهما الضيوف الأزواج، كلٌّ يراقص زوجته، أو مرافقته.

وما إن مرَّ بعض الوقت حتى بدأت جباه الراقصين والراقصات تتفصَّد عرقا، وأخذت مواد الماكياج ترسم نُدوبا وسواقي على وجوه السيدات، وحينئذ أشار الدكتور للخادم فأوقف الموسيقى، من أجل إعطاء فرصة راحة للجميع، وهو ما مكَّن السيدات من التوجُّه إلى الحمام، لإصلاح ما أفسده العرق.

وعندما استؤنِف الرقص، كان التقليد يقتضي في مثل هذه الحفلات الخاصة، أن يتبادل الفرسان النساء، كنوع من الترفُّع عن الغيْرة، وإظهار للثقة الكاملة في الشريكة. وهكذا وجد مصطفى نفسه يُراقص صونيا، ويحتضنها بين يديه، لأن الموسيقى كانت بطيئة، ولم تفوِّت هذه الفرصة لتسأله بشكل مستفِز:

ـ هل قطعت علاقتك بـ"نايما"؟

وفوجئ مصطفى بجرأتها، واستغرب سؤالها، لكنه ردَّ عليها بهدوء:

ـ ما الذي يجعلك تقولين هذا؟!

ولم يظهر عليها الخجل أو التردد، فأضافت:

ـ نايما قالت لي إنك على علاقة بها، ولكنني أراك في هذه السهرة مع فتاة أخرى.

وأدرك مصطفى أنه أمام امرأة لا تعرف الحدود التي تقف عندها، فأجابها في حسمٍ ووضوح، حتى لا تواصل تجرُّأها عليه:

ـ لم أقِم أية علاقة خاصة مع نايما ولا مع غيرها لأقطعها. أما مع من أسهر، ومع من أسْكر، فهذا شأني الخاص، ولا أسمح لأيٍّ كان بالتدخُّل في حريتي الشخصية.

وشعر أنها صُدِمت بردِّ فعله وصراحته، فسكتت، وراحت تدور في رقصها صامتة كبقرة الساقية. وظلَّا مُمسكين بيدي بعضهما، يتحركان في غير رغبة ولا تجاوب مع بعضهما، إلى أن انتهت الرقصة، واتجه كل واحد منهما إلى مكان جلوسه.

ولم تَفُت أندريا، وهي ترقص مع الدكتور أبوبكر، حالة النُّفور والصَّمت بين مصطفى وصونيا، بعد دخولهما في حوار حيَوِي في الأول، ولم تستطع أن تكبح فضولها النسوي لتعرف من مصطفى ما دار بينهما من حديث، لاسيما أنها لاحظت بعض التغيُّر في مزاجه، لكنه لم يُرضِ فضولها، وزعم لها أنها تأسَّفت، لأنها لم تدرس العلوم معه في فصله، ولم تتعرَّف عليه عن قرب.

وبطبيعة الحال، لم تصدِّق أندريا روايته، وأوحَى لها حدسُها الأنثوي أن حوارهما كان متعلقا بالجانب العاطفي، وأنها هي شخصيا، بحضورها السهرة مع مصطفى، كانت طرفا فيما خاضا فيه، غير أنها كتمت ما دار بخلدها في نفسها، وأرجأت معرفة الحقيقة إلى وقت آخر، يكونان فيه وحيدين، وستعرف كيف تجعله، في اللحظات الحميمية، يبُوح لها بكل ما تريده منه.

قبل أن يعودوا إلى الرقص، سُمع دقٌّ قوي على الباب، أثار استفهاما واضحا على ملامح الزوجين صاحبي العزومة، وأسرع الدكتور أبوبكر إلى الباب يفتحه، ليتبيَّن للحُضور وجه ضابط يرتدي اللباس الرَّسمي، وسُمع دوران محرك سيارة عسكرية خلفه. ولم يطل الحديث بين الضابط والدكتور، فعاد هذا الأخير إلى ضيوفه، وقد ارتسم الأسف على وجهه، وقال في لهجة حاول أن تكون طبيعية بقدر المستطاع، مصحوبة بابتسامة مُغتصَبة:

ـ واجب المهنة يُلزمني أن أغيب عنكم بعض الوقت.. هناك جريح وصل الآن إلى المستشفَى، وحالته تستدعي التدخل الجراحي السريع لإنقاذ حياته.. أرجوكم واصلوا السهرة، كأنني معكم.. سأعود إليكم بعد أن أنتهي من إسعاف الجريح.

وما إن خرج الدكتور أبوبكر حتى سُمع دوي محرك السيارة العسكرية وهي تتحرك، وبقي الجميع في حالة ارتباك وصمت، ما

عدا بعض الهمسات هنا وهناك. ونادت السيدة إفلين النادل، وطلبت منه القيام بدورة شراب أخرى، ورجت ضيوفها أن يواصلوا سهرتهم كأن شيئا لم يحدث، مؤكِّدة لهم أن هذا كثيرا ما يحدث مع زوجها، ومعها هي أيضا، فيضطران إلى قطع راحتهما، أو مغادرة السرير ليلا، حينما تحدث حالات طارئة في المستشفَى.

وعلى الرغم من هذا التَّطمين من سيدة البيت، أحس الجميع بأن السهرة قد ضُربت في الصميم، ولم يتحمسوا للعودة إلى الرقص، وراحوا يشربون، ويتبادلون الحديث بأصوات هامسة، ويتظاهر بعضهم بأنه يُتابع أنغام الموسيقى الناعمة التي كانت تصدر من جهاز الستيريو.

ولم يحتمل غابريال ذلك الصمت، فطلب من النادل وضع أغنية راقصة في الجهاز، وقام يرقص مع مُرافقته المتبرِّجة، وقد بدا عليهما أن الخمرة قد لعبت بعقليهما. وفتحا الطريق للانسون وصونيا، فقاما يرقصان أيضا، بينما ظل البقية ملازِمين أماكنهم، ونشط الحديث بينهم إلى حد ما، وفتح مصطفى وأندريا الحديث مع خليل وماريان عن إفساد الجنود للسهرة.

عندما عاد الدكتور أبوبكر أخيرا، كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل، وقد بدا مُرهقا ومزاجه مُعكَّرا، فرأى بعض

الضيوف، ولاسيما الذين لم يبالغوا منهم في الشرب، أنه من اللائق الاستئذان بالانصراف، ولحق بهم الآخرون تباعا. وأوصلت أندريا بسيارتها مصطفى إلى باب بيته، وافترقا على قُبلة حارة، باتت تُدغدِغ أحلامهما طوال الليل.

***

6

شِجارٌ عسْكَر من أجْل راقِصة

في صبيحة اليوم التالي، الأحد، قام متأخرا من نومه، وخرج إلى الساحة لإجراء تمارين رياضية، وبعد أن أخذ دُشًّا سريعا، دخل المطبخ لإعداد فطوره بنفسه، وذلك لغياب عبدو في هذا اليوم، لأنه يوم إجازته الأسبوعية، وكان يفضل أن يُفطِر في هذا اليوم فطورا إنكليزيا، قوامه عصير البرتقال، والبيض المقلي، والشاي، والخبز الأسود المُحمص، وقد أعجبه هذا الفطور منذ أن زار لندن قبل سنتين، وصار مُداوما عليه صباح كل أحد، باستثناء طبق النَّقانق الذي نفرتْ منه نفسه، وطلب من صاحبة "البنسيون" الذي نزل فيه أن تحذفه من فطوره. وما إن جلس إلى المائدة حتى سمع طرقا على الباب، وخطرت بباله اندريا، لأنه كان يفكِّر فيها في تلك اللحظة، ثم استبعد ذلك لأنه لم يسمع محرك سيارتها وهي تدخل الفناء، وحينما فتح الباب وجد أمامه صديقه "ميدو"، صياد السمك، بقامته الطويلة، وعضلاته الرياضية، وابتسامته التي لا تغيب عن وجهه مهما كان حاله، وكان يحمل في يده سلة مليئة بقشريات البحر، من قرادس، وسرطانات، وجراد بحر من الحجم

الكبير، فأدخله ودعاه إلى الجلوس ومشاركته الفطور، فوضع ميدو سلة القشريات على الطاولة، وجلس، ولكنه لم يتحمَّس للأكل، وبدا له فطورا غريبا، عبَّر عنه بحركة رافضة من رأسه، وبعلامة استفهام ارتسمت على ملامح وجهه، فدعاه حينئذ إلى شرب الشاي أو العصير، فأقبل على شرب العصير، وأثناء ذلك سأله:

ـ أراك قد بكَّرت اليوم، وكنت دائما تأتي في المساء؟

ـ البحر مُضطرب، والريح غير مُوَاتية، ولهذا لم نُبحِرِ اليوم.

ـ وما كل هذه القشريات؟

ـ هل نسيت، يا فوندي، أنك أوصيتني بإحضارها لك، إذا اصطدتُ شيئا منها؟

وتذكَّر أنه أوصاه فعلا بإحضارها له، لأنه ينوي تقديم درس عنها للطلبة.

ـ كم ثمنها؟

ـ لا شيء.

ـ هذا غير ممكن، فكلُّ عمل له مُقابل، مهما كان صغير الشأن.

ـ هذا النوع من القشريات لا يأكله الأهالي، ولهذا نلقيه ثانية في البحر إذا علق في شباكنا، أو نبيعه، في أحسن الأحوال، للأجانب.

ـ لقد قلتها، فأنا أجنبي.

ـ لكنك صديقي.

ـ والصديق لا يرضى الضرر لصديقه.

ـ خمسة فرنكات، إذن، إذا كنتَ مُصِرًّا على الدَّفع.

ـ لِنقُل عشرة، لأن كميتها كبيرة، لكن أخبرني، لماذا لا يأكل أهالي الجزيرة قشريات البحر؟

وضحك ميدو ضحكته المدويَّة التي اعتاد عليها منه، ثم أجابه:

ـ يعتقدون أنها تأكل الموتى من البشر!

واستغرب مصطفى مثل هذا الاعتقاد، وسأله ساخرا:

ـ وهل تصدِّق أنت هذه الأسطورة؟

ـ أغلب الناس يصدِّقونها.

وأفرغ ميدو بقية العصير في جوفه، واستأذن في الرحيل، فقام مصطفى، وأفرغ محتوى سلة القشريات في وحدة التجميد

بالثلاجة، وأعاد السلة لميدو ومعها عشرة فرنكات. وذكَّره ميـدو قبل خروجه:

ـ لاتنس موعد مباراة الكُرة في الرابعة مساء.

ـ مُرَّ علي لنذهب سويًّا، ستجدني جاهزا.

كان مصطفى يرتاح لصديقه ميدو، ويحب الحديث معه، لأنه رجل مَرِحٌ وبسيط، ومخلص في صداقته، وكان يجمع بينهما حبهما لكرة القدم، ويمارسانها معًا، كهواية مساء كل أحد. وكان مستوى ميدو التعليمي جيدا، إذ أنه دخل الثانوية قبل سنوات، كما روَى له، ثم انقطع عنها بسبب الفقر، وحاجة والديه وإخوته الصغار إلى مُعيل لهم، فاحترف صيد السمك مثل الكثير من شُبَّان الجزيرة. ومنذ أن تعرَّف مصطفى عليه، ومتَّنت كرة القدم صداقتهما، صار يُحضِر له السَّمك إلى البيت.

بعد أن انتهى من تناول الفطور، خرج إلى فناء بيته، وجلس في ظل شجرة الأفوكا، ليقرأ بعض ما نشرته "جون أفريك" عن ظاهرة الانقلابات العسكرية في إفريقيا، أسبابها، ونتائجها، والعناصر الفاعلة فيها. وعلى الرغم من استغراقه في قراءة المجلة، فقد لاحظ صعود ونزول حاملات الجنود من المدينة إلى المركز الأمني القريب من سكنه، ومنه إلى مقر الحاكم العام، فاستنتج أن هناك

شيئا ما قد حدث أو يحدث، لاسيما أن اليوم يوم عطلة، ومن العادة أن يكون الجميع في راحة، ولم يخطر بباله أن يكون لهذا التحرُّك علاقة ما بحضور الجنود إلى بيت الدكتور أبوبكر في الليلة السابقة. وصرَف النظر عن التفكير في الموضوع، بعد أن استحوذت موضوعات المجلة على مركز اهتمامه.

***

في صبيحة يوم الاثنين قام من نومه مُتثاقلا، وكانت كل عضلاته تؤلمه، من أثر مباراة كرة القدم التي خاضها عشية الأحد. وقبل انطلاق الدروس، سمع بعض الأساتذة يتهامسون عن الشِّجار الكبير الذي وقع في فندق "الهمالايا"، بين ضابط في الجيش القمري وآخر من المُدرِّبين التَّنزانيين، الذين كانوا يعملون في نطاق التعاون العسكري بين البلدين، وقد تطوَّر الحادث، كما سمعهم يقولون، بتدخُّل عسكريين آخرين من الطَّرفين، وأخذوا يتبادلون إطلاق العيارات النارية، فسقط جرحى من الجانبين، ممَّا استدعى تنقُّل الحاكم العام ليلا، على وجه السرعة، إلى عين المكان، لإيقاف الاقتتال.

وسمع غابريال لامبير يقول إن الشجار نشب بين الضابطين بسبب راقصة جديدة من زنجبار جاءت إلى الملهى، مع أن لامبير كان

في بيت الدكتور أبو بكر ليلة الحادثة، وهذا يعني أن هناك من كان حاضرا وأخبره بما حصل. وأضاف أن الضابط التنزاني هو من حاول الاستئثار بالراقصة لنفسه، فواجهه الضابط القمري وأراد انتزاعها منه، وكان كلاهما ثملا، فوقع ما وقع.

وهنا فقط، أدرك مصطفى سبب حضور السيارة العسكرية إلى بيت الدكتور أبوبَكر ليلة السبت، وفهم لغز تحرُّك الدوريات العسكرية في صبيحة اليوم التالي، واستنتج مما سمع أن المعركة لم تُسفر عن جريح واحد فحسب، وإلا لَما كان الدكتور أبوبكر ليغيب عن ضيوفه ثلاث ساعات كاملة، ولما رجع مُرهقا بالشكل الذي ظهر عليه.

الجديد الآخر الذي علِمَه في هذا اليوم، هو ما أخبره به المُراقب العام، عبد الرحمان، ومَفادُه أن قيادة اللجان الثورية في الجزيرة، قرَّرت تنظيم رحلة استجمامية لطلبة العلوم، بغرض زيارة مزرعة نموذجية في "باتسي"، ويرغب مدير الثانوية منه أن يرافق الطلبة في رحلتهم، بحكم تخصُّصه في العلوم.

وأعجبته الفكرة، فوافق على مرافقة الطلبة، ورأى في الرحلة فرصة جيِّدة لتذكيرهم، على الطبيعة، بدروس سابقة عن بعض النباتات كان قد شرحها لهم بالاعتماد على الصور والرسوم

وحدها، لكن نفس مصطفى تكدَّرت، حين أخبره المُراقب أن منسِّق اللجان الثورية سيكون حاضرا في الرِّحلة، بسبب الانطباع السيء الذي تركه في نفسه حين جاء مع طلبته إلى بيته، بالإضافة إلى توقُّعه أن المنسِّق سيُفرغ الرحلة من محتواها الترفيهي والعلمي، ليجعل منها رحلة دعائية للإصلاح الزراعي الذي أمر الرئيس علي صواليح بتطبيقه.

كان قد حمل معه في صندوق بلاستيكي بعض القشريات التي احضرها له ميدو صباح أمس، لتكون موضوع درسه، ولذلك خرج من قاعة الأساتذة ليقصد المُختبر، وطلب من المُراقبين توجيه الطلبة إليه هناك، ووضع الصندوق البلاستيكي على اللوح الرُّخامي، ونزع عنه الغطاء، بغرض جلب انتباه الطلبة إلى محتواه، كما تعوَّد أن يفعل في كل مرة قبل الشروع في الدرس. وما إن دخلوا حتى بدأوا يتكأكأون حول الصندوق، ويُمْعِنون النظر في المخلوقات البحرية بعيون فُضولية مُنبهرة، وكأنهم يكتشفون مخلوقات خرافية عجيبة، دون ان يتجرأ أي واحد منهم على الاقتراب منها، أو لمسها، وقد ارتسمت على وجوههم علامات التقزُّز منها، مثلما ظهر عليهم ذلك يوم أن قام بتشريح الفأر.

لم يشأ أن يبدأ الدرس كما اعتاد، بالخوض في أنواع القشْريات، وذِكْر أسمائها المُتداولة، ومُسمَّياتها العلمية، ولا طلب

منهم ملاحظة أشكالها، أو تدقيق النظرِ في أجزائها، لأنهم لم يكونوا مستعدِّين بعدُ لذلك، وعِوَضًا عن هذا سألهم:

ـ أتدرون كم يُساوي كيلوغرام واحد من هذه القشريات في الأسواق الأوروبية؟

وتطلَّع في وجوههم بعض الوقت منتظرا الإجابة، وبطبيعة الحال، لم يُجبه أحد، لأنه لم تكن لديهم أية فكرة عن ثمنها في السوق المحلِّي، فما بالك بثمنها في الأسواق الأوروبية. ولم يتطوَّع من جهته بالإجابة، وطرح عليهم سؤالا آخر:

ـ وهل تدرون كم هي غنية المِيَّاهُ الإقليمية للجُزر بهذه القشريَّات؟

وظلوا صامتين، لا يُحِيرون جوابا، غير أن انتباههم كان مشدودا إليه بقوَّة، وهذا ما كان يبحث عنه، فاستأنف قائلا:

ـ لا أريد أن أملأ رؤسكم بالأرقام والبيانات، ولا بِكم يشتريها المُستهلك في الدول التي لا تملك هذه الثروة البحرية، ويكفي أن أقول: إن الكيلو الواحد منها في تلك الدول، يساوي أجرة عامل في اليوم هنا عندكم، كما لا أقول لكم كم هي غنية شواطئ أرخبيل القمر بهذه الثروة السمكية، ولكن أقول لكم: اسألوا الصيَّادين حين يعودون في المساء، كم ألقوا منها في

البحر بعد أن علِقتْ في شِباكهم.. فهل تدرون ما معنى هذا؟ معناه التفريط في ثروة بحرية هائلة، يمكن أن تعود على البلد بأموال مُعتبرة.

ـ لكن الناس عندنا يعافُون القشْريَّات يا فوندي، اعترض خالد..

ـ أعرف ذلك، وأعرف أن الصيادين يتخلصون منها حين تعْلق في شباكهم، ويرمونها مُجدَّدا في البحر، أو يبيعونها للأجانب، ولكن السؤال الذي أطرحه عليكم هنا، هو لماذا لا يأكلها الناس عندكم؟

وتطوَّع أكثر من واحد وواحدة بالإجابة:

ـ ... لأنها تأكل جُثث الموتى.

وعلَّق في شيء من السخرية:

ـ أفهم من هذا أنكم تصدِّقون كل ما يقال، دون نقاش، ولا تسألون أنفسكم إن كان قولا صحيحا أو غلطا.

ـ كل الناس يعتقدون ذلك، قال أبوبَكَر!

ـ وهل كل ما يعتقده الناس صحيح؟

ـ ما دام كل الناس يعتقدون ذلك، فهذا دليل على صحته.

ـ وهل نقيس صحة الشيء بكثرة المعتقدين به؟! لن أناقشك في صحة ما يعتقده الناس، ولكنني أطرح عليك السؤال التالي: هل تدفنون الموتى عندكم في المقابر أم تُلقون بهم في البحر؟!

وتبادلوا النظرات فيما بينهم من السؤال الغريب، ورد أبو بكر:

ـ نحن ندفن الموتى، بطبيعة الحال، في المقابر.

ـ إذن، لنحكم عقلنا، ونسأل أنفسنا: كيف تصل القشريات من أعماق البحر إلى قبورهم لتأكل لحومهم؟!

وبقدر ما أفْحَمهم السؤال، بقدر ما بدا لهم أغرب من سؤاله الأول، فظلوا صامتين. واستغل صمتهم ليشرح لهم ما أراد أن يصل إليه:

ـ قال أحد الفلاسفة: "في خلاف على مسألة ما، قد يدرك شخص واحد الحقيقة، ويكون على صواب، ويكون ملايين الناس على خطأ"، وحقيقة القشريات أنها لا تأكل اللحم البشري، وإنما تتغذّى، كما يقول علماء البحار، على الطحالب، واليرَقانات، وبيض السمك، والأحياء البحرية الصغيرة. لهذا كنت أقول لكم وأكرِّر دائما: استعملوا عقولكم في كل شيء، وفكِّروا فيما يعرِض

لكم أو يُقال، سواء في حياتكم الخاصة، أو في الحياة العامة، ويبدو أن لا أحد منكم استفاد من نصيحتي. لكن، سأتجاوز هذا الأمر لأسألكم سؤالا آخر: تصوَّروا معي لو أن هذه الثروة البحرية تُصَدَّر إلى الخارج، كم من الملايين ستدُرُّ سنويا على البلد؟ وكم من الأُسَر ستعيش من صيْدها؟ لا تجيبوني الآن، فكِّروا في الموضوع، وسنناقشه في وقت آخر.. والآن، هيا بنا لنفحص العيِّنتين اللتين أحضرتهما معي من القشريات.

وأخرج من الصندوق جرادة كبيرة من جراد البحر، ووضعها على الطاولة الرخامية، وكانت تتحرَّك، وتوجِّه مَجسَّاتها الطويلة في كل الاتجاهات، فتراجعت الطالبات إلى الخلف.

ـ لا تَخَفْن، فهي لا تأكل لحم البشر الأحياء ولا الأموات.

وقبل أن يشرع في الشرح، طلب منهم أن يخرجوا دفاترهم وأقلامهم، ويسجلو خصائص العيِّنة، ثم أخذ يوضِّح: لاحظوا معي أن الجرادة تتكوَّن من جزئين كبيرين، البطن والرأس، ولمس جزئي الجرادة بالمسطرة المعْدَنية، ثم أضاف:

ــ يتكون الغلاف الهيكلي للجرادة من دُروع صغيرة، وجسمها مُغطَّى بالكامل بطبقة شديدة الصلابة من كرْبونات الكالسيوم، تحمي جسمها، وتشكِّل في الوقت نفسه هيكلها

العظمي، لأنه لا يوجد لها هيكل عظمي داخلي مثل الأسماك.. يحتوي الرأس، كما ترون، على الفم، وزوجين من المِجسَّات الطويلة، أو الهوائيات التي تتحسَّس بها الأشياء من حولها، وترصد بها الغِذاء والأعداء على السواء، يليها خمسة أزواج من الأرجل، هي هذه التي ترونها، وتنتهي الأولى منها بمخلبين قويَّين، كما نشاهد، تنتزع بهما الطعام وتمزِّقه، وتدافع بهما عن نفسها إذا هاجمها عدوٌّ ما.. أما البطن فنلاحظ أن به ستة أطراف، تستعملها الجرادة في التنقُّل، تُفضي إلى زِعنفة الذَّيل التي تساعدها على التوجُّه يمينا أو يسارا، أو الدوران إلى الخلف.. والآن، نحاول أن نكتشف جسم الجرادة من الداخل.

وأخرج مِن الصندوق سكينا كبيرا، بنصْل مِنشاري، ورأسٍ حاد. وهنا تراجعت الفتيات مرة أخرى إلى الخلف، وقام بقطع مِجسَّات الجرادة، فتأوَّهن من الألم، ولكنه لم يُعر اهتماما لتوجُّعهن، ومضى في عمله، فقلب الجرادة على ظهرها، وغرَز نصل السكين في وسطها، وراح يقطِّع البطن إلى حد الزعنفة، ثم قطَّع الصَّدر والرأس، وتناولها بين يديه، ليَفْلِقها بسهولة إلى نصفين.

وظهرت أحشاء الجرادة في جزء صغير من بطنها، وظهر الجزء الأكبر منها لحما أبيض، طريًّا، ومُتماسكا. وزاد فانتزع الغلاف الخارجي، القاسي، وقال مازحا:

ـ انظروا جيدا إلى الأحشاء، هل ترون فيها أثرًا من بقايا ميِّت!

وضحكوا للنكتة، في الوقت الذي انصرف فيه الأستاذ إلى إخراج العيِّنة الثانية، وهي سرطان بحري من الحجم الكبير، وراح يشرح لهم، ويقطِّع أجزاءه بالكيفية نفسها. لكن الفتيات تأثَّرن مرة أخرى عندما انتزع كُلَّابَتَيْه بعنف، إلا أنه لم يهتم ولم يُعلق، وواصل انتزاع أرجل السرطان، ثم قطَّعه إلى نصفين.

وحين انتهى، ونظر في الساعة، وجد أنه ما زال من وقت الدرس حوالي عشر دقائق، فسألهم، كالعادة، إن كانت لديهم أسئلة. وعندما لم يسألوا، أخذ يجمع أجزاء العيِّنتين المُشرَّحَتين، ويعيدها إلى الصندوق البلاستيكي، فوجدت نعيمة في ذلك فرصة لتسأله إن كانت الإدارة قد أخبرته بالرحلة التي ينوي الطلبة القيام بها إلى "باتسي"، فسألها بدوره في غير اهتمام: وما يعنيني أنا؟

وتفاجأت بردِّه الذي فهمت منه أنه يرفض المشاركة في الرحلة، فسكتت، فأنجدها أبوبكر حين قال:

ـ ستكون الرِّحلة جميلة، يا فوندي، وسنكون مسرورين بحضورك.

ـ بلى، سنكون مسرورين بوجودك معنا، أكَّدت عليه نعيمة.

ـ إن كانت هذه رغبتكم، فسأفكر في الأمر.

وسمِع في هذه الأثناء جرس الاستراحة يرن، فتناول صندوق العيِّنات، وقصد قاعة الأساتذة.

عندما انتهى من عمله في منتصف النهار، آثر أن يعود إلى بيته مشيا على القدمين، على الرغم من الطريق الصاعد نحو هومبو، والحراة الشديدة التي بلغت ذروتها في هذه الساعة، وكان غرضه من الصعود ماشيا، أن يُليِّن عضلات ساقيه وفخِذيْه، التي ظلَّت تؤلِمُه منذ الصَّباح.

في المنعطف الثالث رأى من بعيد دكان أحمد بحر الصفا مفتوحا، وعندما وصل إليه وجد أحمد مُنهمكا في تحميل بضاعته داخل شاحنة نقل صغيرة، بمساعدة صاحب الشاحنة، فرحَّب به كالعادة، وقدَّم له مقعدا ليجلس عليه، ولكنه اعتذر له عن تقديم الزنجبيل الذي تعوَّد على شُربه عنده، وأخبره أنه أغلق الدكان في الأيام الماضية بسبب وفاة عمِّه، فعزَّاه في موته، ودعا له بالرحمة، ثم سأله:

ـ ومالي أراك تنقل البضاعة إلى الشاحنة؟

ـ لأنني بِعتُ الدُّكان والبضاعة.. وعزمتُ على السفر إلى مُومباسا، للعمل هناك.

ـ وهل لك معارف في كينيا؟

ـ فيها جالية قمريَّة كبيرة.

ـ وماذا ستعمل هناك؟

ـ أنوي العمل في السياحة، لأنها مُزدهرة عندهم.

ـ لكنك، حسب علمي، لم تعمل في ميدان السياحة من قبل.

ـ هذا صحيح، ولكن معرفتي باللغة الإنكليزية والسواحلية والعربية تؤهلني لهذا العمل.

ـ تعني أن كينيا تستقبل سواحا عربا أيضا؟

ـ ...كثيرا، وخاصة من بلدان الخليج.

وهبَّ واقفا ليواصل طريقه، وتمنَّى لأحمد النجاح في مسعاه، وودَّعه قائلا:

ـ أرجو أن لا تنقطع عنا أخبارك.

ـ سأكتب لك حينما أجد عملا وأستقر.. هذا وعد منِّي.

عندما بلغ بيته فوجئ بجُمان جالسة في ظل شجرة الأفوكا في فناء بيته، وقد وضَعتْ حملها من الموز وساطورها على الأرض، وكان عبدو قد سقاها ماء، وعاد إلى الداخل لإعداد مائدة الغداء،

فاستقبلته جُمان بابتسامتها المعهودة، دون أن تغيِّر من جلستها، ماعدا يدها التي امتدت تلقائيا لِتَلُفَّ شيرومانها على رقبتها، وتغطِّي به صدرها، فحيَّاها مُبتسما، ونادى على عبدو، فخرج مُلبِّيا لنداء مُستخدِمه، فسأله في الأول إن كان قد أحسن استقبالها، ثم طلب منه أن يشتري منها بعض الموز ليقلِيَه له مثل المرة الماضية. فقامت جُمان وقطعتْ الكمية التي حدَّدها عبدو لها، ودخل إلى المطبخ وعاد إليها بورقة نقدية من فئة خمسة فرنكات، فتردَّدت في أخذها، ودار بينها وبين عبدو كلاما، فهم منه أنها لا تمتلك الصَّرف الذي تردُّه إليه، فتدخَّل ليقول لعبدو:

ـ قل لها لا داعي لأن ترد لك الصَّرف.

ـ ولكنها طلبت مني أن أدفع لها في المرة القادمة

ـ لا، أعطِها الورقة النقدية، وقل لها: الباقي حق الخِدمة.

وترجم لها عبدو ما قاله مصطفى، ولكنها لم تفهم معنى " حق الخِدمة"، ووضعت الورقة النقدية في جيب صدرها، ثم قالت كلاما ترجمه له عبدو: تقول إنها ستردُّ لي الباقي في المرة المقبلة.

عندما رآها تهمُّ برفع حمولتها لتواصل طريقها، أشار إليها بالانتظار، وطلب من عبدو أن يعرض عليها العمل معه، فيتكفَّل هو بالمطبخ وشراء حاجيات البيت من السوق، وتتكفَّل هي

بتنظيف الغُرف، وغسل الملابس وملاءات السرير، وترتاح بهذه الكيفية من عملها الشاق في احتطاب الموز من الجبل. فكانت كلما ترجم لها عبدو مقطعا مما قاله، تلفَّتت نحوه وابتسمت في رضَى وسعادة.

ولم يَفُتْها أن تسأل عن الثمن الذي سيدفعه لها، فقال لعبدو:

ـ اسألها أولًا، كم تكسب من بيع الموز في اليوم؟

ففكَّرت لحظة، ثم ردَّت بما ترجمه عبدو:

ـ تكسب ما بين خمسين إلى ستين فرنكا في اليوم.

فقام بعملية حسابية سريعة في ذهنه، ليقول لها:

ـ إذن، أنتِ تكسبين ما بين ألف وخمسمائة وألف وثمانمائة فرنك في الشهر، أليس كذلك؟

وأجابت بأنها لا تعرف، فعرَض عليها ألفين وأربعمائة فرنك في الشهر، ولكي يُسهِّل عليها الفهم، طلب من عبدو أن يقول لها: سأعطيك ثمانين فرنكا في اليوم، وترتاحين من العمل يوم الأحد.

وتهلَّل وجهُها عندما سمعت العرْض، وعلته ابتسامة مُشرقة، ثم اكتسى مسحة جادة، وقالت لعبدو:

ـ قل له سأَرُدُّ عليك بعد ما أستشير أمي.

وانحنَتْ على ساطورها وعلَّقته في خاصرتها، ثم رفعتْ حملها من الموز، وانطلقتْ.

ووقف مصطفى يتابع خطواتها وهي تنحدِر في طريقها نحو سوق المدينة، ولوَّح لها حين التفتت إليه، مثل ما فعل في المرة السابقة، ثم دَلف إلى داخل البيت، ليضع محفظته في على مائدة الصالون، وصندوق القشريات في المطبخ، واتجه إلى الحمَّام لينزع ملابسه، ويأخذ دُشًّا يُزيل به عرقه.

عندما خرج من الحمَّام، وارتدَى ملابس البيت، وعاد إلى الصالون، وجد عبدو قد قلَى الموز الأخضر، وأضافه إلى مائدة الغداء، فأذن له بالانصراف، وجلس يأكل، ويحرِّك مُؤشر محطَّات الراديو، بحثا عن أخبار الظهيرة، وكان باله مايزال مُنشغِلا بجُمان.

***

كان مقررا أن تكون جولة الطلبة إلى باتسي في نهاية الأسبوع، ولكن الأحوال الجوية المُترديَّة أجَّلتها إلى الأسبوع التالي، أو الذي يليه، حيث ضربت عاصفة مدارية كل المناطق القريبة من قناة موزمبيق، وبالأخص شمال مدغشقر، وضرب ذيل العاصفة الجزر القمرية برياح عاتية، قلَّعتْ الأشجار المُهترِئة الجذوع، وسقوف المنازل الهشَّة، وأعقبتها أمطار طوفانية لم تتوقف طوال ثلاثة أيام بلياليها، مما عطَّل الدِّراسة، وحجز الناس في بيوتهم.

في ليلة اليوم الثاني من ذلك الجو العاصف، وبينما كان يتهيأ للنوم، هُيِّء له أنه سمع دقًّا على الباب، وكانت الأمطار ما تزال تتهاطل بلا انقطاع، والرِّيح تُزمجِر في الخارج كالغِيلان، وتمنع سماع أي صوت غير عويلها، فتقدَّم خطوات نحو الباب، وأصاخ بأذنه، فتكرَّر الطرق، وحينئذ تأكَّد له أنه لم يكن واهما، ففتح الباب، فإذا به وجها لوجه مع أندريا، وكاد أن لا يتعرف عليها في الأول، لأنها كانت تلفُّ رأسها وكتفيها بشال لحمايتها من المطر، ولكن الشَّال لم ينفعها في شيء، إذْ ما كادت تخطو الخطوات القليلة التي تفصل سيارتها عن باب البيت، حتى صارت وكأنها قد ألقت بنفسها في لُجَّة، فأدخلها بسرعة، وأغلق الباب، وقادها مباشرة إلى الحمام، وقدَّم لها منشفة لتُجفِّف بها شعرها وبُرنسَ الحمَّام الخاص به، لتلتَفَّ فيه بعد أن تنزع ثيابها المُبلَّلة.

وعندما خرجت من الحمام، وقد لفَّت شعرها بالمنشفة، وجسدها بالبُرنس، أخذ يرحِّب بها، ولم يسألها عن سبب زيارتها المفاجئة في ذلك الجو العاصف، وفي تلك الساعة من الليل، ولكنه سرعان ما أدرك من توترها وارتباكها أنها خائفة، وأنها التجأت إليه لأنها تعيش بمفردها في فيلًّا كبيرة، فسألها مبتسما:

ـ هل أنت خائفة؟

فحرَّكت رأسها بالإيجاب، وأشاحت عنه بوجهها خجلا.

ـ من العاصفة؟

فحركت رأسها ثانية، دون أن تقول شيئا، ودون أن تنظر في عينيه. وكانت العاصفة على أشدها في الخارج، والريح تعوي كالذئاب الجائعة، وتغطّي على صوتيهما، فابتسم لها، وطمأنها بقوله:

ـ لا داعي للخوف.. هي عاصفة مدارية قوية، وستضعف قوّتها في هذه الليلة، كما سمعت في الأخبار..

وسألها:هل تعشّيتِ؟

ـ لا، لأنني مُرهقة، ولا رغبة لي في الأكل.

ـ إذن، تشربين شيئا يُدفئك..

وتردّدت لحظة قبل أن تطلب منه كأسا من الويسكي، ليساعدها، كما قالت، على النوم.

ـ لا.. الويسكي على معدة فارغة؟ لكن عندي ما هو أفضل.

وانصرف عنها إلى غرفة النوم، ثم عاد وهو يحمل زجاجة "كونياك" كان يحتفظ بها للطوارئ، وصب لها كوبا صغيرا، وقال:

ـ الكونياك أخف، ولا يضر المعدة الفارغة.

فتناولت الكأس وشربتها في جرعة واحدة، ثم طلبت كأسا أخرى، وابتلعت محتواها على دفعتين، وعندما طلبت الكأس الثالثة، قال لها ناصحا:

ـ عليكِ أن تأكلي شيئا قبل المزيد من الشَّراب.

ـ قلتُ لك لا أريد أكْلا، وكل ما أرغب فيه الآن، هو أن أنام، لأنني لم أنم ليلة أمس من شدة العاصفة.

ـ إذن، يكفيك الشُّرْب.

وتأمل وجهها، فلاحظ علامات الإرهاق بادية عليه، وذبولا في عينيها من قلة النوم، ومن أثر الكونياك الذي بدأ يفعل مفعوله معها، فقادها إلى سريره، وفتح لها طرفي النَّاموسيَّة، لكنه نبهها أنه من غير الممكن أن تنام ببُرنس الحمام، وسارع إلى فتح خزانة ملابسه، وقال لها مُبتسِما ومُعتذِرا:

ـ ليس لدي لباس حَرِيمي أقدِّمه لك.. اختاري من ملابسي هذه ما يناسبك للنوم..

وأضاف وهو يتهيأ للعودة إلى الصالون:

ـ يمكنك استعمال المِروحة الكهربائية إذا شعرتِ بالحرارة.. تُصبحين على خير.

ـ وأنت، أين ستنام؟

ـ لا تُشغلِي بالك بي.. أنا سأنام في الصالون.

وتركها وانصرف. ولم تمُر إلا دقائق معدودة حتى عادت، ووقفت أمامه وقد لبست قميصا قطنيا أبيض من قُمصانه، وتُبَّانَه

الأزرق الذي اعتاد على ارتدائه للسباحة في البحر، وكان مقاسهما أكبر من مقاس جسمها، فبدتْ له فيهما كمُهرِّجة سِيرك، فانفلتتْ منه ضحكة لم يستطع كبْحها، فتأملت لباسها، وضحكت هي الأخرى من منظرها، ولكن ضحكها لم يُخفِ ما كانت عليه من التوتر والارتباك، فاعتذر لها:

ـ سامحيني، أنا لم أضحك منكِ أنت، أنا ضحكتُ من لبساسك.

ـ لا مشكلة، قالت وهي تبتسم.. اضحك كما تشاء.. ليلة وتَمُر.. لكنني أصارحك أنني خائفة..

ـ خائفة؟! ممَّا؟.. والأبواب والنوافذ مغلقة، والدنيا أمان.

ـ الريح تُخيفني..

وفكر لحظة ثم تذكر شيئا، فطلب منها أن تنتظر قليلا، واتجه إلى خزانة روّاق البيت، لينزل منها حقيبة سفره، ويفتحها، ليقدم لها سدَّادتي أذُن مطَّاطية، كان قد اشتراهما لحماية أذنيه من الضغط في الطائرة، ولكنه لم يستعملهما، وظلا في غلافهما الأصلي، وقال لها:

ـ ضعيهما في أذنيك، وسوف لن تسمعي الريح ولا المطر..

وجرَّبَت السدَّادتين، وأظهرت إعجابها بفعاليَّتهما. وظنَّ حينئذ أنها ستعود إلى غرفة النَّوم، ولكنها ظلَّت واقفة، فسألها:

ـ هل تحتاجين إلى شيء آخر؟

ـ لا.. ولكنّي مازلتُ خائفة..

ـ تخافين مِمَّا؟

ولم تُجبه، وبقيتْ واقفة تتطلع إليه، ثم جمعت شجاعتها لتقول له:

ـ أريدك أن تنام معي في الغرفة حتى أشعر بالاطمئنان.

وتطلَّع بدوره في وجهها، متفاجئا بطلبها، وقد ارتسم الشك في عينيه، وقفزت إلى ذهنه فكرة أن ادعاءها الخوف من العاصفة لم يكن إلا ذريعة لشيء آخر. وسألها:

ـ وأين سأنام؟!

ـ على سريرك.

ـ وأنتِ؟!

ـ على السرير أيضا، ألا يتَّسع لي ولك؟!

وظل مبهوتا، لا يدري ما يقول، وسألها مرة أخرى:

ـ أندريا، هل هذه رغبتك حقًّا؟!

ولم تجبه شفَويًّا، وحرَّكت رأسها بالإيجاب، مع ابتسامة مُرتبكة ونظرة رجاء، فقصد معها غرفة النوم، وقزت كالقطة

الرشيقة، وانكمشت على جهة من السرير، وحينما ظل واقفا، دعته بإشارة من يدها. وتقدم بخطوات ثقيلة، وتمدَّد على ظهره إلى جانبها، وقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه، وبمنتهى البساطة، أمسكت بذراعة، والتصقت بشقه الأيسر، وبالبساطة نفسها همستْ في أذُنه:

ـ ليلة سعيدة..

وعلى الرغم من اشتداد نبضه، وتيقظ غرائزه، وقوة التحدي الذي واجهه حين بدأ يحس بحرارة جسمها اللَّدِن تنتقل إلى جسمه، فقد بقي على وضعه، جامدا بلا حراك. ولم يكن تحكُّمه في نفسه بدافع التمسك بالفضيلة، لأنه لم يعُد يفكر في تلك اللحظة إلا في الجسد الأنثوي المغري الذي يلتصق بجسده، ويتحداه في رجولته، ولكن شهامته أبت عليه أن يكون نَذْلًا معها، بعد أن استغاثت به، ولجأت إليه، حتى وإن داخله الشك في ادعائها الخوف من العاصفة. والغريب في الأمر أنه لم تمر عليها إلا دقائق معدودة حتى هدأت حركتها، وانتظم نفسها، واستغرقت في النوم، ودلَّ على استغراقها شخير خفيف أخذ يصدر عنها.

ومدَّ يده بحذر شديد، حتى لا يوقظها، وأطفأ النور. وحاول أن ينام هو الآخر، ولكن بدا له ذلك أمرا مستحيلا، إذ كيف ينام وقد

أمسكت الفتنة بخناقه، والتفت ساقها بساقه، وأيقظت كل خليَّة في جسده، وجعلت كل أعصَابه مشدودة كوَتر القوس؟! كيف ينام والجسد الأنثوي يُغريه باغتنام اللحظة السَّانحة، وقضْم التفاحة التي سقطت من تلقاء ذاتها لتستقر على سريره، وتقول له في صراخ صامت "هِيتَ لَك"؟! كيف له أن يكبح جِماح نفسه، وليس هو بيوسف، وليست هي بأقل إغراء من زُليخا ومن فتنتها.

ولم يدْرِ كم مضى عليه من ساعات الليل وهو على تلك الحال، معذَّب النفس، ملتهب الجسد، وقوْسُه مشدود، ونُشَّابُه في أعلى درجات الاحتقان، إلى أن قهره النوم في الأخير، فنام علىَ أحر من الجمر.

***

في اليوم التالي، التحق بعمله في الثانوية وهو يعاني من إرهاق شديد، وصداع حاد، وكان مِزاجُه مُعكَّرا، وعيناه مُنتَفختين من قلة النوم، وانعكس كل هذا على دروسه التي أدَّاها على مضض، وعلى غير ما اعتاد عليه من الحيويَّة والنشاط، وبدت له ساعات التدريس طويلة جدا، حتى إنه فكَّر في الاعتذار للإدارة عن الاستمرار في العمل، بدعوَى المرض، ولكنه عدل عن فكرته من أجل مصلحة الطلبة، وألزم نفسه بإكمال عمله حتى منتصف النهار. وعندما دق جرس انتهاء الدروس، أوقف أول تاكسي صادفه

أمام باب الثانوية ليوصله إلى البيت، لاسيما أن الأمطار مازالت تهطُل، وما إن وصل حتى أخذ حمَّاما سريعا، وتناول حبة أسبرين، ونام دون أن يمس غداءه الذي كان خادمه عبدو قد رتَّبه له على طاولة الصالون.

عندما استيقظ عصرا، أحس أنه استعاد قوَّته، وزايله الصُّداع، فأقبل على غَدائه بشهية، وحين انتهى، ألقى نظرة عبر النافذة إلى الخارج، مستطلعا حالة الجو، فبدت له السماء مُكفهِرة الوجه، على الرغم منَ أن المطر كان قد توقَّف، وقوة الريح تراجعت، وشرع بعدها في مراجعة دروس اليوم التالي، مثلما اعتاد على ذلك كل يوم بعد نوم القيلولة. وأثناء ما كان مستغرقا في مراجعة أوراقه ودفاتره، سمع محرك سيارة يقترب، ثم يتوقَّف في باحة البيت، عند شجرة الأفوكا، وفوجئ حينما فتح الباب بأندريًا تنزل من سيارتها، وقد حملت في يدها حقيبة سفر صغيرة، فخمَّن مباشرة أنها جاءت لتبيت عنده مثل الأمس، وأنها حملت معها في هذه المرة لباس النوم، وكانت تلبس قميصا أبيض، يُبرِز صدرها في تحدٍّ صارخ، مقصَّبا بخطوط فضية، ومُوشَّى بتواشي مخرَّمة عند الصدر والكُمَّين، وعلَّقت في رقبتها سلسلة فضية رقيقة، يتدلى في نهايتها صليب، مما أضفَى عليها، مع القميص، أناقة وجاذبية، وجمعت وسطها الأسفل في بنطلون "جينز" ضيِّق، لا يكاد يُغطي سُرَّتها، ويرسم شكل

فخذيها ورجليها بكل دقة، ويزيدها رشاقة، فرحَّب بها، وأدخلها، ثم أخذ يجمع أوراقه ودفاتره التي كانت مُفرَّقة على الطاولة، ليضعها في محفظته، فانتبهت إلى حركته وقالت له في شِبْه اعتذار:

ـ أتمنَّى أن لا أكون قد صرفتك عن عملك..

ـ أبدا، ألقيْتُ نظرة على دروس الغد، وانتهيت.. ماذا تريدين أن تشربي؟

ـ كونياك، كالأمس.. أعجبني كثيرا..

ـ صحيح، هو خفيف على المعدة، وتأثيره لطيف على الرأس.

وأخرج زجاجة الأمس ذاتها من الخزانة، وصبَّ لها كأسا صغيرة، ثم تناول كأسه ليقرعه بكأسها قائلا:

ـ بصحتك..

وأفرغ كأسه في بطنه دفعة واحدة، فأحس بالانتعاش، وأثناء ذلك كانت أسئلة كثيرة تنثال على ذهنه في شكل ومضات سريعة: ترى لماذا رجعَتِ اليوم؟ ألم ينقطع المطر؟ ألم تهدأ العاصفة؟ أم جاءت لتُشعِل حرائقِي وتعذِّبني كالأمس؟

وحاول أن يصرف عنه ما كان يدور في ذهنه من الأسئلة ليقول لها:

ـ اليوم ستشاركيني العشاء، بالتَّأكيد.

ـ لا تشغل بالك.. من عادتي أن لا أتناول في المساء إلا السلطة وبعض الفاكهة.

ـ عندي كل ما ترغبين فيه.

وقام في الحين، فأخرج من الثلاجة طبقا كبيرا من الفاكهة، مُشكّلا من قطع صغيرة من ثمار المانجو، والباباي، والأناناس، ووضعه أمامها على الطاولة، ثم أتى بمناديل ورقية، ووضع عليها شوكتين، وسكينين، وقال:

ـ تفضلي، إنها باردة ولذيذة جدا.

وانبهرت بمنظر الطبق، وأبدت إعجابها بطريقة تصفيف الفاكهة فيه، وسألته:

ـ كيف تجد الوقت لكل هذا؟

ـ لا فضل لي فيه.. هذا من عمل عبدو.

ـ إنه فنان، ويبد أنه يخدمك بإخلاص!

ـ هو كذلك.. ولكنني أدفع له مقابل ذلك..

وأتبع قوله بضحكة خفيفةٍ، ولم تعلق هي بشيء. وتناول الشوكة وحمل قطعة أناناس إلى فمه وقال:

ـ ما في الطبق وُضِع للأكل، لا للتفرُّج عليه..

ـ إنه حقا يفتح الشهية.

وتناولت الشوكة، وراحت تأكل وتتلذذ بطعم الفواكه الباردة. وأثناء ذلك صبَّ لها كأسا أخرى من الكونياك، فأخذتها، وأفرغت محتواها في جوْفها دفعة واحدة، مثلما رأته يفعل، ثم ضغطت بكفِّها على رقبتها، وقد انقطع نفَسُها، بعد ما أحسَّتْ بحرارة الشراب تحرق حلقها، وقالت بصوت مُتقطِّع وهي تكُحُّ:

ـ هذا نار.. نار..

ـ كل ما هنالك أنكِ غير متعوِّدة عليه.. أتدرين؟ إنه شراب الملوك والقادة الكبار.. كان شرابَ نابليون المُفضَّل..

وبدا عليها أنها لا تعرف من يكون نابليون، فتجاهل الأمر، ولم يشأ أن يشرح لها، ويكون بذلك أستاذا في الثانوية وفي البيت. ولاحظ التماع عينيها من أثر الشراب الذي بدأ يفعل مفعوله معها، ولذلك قام إلى البرَّاد مرة أخرى، وأحضر صحن سلطة مكوَّن من الأرز، وحبوب الذُّرة، مخلوطا بالقريدس النَّهري المسلوق، لأن عبدو لم يجد سمكا آخر في السوق، بعد أن منعت الأحوال الجوية السيئة الصيَّادين من المغامرة في البحر، وقال لها:

ـ كلي من هذه السلطة ولو قليلا، حتى لا تتأثر معدتك بالشراب..

وما إن نظرت في الصحن، ورأت قُميْرات القريدس في الأرز حتى أبعدته عنها بتقزُّز، واكتشف حينئذ أنها مثل القمَريِّين، لا تأكل قشريَّات البحر أو النهر، فأعاد الصحن إلى البرَّاد، وأتى لها بجبن الكمامبير والخبز، ولكن منظر القريدس كان قد أفقدها شهية الأكل، فردَّته أيضا، واكتفت بأكل الفاكهة وحدها.

وتذكَّر في هذه الأثناء نشرة الأخبار بالفرنسية في إذاعة تناناريف، فمدَّ يده إلى جهاز الراديو وأشعله، وراحا يتابعان معا أخبار المساء، وكانت حافلة بالأحداث، بسبب ما خلَّفته العاصفة من آثار مُدمِّرة في كامل الساحل الشمالي الشرقي لجزيرة مدغشقر، وبالأخص في مدينة طاماسينا وما جاورها من القرى والأرياف، ولكن الشيء الذي جاء مُطمئنا في الأخبار، هو إعلان مصالح الأرصاد الجوية عن تراجع قوة العاصفة، وتلاشيها خلال الليل أو في صبيحة اليوم التالي.

وما إن انتهت نشرة الأخبار حتى هبَّت واقفة، وحملت حقيبتها الصغيرة، واستأذنته في أخذ حمَّام سريع، والتخلص من سروال الجينز الذي كانت تلبسه، فقال لها:

ـ تصرَّفي كأنك في بيتك، أنت تعرفين طريق الحمَّام، وستجدين فيه كل ما يلزمك من شامبو ومناشف.

وأثناء خلوه بنفسه، انثالت الأسئلة على ذهنه من جديد، وقال محدثا نفسه: "في الليلة الفائتة جاءتني مُستنجدة، خائفة، مهيضة الجناح، كدجاجة حاصرتها الثعالب، وما إنْ أحسَّت بالأمان والدفء حتى غاصت في سُبات عميق، وتركتني أتلظَّى على جَمْر الرَّغبة وفوْرَة الغُلْمة، أما اليوم فأرى حالها مختلفا تماما، والظاهر أنها ما جاءت اليوم إلا لتقرع كاسات اللذة، وتطفئ لهيب الجسد، وتثأر لما فاتها بالأمس. وعلى أية حال، فأنا لستُ بأقل منها ظمأ، ولا أقل استعدادا لأخذ الثأر ممَّا كابدتُه ليلة أمس من عذابات الجسد، وآلام الحرمان".

وأخذت من الوقت في الحمام أكثر مما توقَّع، ولم يدرك السر إلا بعد أن خرجت، وقد لبست قميص نوم شفاف يظهر من مفاتنها أكثر مما يستر، وسرَّحت شعرها بعناية، وشدته إلى الوراء، وزيَّنته بأزهار الياسمين، وتضوَّعت منها رائحة عطر قوية، انتشرت في أرجاء المكان كله، عرف فيها رائحة عطر "شانيل 5" الباريسية، التي أهداها إياها حين زارها أول مرة في مكتبها، فألهبت جسده، وأشعلت حرائقه في ومضة عين، ولم يتمالك نفسه وضمَّها إليه، وقبَّل شعرها، وتشمَّمَه في هُيَام، ثم لثَمَ شفتيها، وانتقل إلى عنقها،

فاستسلمت له في إذعان كامل، فقبَّلها قبلة طويلة، حارة، وقادها من يدها إلى السرير مباشرة، ودخلا في حالة اندماج جسدي كلي، فُتحت فيه الحدود، وزالت عنه الموانع والقيود، وباتا يكرعان كؤوس اللذة، وينتشيان بخمرة الحب.

***

7

راقِصةٌ من زنْجِبار

من غريب المُصادفات أن تكون نعيمة في تلك اللحظة من الصباح واقفة عند باب الثانوية، حيث رأت أستاذها مصطفى وهو ينزل من سيارة أندريا، وتأكدت أن سائقة السيارة هي تلك الموظَّفة الملغاشية في "شركة المنشآت الهندسية"، وهي نفسها التي رقصت معه في "عش الغراب" ليلة زواج صونيا. وقد فتحت هذه المُصادفة عينيها على دلالات ومعاني عديدة، منها أن قدومهما معًا في الساعة السابعة صباحا، يعني أنهما أمضيا الليل معا، ومنها أنها تأكدت من صحَّة ما نقلته صونيا عن حضورهما معا السهرة الخاصة التي أقامها الدكتور أبوبكَر وزوجته في بيتهما، وانصرافهما معا، ومن هنا أدركت سِر تجاهله لنظراتها، وإيحاءاتها إليه عبر الحركات والإشارات، حتى إن ذلك أحزنها وأفقدها الثقة بنفسها، وأكثر من هذا أنه لم يعد يُوجِّه إليها الأسئلة أثناء الدرس، كما كان يفعل من قبل، وصار يتفادى أن يلتقي نظره بنظرها.

صُدمت صدمة شديدة في مشاعرها، وأحسَّت في تلك اللحظة بحقد شديد على الملغاشية، التي اختطفت منها أستاذها وحبيبها

الذي اختاره قلبها، وأصبح طيفُه يداعب خيالها نهارا، وأحلامها في الليل، وازدادت نيرانها تأججا نحوه يوم أن رقصت معه في عرس صونيا، وعبَّرت له عن تعلقها به، حين تجرأت واختطفت منه قبلة على الشفتين، وبقيت منذ تلك الليلة تنتظر على نار تجَاوُبه معها، بلا جدوى.

وطفرت دمعتان من عينيها، وأحسَّت بالهزيمة تتسرب إلى أعماق نفسها، لكنها تداركت حالها بسرعة، وصمَّمت أن لا تستسلم، وأن تستعمل كل وسيلة في محاربة الملغاشية الدَّخيلة، وتستعيد منها حبيبها.

وانتبه مصطفى إلى صمت نعيمة وشرودها أثناء الدرس، وحزنها المرتسم على مُحياها بشكل واضح، وكان قد انتبه إلى وقوفها عند باب الثانوية حينما نزل من سيارة أندريا، ولم يفُته تظاهُرها بالنظر في اتجاه آخر، حتى توهمه أنها لم تره. وعلى الرغم من إشفاقه عليها، فقد أحس بالارتياح مما حدث، عساها أن تيْأس منه، ويتبدَّد وهْمُها في إمكانية حبِّه لها.

عندما انتهى الدرس، والتفَّ الطلبة حول الأستاذ، ليعرفوا قراره بشأن رحلة "باتسي"، لم تبرح نعيمة مكانها، وظلَّت تُراقب المشهد من بعيد، وعندما سألتها زميلتها مارياما كوجا: مالك؟، أجابتها أنها تعاني من صداع حاد.

وانتزع الطلبة في الأخير موافقة أستاذهم على مرافقتهم في الرحلة، فانفضوا من حوله إلى الفُسحة مغتبطين.

في طريق عودته إلى البيت، وجد دكان أحمد مُغلقا كما توقَّع، وتأسَّف على شراب الزنجبيل الذي تعوَّد على تناوله عنده، وتمنَّى لأحمد من صميم قلبه أن يُوفَّق في هجرته. وتداعت به الذاكرة، فخطرت جُمان بباله، وتساءل مع نفسه وهو يواصل الصعود إلى هامبو، إن كانت أمُّها قد وافقت أم اعترضت على عملها في بيته، وقد قد بدأ يميل إلى الفرضية الثانية بعد أن استبطأ عودتها إليه بقرارها الأخير، حتى وإن وجد لها عذرا في رداءة الأحوال الجويَّة التي منعت الناس من التنقل، وشلَّت نشاطاتهم بالكامل.

وفوجئ عند اقترابه من بيته بجُمان جالسة في الفناء، ولكن، بلا حمولة موز في هذه المرة، وبلا ساطور في خاصرتها، فأدرك أنها كانت في انتظار رجوعه من العمل، فتفاءل خيرا بوجودها. وقابلته بابتسامتها التي ظلت تسحره بها كلما قابلها. وبادرته بالتحية:

ـ كُوزْ مْوِينِي، فوندي

ورد على تحيتها في ابتهاج:

ـ كوزْ بْوِينِي، جُمان

ونادى على عبدو ليترجم بينهما، فأفهمه أن أمها وافقت على عملها عنده، وأنها تسأل متى تبدأ؟

ـ غدا صباحا، إذا شاءتِ.

واكتفت جمان بهذا الرد منه، وهمَّت بالانصراف، فأوقفها، وقال لعبدو:

ـ اسألها، ألا تريد أن تعرف كم أدفع لها مقابل عملها؟

وكان ردُّها بابتسامة عريضة، ولم تقل شيئا، وتحرَّكت مُنصرفة، فأوقفها ثانية:

ـ انتظري

ودخل البيت، ثم عاد ومد يده لها بمبلغ ألف فرنك إفريقي، وقال موجها كلامه لعبدو:

ـ قل لها، هذا تسبيق على عملها حتى آخر الشهر.

وحينما رآها متردِّدة في أخذ المبلغ، طلب من عبدو أن يشرح لها أنه تسبيق، وليس أجرتها الشهرية. فاستلمت المبلغ في النهاية، وقد ازدادت ابتسامتها إشراقا، وشعَّ السرور في عينيها، ثم انطلقت.

***

مع المساء، جاءته أندريًا، ونادت عليه باستعمال مُنبِّه سيارتها ثلاث مرَّات متتالية، دون أن تبْرح سيارتها، فخرج إليها ليجدها صحبة السيد جورج، فقالت له. بعد أن تبادل ثلاثتُهم التَّحية:

ـ السيد جورج يدعونا إلى العشاء معه في "عش الغراب".. نحن في انتظارك لتلبس ملابس الخروج.

ـ لكن، لا يصحُّ أن تصلا إلى باب بيتي، للمرة الثانية، ولا تنزلا لتشربا شيْئا عندي.

ونزلا عند رغبته، وفي الصالون، قدَّم لهما عصير المانجو الطبيعي المُثلج. وأثناء ذلك ألقى السيد جورج نظرة على جوانب البيت، وقال في ابتسامة لها دلالة خاصة:

ـ بيت جميل، ومرتَّب أحسن ترتيب، ولكنه واسع جدا على شخص واحد!

وفهم مصطفى ما لَّمح إليه، وهو أنه يعيش وحيدا بلا امرأة، فرد عليه بابتسام هو الآخر:

ـ وما تقول إذن عن أندريا التي تعيش وحدها في فيلًا كبيرة؟

فاندهشت أندريا، ونظرتْ إليه نظرة عتاب، ولكنها لم تقل شيئا، وتولَّى المهندس التعليق بدلا عنها:

ـ شخصيا، لست مرتاحا لرؤيتها تعيش وحيدة في تلك الفيلَّا، وأتمنَّى أن يتبدَّل حالها في الأيام المُقبِلة.

ولم يَفُت مصطفى تلميحه في هذه المرة إلى علاقته بأندريا، وخطر بباله أن أندريا تكون قد أخبرته بالعلاقة التي نشأت بينهما مؤخرا، خاصة أنها كانت تضع ثقتها الكاملة فيه، وتُكِن له الاحترام والتقدير، وتنظر إليه كأبٍ لها تنتصِح بنصائحه، وربما يكون قد شجَّعها على المضي قُدُما في هذه العلاقة. وساد الصمت بينهم لحظات، قطعه المهندس قائلا:

ـ لاحظتُ أيضا أن صالونك خالٍ من أية صُور، أليس لك أناس تحبهم؟

ـ بالطَّبع، فكل واحد منا له أُسْرة وأصدقاء يُحبُّهم ويحبونه، لكنني شخصيا لا أضع صُوَرهم أمامي، حتى لا يشُدَّني الحنين إليهم، وهم بعيدون عني بآلاف الكيلومترات.

ـ لكلٍّ منا فلسفته في الحياة، فأنا أضع صُور زوجتي وأولادي في مكتبي، وأحمل بعضها في محفظتي حين أسافر.

ـ أعتبرك بهذا أبًا مثاليًّا، وسأتَّخِذك قُدوة لي في المستقبل، عندما تكون لي زوجة وأولاد.

ونظر السيد جورج في ساعته ثم قال:

ـ يجب أن نذهب الآن، ألسْتُما جائِعيْن؟

فأسرع مصطفى إلى غرفة نومه، ولبس ثياب الخروج، وركبوا السيارة، وانطلقوا إلى "عش الغراب".

حين وصلوا إلى الملْهَى، وجدوا أغلب الطاولات محجوزة من قِبَل زبائن آخرين، على غير العادة في مثل هذا اليوم، وفي مثل هذه الساعة، وخاصة تلك الطاولات المُشرفة على البحر، مما اضطرَّهم إلى الجلوس في مكان لم يكن مثاليا بالنسبة إليهم. وعندما جاءهمَ النادل ليأخذ طلباتهم، سأله مصطفى عن سبب كثرة زبائن الملهَى في ذلك اليوم، فأعلمهم أن السبب هو قدوم راقصة جديدة..

ـ مع أن الراقصات الجديدات لا يجِدْن في العادة مثل هذا الإقبال؟!

ـ هذه تختلف عن الأخريات، يا سيدي، إنها "أنزيزا". لقد جاءت من زنجبار، ورقصُها يُطيِّر العقل.

وعندما انصرف النادل، علق مصطفى قائلا:

ـ أغلب الظن أنها الراقصة نفسها التي نشِبتْ من أجلها الحربُ في فندق الهِمالايا، ويدل على ذلك أنها قادمة من زنجبار، والمرجَّح أن هذا هو سبب الصِّدام الذي وقع بين عسكر بلدها وعسكر القمريِّين.

وكان مصطفى قد روَى لأندريا ما سمعه عن المعركة التي نشبت بين العسكريين في فندق الهمالايا، من أجل راقصة جديدة، فأوجزت الرواية للسيد جورج، الذي علَّق بدوره:

ـ نأمل، إن كانت هي الراقصة نفسها، أن لا تتجدَّد الحرب من أجلها هنا.

وعاد إليهم النادل حاملا ثلاثة كؤوس من العَرَق، الفاتح للشهية، وعندما همَّ بالانصراف استوقفه السيد جورج، وكان رجلا بعيد النظر، فتحسَّب لما يمكن أن يحدث ويحرِمهم من العشاء في سلام، وطلب من أندريا ومصطفى اختيار ما يرغبان في أكله، فوقع اختيارهما على السمك. ولأن السيد جورج كان قد استطْيَب كيفيَّة إعداده في المرة السابقة، فقد طلب السمك مثلهما، وأكد على النادل أن يكون مشويًّا، ومُنوَّعا، فاقترح عليه النادل "طبق الرئيس"، وشرح له أنه طبق كبير، مُعَدٌّ لعشاء أربعة أشخاص، ويتشكل من أسماك متنوعة، مُتبَّلة بالثوم، والفلفل، والملح، والليمون وزيت الزيتون، فوافق على ذلك بلا تردُّد.

ولم يطل انتظارهم كثيرا، وجاءهم النادل بطبق الرئيس في أبهى منظر، وبُخاره مازال يتصاعد منه، ورائحته تدغدغ الأنوف، وجاءت معه كؤوس أخرى من "الأنيزات"، لتزيد من انفتاح شهيتهم، وتجعل مذاق السمك ألذَّ وأطيب. وفي هذا الوقت، كانت

كل طاولات فناء عش الغراب قد احتُجِزت بالكامل. ولوحظ من بين الزبائن حضور عسكريِّين، كانوا يرتدون اللباس المدني، حتى لا يلفتوا النظر إليهم، إلا أن حلاقة رؤوسهم، وغياب الذوق والانسجام في لباسهم، كان يفضحهم، وكان بعضهم يصحب معه بعض بائعات الهوى في "الهمالايا"، يدل عليهن تبرُّجهن المبالغ فيه، وضحكاتهن المُجلجلة في أرجاء المكان.

وفي هذه الأثناء دخلت الجوقة الموسيقية، فقوبلت، كالعادة، بالتصفيق، واحتل أفرادها الأماكن المخصَّصة لهم، وبدؤوا يِدَوْزَنة آلاتهم الموسيقية، قبل أن يشرعوا في عزف قطع خفيفة، كانت بمثابة التمهيد للسهرة الراقصة. ولم تمنع الموسيقى الخفيفة، التي لم تكن مناسبة للرقص، من مبادرة بعض الأزواج من الزبائن المتحمِّسين إلى دخول الحلبة، والشروع في الرقص، مما جعل رقصهم لا يعدو أن يكون حركات اعتباطية، لا علاقة لها بالنَّغمات الموسيقية الصادرة عن الجوق، وجعل أغلب الحضور يتضايقون من تهريجهم، ورفع بعضهم صوته بالهتاف: "أنزيزا.. أنزيزا.. أنزيزا". لكن هتافهم لم يُثْنِ الراقصين عن مواصلة رقصهم، ولا دفع الجوقة إلى تغيير طابعها الموسيقي، وكأن رئيسها كان يُمعِن في زيادة شوق الجمهور لنجمة السهرة أنزيزا.

وفكَّر مصطفى في أصل هذا الاسم، فبدا له أنه مُحوَّر على الأرجح من اسم "عزيزة"، وهو ما لاحظه في أسماء كثيرة متداولة في الجُزر، وقع فيها تحوير للأصل العربي، لتتلاءم مع النُّطق باللغة المحلية، التي هي فرع من اللغة السواحلية، المنتشرة في أغلب بلدان شرق إفريقيا، وبها نسبة عالية من الأسماء والألفاظ العربية.

حينما كثر لغط الجمهور، وبدا أن صبره قد نفد، غيَّرت الجوقة، بإشارة من قائدها، وتيرة أنغامها، وأخذت تعزف إيقاعات سريعة ملائمة للرقص، وكان ذلك مقدمة لدخول نجمة السهرة الحلبة، وما هي إلا لحظات حتى برزت أنزيزا على الركح، فقابلها الجمهور بالتصفيق الحار، والهتاف، والزعيق، والصَّفير، تعبيرا عن ابتهاجهم بظهورها، وسارع أحدهم إلى تطويق عنقها بإكليل من الياسمين، وتفاعلت النجمة مع الجمهور، فراحت توزِّع عليه قبلاتها في الهواء، ذات اليمين وذات الشمال، وتردِّد عبارات لم تكن تصل إلى آذان المعجبين بها، بسبب ارتفاع صوت الموسيقى وضجيج الجمهور نفسه، ولكن قسمات وجهها المُنشرح، وابتسامتها العريضة التي أبانت عن عقد من الجوهر الخالص، وبريق الفرحة الذي ارتسم في عينيها، كانت كلها تترجم عن مشاعرها الفيَّاضة نحو الجمهور، وعن تأثرها الشديد بحرارة الاستقبال.

والواقع أن هذه المرأة كانت مُبهِرة حقا، بجمالها، وتناسق جسمها، قبل أن تكون مُبهِرة برقصها، فقد كانت مستديرة الوجه، واسعة الجبهة، عيناها دعجاوان، وحواجبها مُكحَّلة، ومقوَّسة، وأنفها مستقيم، في غاية التناسب مع قسمات وجهها، وشفتاها ممتلئتان، وذقنها هلالي الشكل، تتوسطه نقْرَة تزيدها روعة وسحرا، وكان عنقها طويلا في غير إفراط، وقدُّها لا يقل عن متر وسبعين سنتمتر، رشيقة، عامرة الصدر، ضيِّقة الخِصر، ممتلئة الرِّدفين بعض الامتلاء، في غير إخلال بتناسق جسمها. وكانت تزيِّن شعرها القصير بالياسمين والورد، وأذنيها بحلقتين كبيرتين، متناسبتين مع طول الرقبة، ووضعت تحت القرطين عقدا من اللؤلؤ الصناعي اللَّماع، ملتفًّا حول عنقها عِدة لفَّات. وكانت تلبس فستانا إفريقيا أصفر، فاقعا، واسع الأكمام، قصيرها، مُزرْكشا باللونين البُنِّي والأسود، يكشف عن صدرها الرحب، وعن أجزاء من ظهرها وكتفيها، وينتهي فوق رُكبتيها بقليل، مما يسمح برؤية ساقين رائعتي التكوين، كأنما صُنعتا صُنعا، بمقاييس جمالية رفيعة، تنتهي بزوجين من الخلاخيل، هما من لزوم الشغل، دون شك، لتبهر المتفرِّجين برنينها عندما ترقص، وعندما تضرب الأرض بقدميها الحافيتين. ولم تكن يداها بأقل إغراء وبهرجة من ساقيها، بما وضعته في عضديها ومعصميها من دَمالج، وأسْوِرة، وسُبحٍ من اللؤلؤ الصناعي، وخواتم كبيرة، مرصعة بأحجار ملوَّنة، مُزيَّفة دون شك.

وما إن وقعت عين مصطفى على أنزيزا، حتى قفزت إلى ذهنه صورة المُغنيَّة والراقصة الأمريكية السوداء "جوزفين بيكر"، التي سحرت كل أوروبا وأمريكا في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، وكان أبواها من العبيد، ونشأت خادمة في قصور السادة مالكي العبيد السابقين، ولكن طموحها، ومواهبها الخارقة في الغناء والرقص، وجمالها الفنان، جعلت منها نجمة ساطعة في سماء الفن، ومناضلة كبيرة في حركة تحرُّر السود في أمريكا. بدت أنزيزا لمصطفى شديدة الشبه بتلك المغنية الراقصة إلى درجة لا تُصدَّق، حسب ما ارتسمت صورتها في ذهنه، من فيلم وثائقي شاهده عنها، من جمال الصورة، وطول القامة، وعنفوان الشباب، ومرونة الجسم.

واستفزَّت الموسيقى أنزيزا، فتحرَّكت ترقص دون انتظار، ومنذ الوهلة الأولى تحرَّكت القلوب مع تموُّجات جسمها، وشدَّت إليها الأنظار برقص لم يشهد له الجمهور الحاضر مثيلا من قبل. انطلقت كالمُهرة غير المروَّضة، فبدت لعشاقها، والمُغرمين برقصها وسحر الجسد الأنثوي فيها، أنها لم تكن ترقص فحسب، وإنما كانت تعزف بجسدها سيمفونية رائعة لم تخطر نوتاتها ببال يتْهوفن. تحرَّكت كما تتحرك نسمات البحر، لطيفة، هادئة، ثم تحوَّلت في لحظات إلى ما يشبه قطار الشرق السريع، فانطلقت بأقصى درجات السرعة والانسياب، والاتساق، والتناغم مع الموسيقى، وكأنما كانت

هي التي تعزف بجسمها على الآلات الموسيقية، وتطوّعها لنوتات رقصها وليس العكس.

كان الجميع يتابع رقصها باندهاش وإعجاب، تتمايل له الأجساد، وترقص معه القلوب، وتتحرك الرؤوس والأرجل بصفة لا إرادية. ومن شدة تفاعل بعضهم مع رقصها، لم يستطيعوا التحكم في انفعالاتهم، ودخلوا الحلبة يرقصون معها، إلا أن سرعة الإيقاع وتنويعاته، جعلتهم يعجزون عن مجاراة المُهرة غير المروَّضة، فاختلت أرجلهم، واضطربت حركاتهم، واضطروا إلى مغادرة الحلبة مُكرهِين، الواح تلو الآخر، وهم يتصبَّبون عرقا.

وقبل أن تنهي أنزيزا رقصتها الأولى، وأمام دهشة الجمهور واستغرابه، اقتحم الحلبة خمسة جنود بلباسهم الرسمي وأسلحتهم، ليُشير قائدهم إلى رئيس الجوق الموسيقي بالتوقف عن العزف، ويتبادل مع أنزيزا بعض العبارات، ثم يضع الحديد في يديها. وهنا سارع بعض العسكريين المتفرجين، ممن كانوا يلبسون اللباس المدني، بالتدخل لمنع توقيف الراقصة، ولكنهم تراجعوا بالسرعة نفسها، عندما علموا، فيما بدا للمتفرجين، أن التوقيف جاء بأوامر فوقية.

واقتاد الجنود أنزيزا إلى خارج العش، وانطلقوا بسيارتهم العسكرية، تاركين زبائن عش الغراب في حيرة من أمرهم،

مُحبَطين، مُتذمِّرين، مُتسائلين، بينما راح بعضهم يتقرَّب إلى العسكر الذين تدخلوا لصالح الراقصة، في محاولة لمعرفة السبب المحتمل لتوقيفها، ولكن لا شيء تسرَّب عنهم.

وانعكست آثار هذا الحادث على مزاج زبائن عش الغراب، وهبطت معنويَّاتهم، وفترت هِمَّتهم في مواصلة السهرة، وشرع بعضهم في الانسحاب. وعلق مصطفى:

ـ كنتَ حكيما، يا سيد جورج، عندما بكَّرت بطلب العشاء.

ـ الحقيقة أنني كنت جائعا، ولكنني لم أكن أنوي أن أطيل السهر أيضا، أو أشرب كثيرا، لأن لديَّ عملا في الصباح، وأندريا تعرف ذلك.

وسكت لحظة ثم استأنف:

ـ عندي زيارة غدا في الصباح إلى "فومبوني"، لمعاينة توْسِعة الطريق ومدِّه هناك، لأن الشركة الأم طلبت مني تقريرا عن تقدُّم الأشغال فيه، لتُقدِّمه بدورها إلى الطرف الكويتي.

ـ هل أفهم من هذا أن دولة الكويت هي التي تموِّل المشروع؟

ـ بلى، وتموِّل مشاريع أخرى، أهمها شق الطرق وتعبيدها، وبناء سدٍّ يجري الإعداد له الآن، لتوفير مياه الشرب في الجزيرة.

ونادى السيد جورج على النَّادل ليأتيه بفاتورة الحساب، وكان في هذا إشارة واضحة إلى انتهاء سهرتهم، فرأى مصطفى أن يوجِّه الدعوة إليه وإلى أندريا، للعشاء والسهرة في اليوم التالي، ولكن السيد جورج اعتذر له بقوله:

- أقبلُ دعوتك بكل سرور، ولكن في المرَّة القادمة، لأنني سأسافر غدا بعد الظهر.

- بهذه السرعة؟!

- ليس لي خيَّار، لأن الشغل يتطلب تنقُّلي باستمرار. لكن، يمكنُكما، أنتَ وأندريا، السهر غدا من دوني.

***

بعد ظهر اليوم التالي، وأثناء ما كان مصطفى وأندريا يودِّعان السيد جورج في المطار، حدثت فجأة حركة غير عاديَّة، شاهدوا على إثرها الراقصة أنزيزا تُقادُ مَخْفورة، من مقصورة كانت محتجزة فيها، إلى الطائرة المتوجِّهة إلى دار السلام، وكانت بلا حقيبة سفر، وتلبس الفستان ذاته الذي رقصت به ليلة أمس في عش الغراب، وتحتفظ بكامل زينتها التي ظهرت بها في السهرة. وكان واضحا أنها تخضع لعملية ترحيل قسرية إلى بلدها.

والتزم ثلاثتهم الصمت، واكتفوا، كغيرهم من الركاب والمودِّعين القلائل الذين كانوا في المطار، بمُتابعة المشهد عن كثب، ولم يتساءلوا فيما بينهم، ولم يعلقوا على ما شاهدوه، لأن الموقف لم يكن ملائما للتساؤل أو التعليق. وعندما جاء دور السيد جورج في الصعود إلى الطائرة المتوجهة إلى تناناريف، صافحه مصطفى، وقبَّلته أندريا على خديه، وقفلا راجعين في سيارة أندريا.

في طريق العودة من المطار، كان كل حديثهما عن الأسباب المُحتملة التي دفعت السلطات إلى ترحيل الراقصة، وكان رأي أندريا جازما بأنه إجراء مُتعسِّف، في حق مُغنِّية وراقصة عظيمة مثل أنزيزا، عقابا لها على النجاح الذي حققته في ظرف وجيز، وعلى اكتسابها لقلوب الجماهير بسرعة مُذهلة، وهو ما أرعب السلطات، حتى ولو كان استقطاب الجماهير من فنانة لا علاقة لها بالسياسة، لكن مصطفى كان متحفِّظا في إبداء رأيه، ولذلك اكتفى بالتساؤل، في ارتيَّاب، عن ظهور الراقصة المفاجئ، وعن المجد الذي جاءت تبحث عنه في جزيرة صغيرة مثل جزيرة أنجوان، التي لا يتعدى سكَّانُها عدد سكان حيٍّ من أحياء المدن الكبيرة، وأغلبهم فقراء، لا تسمح لهم ظروف معيشتهم الصعبة بالبحث عن رفاهية الرقص والغناء في الملاهي الليلية؟!

ـ أليس من حقهم الاستمتاع بالفن؟ حتى ولو كانوا فقراء!

ـ من حقهم، هذا أكيد، ولكن، بعد أن تشبع بطونهم، بدليل أن من حضروا السهرة كانوا كلهم شبْعَى!

ـ لاحظتُ أنك تُخضِع كل شيء للمساءلة والشّك.

ـ ملاحظتك في محلها، ولكن دافعي إلى ذلك هو أن لا أحكم على مظاهر الأشياء، لأنها كثيرا ما تكون خادعة.

ولم تُقنعها حجّته، ولكنها لم تدخُل معه في نقاش، وركّزت اهتمامها على الطريق، أما مصطفى فقد أُعجِب بدقّة ملاحظتها، ولم يعتبرها نقدا له، فهو فعلا لا يتسرّع في الأحكام، ويَعُدُّ المُساءلة والشك طريقا إلى المعرفة الصحيحة.

وعادت أندريا فقطعت الصمت وسألته:

ـ حيث أن السيد جورج قد رحل، فأين سننام الليلة؟

وضحك من سؤالها، وأجابها على البديهة:

ـ سننام في سريرنا، طبعا!

وتجاهلت مِزاحه وسألته ثانية:

ـ هل سننام في سريريك أم في سريري؟

ـ هذا ما لم أفكّر فيه، ولكن، ماذا تفضلين أنت؟

ـ أفضِّل النوم في سريري.

ـ هذا من حقك

ـ .. وأنتَ معي

فضحك مرة أخرى، وعلَّق:

ـ وهذا قد لا يكون من حقك.

وتظاهرت بالغضب، وردَّت عليه:

ـ أنت حُر..

ـ لا تغضبي منِّي، سأفعل ما يُروق لك.

وارتلحت لإجابته، وابتسمت، وركَّزت ثانية في قيادة السيارة، ثم عادت لتُبرِّر:

ـ منذ الليلة الأولى للعاصفة صِرتُ أخاف من النوم وحدي.

وتطلَّع فيها، وردَّ مبتسما:

ـ مثلي تماما.. فمنذ تلك الليلة صار النوم صعبا عليَّ وحدي.

ونزل مصطفى عند رغبتها، فأوصلته إلى بيته، ليأخذ محفظته وبعض أغراضه، ونزلا مُجدَّدا إلى فِيلَّتها، لقضاء الليل معا.

***

بعد أن أنهى دروسه في منتصف النهار، صعد إلى هومبو، فوجد عبدو وجُمان في انتظاره، وكانت جُمان قد غيَّرت ملابس الاحتطاب الباهتة اللون، ولبست فستانا زاهي اللون، ولكنها ظلت محتفظة بعباءة الشيروماني القديم، وفكَّر أنها رُبَّما لا تملك غيره. ورافقه عبدو في جولة تفقُّدية إلى غرفة النوم، وغرفة الحمَّام، ليُرِيَه ما قامت به جُمان من ترتيب وتنظيف، وغسل ملابس ومناشف وملاحف.

ولم تفُته ملاحظة إعادة ترتيب سريره، بلمسة أنثويَّة واضحة، مختلفة عن ترتيب عبدو له، مع أنه لم ينم فيه بالأمس، فأعادت ترتيبه، وجعلته يبدو كصفحة ورق أبيض، متناسب الحواشي، حاد الزوايا، كعلبة سكائر لم تُفتح. وكانت هي في هذه الأثناء واقفة في الصالون، تُراقب من بعيد في شيء من القلق، وتتسمَّع باهتمام شديد إلى ما كان يدور بين مصطفى وعبدو من حوار، وتحاوِل أن تستشِفَّ معناه على وجه التقريب. وعندما أكملا دورتهما التفتيشية، ورجعا إلى الصالون، خاطبها مصطفى باللغة المحلية:

ـ نْجيما هازِي، أسَانْتَا (عمل جيد. أحْسنتِ).

وتفاجأت جُمان بما قاله، وضحكتْ، وضحك عبدو معها من كيفية نُطقه للعبارة، لكن الدهشة التي ارتسمت على وجه جُمان

في الأول، تحوَّلت بسرعة إلى سعادة غامرة من امتداحه لعملها، ترْجَمتْها ابتسامتُها المُشرقة، وخجلُها الذي ظهر جليًّا على مُحيَّاها.

وسأل عبدو، الذي كان يتأهَّب للانصراف هو الآخر بعد جُمان:

ـ هل تحتاج إلى نقود، لشراء مُستلزمات قد تحتاج إليها جُمان في عملها؟

ـ ما زال عندي بعض مصروف البيت الذي أعطيتني إياه.. ولكن قل لي: ماذا ترغب أن تأكل غدا؟

ـ اتركُ لك الخيار، فعندي ثقة في ذوقك..

وقبل أن يتجاوز عبدو عتبة الباب، أضاف مصطفى:

ـ .. لكي لا تحتار في كل يوم ماذا عليك أن تطبخ، سأضع لك قائمة أسبوعية بالأطعمة التي أفضّلها.

وحرَّك عبدو رأسه مُستحسنا فكرة القائمة، وغادر، مُحيِّيًا ومُتمنّيا لمُستخدِمه "شهيّة طيبة".

****

8

رحْلة طُلابيَّة إلى باتْسي

في يوم الرحلة إلى باتسي، قام مصطفى في السادسة صباحا، كعادته في أيام العمل، ليكون لديه متسعٌ من الوقت لتناول فطور الصباح، والقيام بآخر الإعدادات للرحلة، وحرص أن لا يوقظ أندريا من نومها، لأنها كانت تُحب أن تتأخر في نومها يومي السبت والأحد. وعند الساعة السابعة إلا رُبعا، لبس قميصا قُطنيا مقطوع الأكمام، وحذاء رياضيا، يحمي الرِّجْلين من الأشواك والأحجار المُسنَّنة، وسروال جينز، يمنع خدوش الساقين عند المشْي في الغابة أو الحقول، وكاسكيت لحماية الرأس من أشعة الشمس. وكان قد أوصى طلبته بأخذ الاحتياطات لكل هذه الأشياء، كما أوصاهم بالتزود بما يلزم من الأكل والماء، وبما يقيهم من المطر في حال ما إذا أمطرت السماء. وزاد في الاحتياط من جهته، أن حمل معه صندوق الإسعافات الصغير، الذي يحتفظ به للطوارئ في غرفة الحمَّام، ويحتوي على القطن، والضماد، وزجاجة كحول و"مَيَرْكَرْكروم" لتطهير الجروح. ولم ينس أيضا الكاسيرا التي ظلت مرميَّة في خزانة الملابس، ولم يستعملها منذ أن نزل بالأرخبيل.

وكان قد وضع فيها فيلما من نوع "كوداك"، بأربع وعشرين صورة.

وضع كل حاجاته في "حقيبة الظَّهر"، وحملها وخرج. ولم تكن تفصل فيلًا أندريا عن الثانوية إلا بضع مِآت من الأمتار، فكان من أوائل الواصلين، حيث وجد مدير الثانوية يشرف بنفسه على استعدادات الرحلة، وعبد الرحمان، المراقب العام، يتحدث إلى سائقي الشَّاحنتين الصَّغيرتين، اللتين ستنقلان الطلبة إلى باتسي، وكانتا من نوع "بيجو 404" التي يُطلق عليها هنا اسم "طاكسي بْرُوس"، لأنها تُستعمل في النقل العمومي إلى القرى البعيدة، وإلى الأماكن المُوغلة في الغابات. ولاحظ أيضا وجود سيارة "المِهاري" المكشوفة مركونة في جهة من الفناء، ورجَّح حينئذ مشاركة رئيس اللجان الثورية في الرحلة، وهو ما أزعجه وعكَّر مزاجه.

قال له مدير الثانوية وهو يتأمل لباسه "يبدو أنك على استعداد تام للرحلة!"

ثم قدَّم له شخصا كان يقف إلى جانبه:

ـ أقِّدم لك المهندس "رِضا كوجا"، المُشرف على المَشْتلة البلدية لمدينة موتسامودو.

ـ أتشرف بمعرفتك، سيِّد كوجا.

وقدَّمه المدير للمهندس، وأعلمه أن السيد كوجا سيرافق الطلبة، ليستفيدوا من خبرته كمُختص في النباتات الاستوائية.

ـ هذا شيء مُهم.. سأستفيد شخصيا منه، إذن..

ـ العفو، استاذ، هذا من تواضعك، ردَّ عليه المهندس.

ـ لم أقل إلا الحقيقة، لأنني لا أعرف الكثير عن النباتات الاستوائية.

وأثناء ما كان الطلبة يتجمَّعون في باحة الثانوية، في انتظار إشارة الانطلاق، سأل المديرُ المراقب العام عما إذا كان كل الطلبة المعنيِّين بالرحلة قد حضروا؟

ـ الجميع حضر، وننتظر وصول منسِّق اللجان الثورية..

ـ ننتظر بعض الوقت إذن..

ثم عاد المدير ليسأل المراقب غما إذا كان العمَّال قد انتهوا من شحَن الأكل والماء؟

ـ شحنوا كل شيء في الشاحنة الأولى..

ووصل أخيرا منسِّق اللجان الثورية ومعه مرافقان، ولم يكلف نفسه الاعتذار لأحد عن تأخره، وركبوا سيارة المهاري، وركب الطلبة شاحنتي البيجو، على المقاعد المهيَّأة في الخلف لركوب

صفَّيْن متقابلين، وركب مصطفى والمهندس في المقعدين الأماميَّين لإحدى الشاحنتين، إلى جانب السائق، وركب عبد الرحمان ومسؤول التموين مع سائق الشاحنة الأخرى، وانطلق الجميع متأخرين عن الموعد المحدَّد للانطلاق بحوالي نصف ساعة.

كانت فرصة لمصطفى ليتعرَّف على المهندس رِضا كوجا، وكان رجلا لطيفا، مُجاملا، طلْق اللسان، مِهذارًا بعض الشيء. واتضح له أثناء حديثهما، أنه هو والد الطالبة مارياما، الحاضرة في الرحلة، وهي كبرى بناته، كما ذكر له. ولم يرَ مصطفى ما يمنعه من امتداح سلوكها أمام والدها، لأنها كانت ذات خُلق حسن، هادئة الطبع، ومجتهدة في دروسها، إلا أنها ـ كما لاحظ ذلك لوالدها ـ قليلة التدخُّل في النقاش، ولا تجيب إلا إذا سُئِلتْ، فأكَّد له الوالدُ أن هذا هو طبعها، وزاد على ذلك أنها أعقل بناته، وأحبُّهن إليه.

ولاحظ مصطفى أنه ذَكَر بناته مرتين، ولم يأتِ على ذكر الأبناء الذكور، فسأله بطريقة مُؤدَّبة:

ـ هل يعني هذا أنك ترتاح لبناتك أكثر من ارتياحك لأولادك الذكور؟

ـ لا، ليس الأمر هكذا، بل، لأن الله لم يرزقني أولادا ذكورا، وعوَّضني عنهم بسبعة أصْهار..

وضحك بصوت عالٍ، وضحك معه مصطفى للنُّكتة، مُكتشفا في السيد رِضا كوجا روح الدعابة، وحبه للمرَح، ومع هذا لاحظ شيئا من المرارة في نبرة صوته، لم تستطع ضحكته العالية أن تغطيَّها تماما. وذكر له المهندس أثناء الحديث أنه أنهى دراسته في مدغشقر، في أوائل الستينيات، وأنه أجرى دورتين تدريبيَّتين بفرنسا، في اختصاص النباتات الاستوائية، دامت كل دورة ستة أشهر.

وتبيَّن لمصطفى أن الرجل واسع المعرفة بأنواع النباتات في الجزيرة، وبالمزروعاتِ التي تلائم مُناخها الطبيعي، وتعطي مردودا جيِّدا، وخاصة ما تعلق منها بتلك التي يُمكن أن تضمن اكتفاء في الغذاء للسكان. وكان هذا الحديث بمناسبة ما شاهداه في الطريق من انتشار حقول الذُّرة، والأرز الجَبلي، و"المانيوك"، حيث استغل المزارعون الأهالي معظم الفراغات الموجودة في الغابة، والمساحات الصغيرة الواقعة في المنحدرات، وعلى الهضاب لغرس هذه المزروعات.

كانت الطريق إلى باتسي ضيِّقة، ومتعرِّجة، وكثيرة المَطبَّات والحُفر، تصعد تارة، وتنحدِر تارة أخرى، وتلتفُّ حول الهضاب، وتعبُر الجسور الصغيرة، المبنيَّة بجذوع الأشجار على الجداول والشِّعاب، وهذا ما جعل الرِّحلة تطول، وتستغرق حوالي ساعتين، إلا أن الطلبة، فيما بدا لمصطفى، لم يكونوا آبهين بتعرجات

الطريق، أو قلقين بشأن احتمال أن تخرج إحدى الشاحنتين عن مسارها، أو تنقلب في أحد المُنعرجات، وقد عرفوا كيف يُمضون الوقت بترديد الأغاني والأناشيد، ورواية النُّكت والحكايات فيما بينهم، فكانت أصواتهم تأتي عالية في الخلف، وترتفع ضحكاتهم بين الحين والآخر.

عندما وصلوا إلى المزرعة النموذجية التي جاؤوا خصِّيصا لزيارتها، وجدوا المزارعين مُصطفِّين في انتظارهم، وكان عددهم اثنين وثلاثين رجلا وامرأة، حسب ما ذكر لهم رئيس اللجنة الثورية على مستوى المزرعة، إلا أنه لم يكن من بينهم مهندس واحد، وإنما كان منهم تقنيُّون في الزراعة، وعمَّال قُدامى، مُتمرِّسون بكيفية إخصاب شجر الفانيليا.

قدَّم الفلاحون للطلبة شراب قصب السكَّر، فشرب منه مصطفى، ووجده لذيذا ومُنعِشا، أما أعضاء اللجان الثورية المحليين فلم يكتفوا بشراب السُّكَّر، ودعوا المُنسِّق أبو ـ سيندي ورفيقيه إلى عريشة جانبية، ليشربوا كؤوسا من "التِّينْبو". ومُجاملة منهم، دعوا مصطفى والمهندس لمشاركتهم الشراب الخاص، وحينما تذوَّقه مصطفى، وجد طعمه لاذعا، وأدرك أنه مُسكِر، وكان قد سمع بهذا الشراب المُستخلص من "قلب" أشجار النَّارجيل، ولكنه لم يره من قبل، فامتنع عن شربه، وامتنع معه المهندس أيضا.

وبعد أن نالت الجماعة الثوْريَّة حظها من التِّينْبو، وصعدَ بُخارُه إلى رؤوسهم، نادوا على الطلبة، واعتلى أبو ـ سيندي مكانا مرتفعا، وقام فيهم خطيبا. ومن أجل إثارة الحماس في العمال والطلبة، بدأ الثوريُّون بالنشيد الوطني "وا كومورو"، الذي شارك الجميع، طلبة وفلاحين، في إنشاده، ثم شرع "أبو- سيندي" يخطب فيهم.

وشعر مصطفى بالارتياح لأنه لم يكن يفهم ما يقوله، ما عدا كلمات قليلة، وكان يعلم أنه لن يقول إلا كلاما حماسيًّا فارغا، يُشيد فيه بالنظام الاشتراكي، وبتجربة المزارع النَّموذجية، ويذكِّر ببعض ما جاء في خطابات الرئيس عنها. وقد سمع المنسِّق، فعلا، يردِّد اسم الرئيس مرات عديدة، مما كان يدفع بعمَّال المزرعة إلى مقاطعته بالتصفيق تلقائيا، أو رُبَّما بتوصية مُسبقة من ثوريِّي المزرعة، ليُجاريهم الطلبة في التصفيق عن طريق العدوَى.

وتأكد لمصطفى صِدق حدْسه عندما تكهَّن مُسبقا بمضمون خطاب المنسِّق. ولحسن حظ الجميع أن الخطاب لم يكن طويلا، حيث أفرغ الخطيب كل ما عنده دفعة واحدة، وأنهاه مرة أخرى بالنشيد الوطني. وانطلق الجميع بعده إلى حقل الفانيليا، وكان مُمتدًّا على عدة هكتارات، حيث كانت شجيراتها الصغيرة تلتصق بالأشجار الكبيرة، وتتسلق جذوعها وأغصانها.

وعندما توغلوا وسط الحقل، وقفوا عند بعض الشُّجيرات التي نضجت ثِمارُها، وصارت جاهزة للقطْف، وقد أشاعت حولها رائحتها الطيبة، وتدلَّت كثمار الخرنُوب النَّاضج، وفي حجمه ولونه تقريبا، وراح بعض الطلبة يتلمَّسونها، ويتشمَّمون رائحتها، ثم انتقلوا إلى شجيرات أخرى بدأت تُزهِر، وكانت زهراتها صفراء يانعة، تتهيَّأ للتلقيح. وهنا تدخَّل السيد خوجا، ليشرح للطلبة "أن زهور الفانيليا هشة بطبيعتها، لا تحتمل التعرُّض للشمس مدة طويلة، وهذا هو السِّر في غرس شُجيراتها عند جذوع الأشجار، لتحتمي بها من وهج الشمس، ولتتسلَّق جذوعها وفروعها، لأن سيقانها ضعيفة، وتحتاج عند نضوجها إلى سنَد، كما تحتاج الزهرة إلى تلقيحها يدويًّا، لتنمُوَ، وتنضج بالشكل الذي رأيتموه قبل قليل. فإذا لم تُخصَّب خلال أربع وعشرين ساعة من تفتُّحها، ذبُلت وماتت".

وطلب السيد خوجا من أحد العُمال المتخصِّصين أن يقوم بعملية تخصيب الزهور أمام الطلبة، فتركَّزت العيون على أصابع العامل وهو يأخذ المادة المُخصِّبة من الزَّهرة نفسها، ليضعها في الجهة الأخرى منها التي تنتظر التلقيح. وكرَّر العامل عملية التخصيب عدة مرات أمام أعينهم، لكي تترسخ في أذهانهم.

وكان مصطفى قد أخرج الكاميرا، وأخذ للطلبة صُوَرا تذكارية جماعية، وهم يتابعون شروح السيد خوجا، ثم وهم يتابعون

عملية تلقيح الزهور، وراح يتبادل الكاميرا مع خالد، حتى يظهر هو أيضا مع الطلبة في الصُّور. وفُتح النقاش مع السيد كوجا، وكانت الأسئلة كثيرة ومتنوعة، بخصوص الكميَّات التي يُنتجها الأرخبيل من هذه الشجيرة، ومن يشتري محصولها من الأجانب، وما هي القيمة التي تُباع بها، وفي أية أغراض تستعمل، وما هي البلدان الاستوائية التي تنافس بلدهم في إنتاجها.

وبيَّنت أسئلة الطلبة أنهم يجهلون كل شيء عن قيمة هذا المُنتج الثمين، الذي يباع بسعر الذهب في الأسواق الدولية، و يُستعمل في أغراض شتَّى. ونطق من بينهم طالب واحد، هو أبوبكَر، ليقول ضاحكا:

ـ تذوَّقتُ طعْم الفانيليا في الشوكولاطة والكْرِيمة المُثلَّجة.

ـ ما قلته صحيح، علَّق السيد كوجا، ولكن هذا قليل من كثير، لأن استعمالاتها كثيرة ومتنوعة، بدْءً بالحلويات، والأطعِمة، والأشْرِبة، وانتهاء بالمواد التَّجميلية والصَّيدلانية.

وفتحت إجابات المُهندس على أسئلتهم عُيونهم على أهمية هذه الشُّجيرة المتسلِّقة، الضعيفة الساق، الغالية الثمار، وتبيَّن لهم أنها تستطيع، إذا توسَّع الأرخبيل في زراعتها، أن تفتح المجال لآلاف الأيدي العاملة، وأن تعود على البلد بأموال معتبرة.

عندما انتهت الأسئلة والأجوبة، قفلوا راجعين إلى المكان الذي انطلقوا منه في الأول، حيث تركوا أغراضهم الشخصية، وكان الطلبة والطالبات يسيرون في شيء من الفوضى، ويهرِّجون، ويضحكون، ويجري بعضهم وراء بعض، فتعثَّرت نعيمة أثناء جرْيها وهي تحاول الإمساك بزميلة لها، وغاصت رجلُها في حفرة، فالْتَوَت قدمُها، وسال الدم من أصابع رِجلها، لأنها كانت تنتعل حذاء خفيفا، لا يناسب المشي في الأرض غير المُستويَّة، فما بالك بالجري فيها. وأسرعت زميلاتها لنجدتها، فاعتمدتْ على اثنتين منهُن للوصول بها حيث جُمعت الأغراض. وتجمَّع الكُل حولها، وكثر لغطهم، واحتاروا فيما يلزم لإسعافها. وهنا أسرع مصطفى إلى حقيبة الظهر، وأتى بصندوق الإسعافات. وسأل الطالبات إن كان من بينهِن من تُحسن استعمال أدوات الإسعاف ووسائل التطهير، ولكن، لا واحدة منهن أجابته بنعم، وحينئذ طلب من ماريااما، التي كانت تجلس على الأرض، مُسنِدة نعيمة إليها، أن تمسك لها رجلها المُصابَة، وباشر هو شخصيا عملية الإسعاف، فأشبع القطن بالكحول، وشرع في تطهير الجُرح.

وما إن لمس القطنُ جُرحها حتى علت صرخاتها من تأثير الكحول في الجرح، وهو ما أثار إشفاق زميلاتها عليها، وطلبن من أستاذهن، بصوت واحد تقريبا، أن يتوقف عن تعذيبها، فتوقَّف

لحظة، وتطلَّع في وُجوههن، ورأى فيها ذلك الانطباع الذي صوَّره كجلَّاد في عيونهن، حينما كان يشرِّح الفأر، واحتج عليهن: "هل تُرِدْن أن يتعفَّن جرحُها؟ هل يُعجِبكن أن تنتفخ قدمُها، وتنخرُها الغنْغَرينا؟"

ثم غمز بعينه خِفية لخالد، ليأخذ له صُورًا، وعاد إلى معالجة الجُرح، غير مُبالٍ بصرخات نعيمة، ولا بتوَجُّع زميلاتها، وضمَّخ الجُرح في الأخير بالمايركرْكُروم، وغطَّاه بالقطن، وشدَّه بشريط طبِّي لاصق، ولفَّ قدمها كلَّه بالشَّاش الأبيض. وعندئذ توقَّفت نعيمة عن الصُّراخ، وشعرت بالرَّاحة، بل، واستطاعت بعد أن شجَّعها على القيَّام، أن تقف على رجلها المُصابة، فصفَّق لها الجميع، تشجيعا لها، وتقديرا أيضا لعلاج أستاذهم لجُرحها.

ونادى عبد الرحمان الطلبة للتجمع قرب إحدى الشاحنتين، وأخذ يوزِّع عليهم اللُّمَج. ولم يتبيَّن لمصطفى ما كان يحتوي عليه الخبز المُوَزَّع عليهم، وعرض عليه المراقب لُمجَة، فردَّها شاكرا، وأخرج أكله الخاص، وكان قد عمل حسابه لكي لا يتميز بأكله عن الطلبة، وحمل معه "ساندويتشيْن"، حشاهما بشرائح طماطم، وقطع من الجبن، وأوراق من الخَس. وعندما شرعوا يأكلون، جاءهم العُمَّال بجفنتين كبيرتين من الأرز، مخلوط بشيء من الخُضر، فترك الطلبة الخبز، وتجمَّعوا على الجفنتين، وأخذوا يأكلون الأرز بشهية

كبيرة. ودعاه بعضهم إلى مشاركتهم الأكل، فاعتذر لهم، مُتمنّيًا لهم "شهية طيبة".

بعد الغداء قفلوا راجعين إلى موتسامودو، وقد رفع الطلبة أصواتهم طوال الطريق بالأناشيد، والأغاني، والضحك، كما فعلوا في رحلة الذهاب، في الوقت الذي دخل فيه مصطفى ورضا كوجا في حوار طويل، عن الإمكانيات الكبيرة التي تزخر بها الجُزر في مجال الزراعة، والحاجة المُلحة إلى توعيَّة الطلبة بها، وإعدادهم ليضطلعوا في المستقبل بمهمة تنمية البلد، وإخراجه من حال التبعية الغذائية للخارج، فلم يشعرا بمرور الوقت، ولا بطول الطريق، إلى أن وصل الموكب إلى الثانوية. وعند الافتراق، دعا المهندس رضا كوجا صديقه الجديد الأستاذ مصطفى إلى زيارته في "مشتلة البلدية"، مُرحِّبا في الوقت نفسه بزيارة الطلبة أيضا، ومُعرِبا عن استعداده الكامل لتقديم المساعدة لهم في دراسة النباتات. ودعاه مصطفى، من جهته، لزيارته في بيته وقت ما يشاء.

وانتبه مصطفى إلى المراقب العام وهو يطلب من أحد السائقين إيصال نعيمة إلى بيتها، فأدركها قبل انطلاق السائق بها، ليطمئن عليها، ويوصيها بضرورة الذَّهاب في اليوم التالي إلى المَشْفى، لتغيير ضِمادها، وفحْص قدَمها، للتأكد من سلامة المُشط والرُّسْغ، وخلو جُرحها من أية عدوى. فشكرته نعيمة على

اهتمامه بها، وواعدته بأنها ستفعل. وبدا السرور على مُحيَّاها من الاهتمام الذي أولاه لها أستاذها، وشعرت بالفخر من ذلك أمام زميلاتها.

من باب الثانوية أخذ مصطفى سيارة أجرة أوصلته إلى بيته في هومبو، فتخلص من ملابس الرحلة، وأرجع صندوق الإسعافات إلى مكانه، ووضع قِدْرا كبيرة من الماء على النار، بغرض أن يستحِم استحماما كاملا بالماء السَّاخن، كما اعتاد على ذلك في نهاية كل أسبوع، لأن بيته، مثل معظم بيوت الجُزر، غير مُجهَّز بسخَّان حمَّام، لانعدام الحاجة إليه فيما بدا له، بسبب ارتفاع حراة الجو طوال العام.

وأحس براحة كبيرة حينما خرج من الحمَّام، بعد أن تخلص من كل ما علق بجسمه من عرق، وجلس في الصالة ببُرنس الحمَّام ليشرب عصيرا، وراحت يده تدير زُر الراديو، وتنقل مؤشره بين المحطات. بحثا عن آخر الأخبار. وأحس بالنوم يثقل أجفانه، ولكنه قرَّر أن لا يستسلم له، لأن وقت القيلولة قد فات. وفي هذه الأثناء سمع دقًّا على الباب، فنهض متثاقلا، ليجد صديقه ميدو واقفا عنده، بقامته الفارهة، وابتسامته العريضة. وعوض الاستجابة لدعوته بالدخول، دعاه إلى ارتداء ملابسه، واللحاق بـ"الماتش" الذي سينطلق بعد نصف ساعة.

ـ أنا مُتعب ـ قال له ـ وصلتُ للتَّو من رحلة مع الطلبة إلى باتسي..

ـ لكن المباراة في هذه المرَّة غير عادية، لأنها ستكون بين المُدرِّبين التانزانيين، وبين نظرائهم من العسكريين القمريِّين.

واستغرب مصطفى الخبر، ودعاه إلى الدخول، ما دامت المباراة ستنطلق بعد نصف ساعة، ليفهم منه الحكاية التي بدت له في غاية الغرابة.

قال له ميدو، بعد أن شرب كأس العصير الذي قدَّمه له في دُفعة واحدة:

ـ هل تصدِّق أن الحاكم العام للجزيرة هو الذي طلب من الفريقين تنظيم هذه المباراة؟!

ـ لا أصدق، بعد الذي حدث بينهما في فندق الهِمالايا بشأن الراقصة.

ـ ولكن، أتدري بأن الراقصة كانت مدسوسة عليهما معا؟ وتعمل لحساب طرف ثالث.

ـ هل تعني أنها جاسوسة؟

ـ هذا ما أُشِيع عنها بين الناس.

ـ لفائدة من؟

ـ لا أحد يدري..

وقلَّب مصطفى الأمر في ذهنه فلم يتضح له أي شيء، وعاد ليسأل ميدو:

ـ وماذا تتوقَّع أن يحدث في حال تغلَّب أحد الفريقين على الآخر؟

ـ لا أدري.. لكنني سأحضر المباراة مهما كانت النتيجة..

ولم يستطع مصطفى أن يقاوم فضوله، فأسرع إلى غرفة النوم، ولبس ثيابا نظيفة، خفيفة، وخرج صحبة ميدو للتفرج على المباراة، على الرغم من خشيته أن تنقلب الأمور بين الفريقين إلى الأسوأ.

وجرت المُقابلة بحضور الحاكم العام نفسه، وكان رجلا متواضعا، يلبس لباسا تقليديا بسيطا، وحضر إلى جانبه كبار الضباط من المَعسْكرين، ولم يُمنع جمهور الناس العاديين من الحضور. وكانت مقابلة متوسطة، لا تخلو من المُتعة، وكان اللاعبون في غاية الانضباط والانصياع لأوامر الحكم، والتسامح مع بعضهم بعضا. وانتهت المُقابلة بهدف في كل شبكة، وصفَّق لهما الجمهور

طويلا. وقدَّم الحاكم العام، في نهاية المقابلة، ألبسة رياضية من النوع الفاخر لكل اللاعبين من الفريقين، كمكافأة لهم على الروح الرياضية التي أبدوها طوال المقابلة، وتصافح الجميع، وتفرقوا مبتهجين بالنَّتيجة، وبالهدايا التي حصلوا عليها.

وفهم مصطفى، مما شاهده، أن اللعبة كانت مُبيَّتة منذ البداية، وأن النتيجة مُتَّفق عليها مسبقا، فأكبر حِكمة الحاكم العام، واعتبر ما قام به تصرُّفا في غاية الحنكة والدهاء، من أجل إصلاح ذات البين بين الطرفين، وتجاوز الحادث الذي وقع بينهما، ولاسيما أن رئيسي النظامين السيَّاسين، في الأرخبيل وفي تنزانيا، كانا يتبنَّيان النهج الاشتراكي، ويَعدَّان نفسيهما صديقين، يقفان في خندق واحد في مواجهة الاستعمار والأمبريالية، ومن الطبيعي أن يعملا على تسوية أي خلاف يعكِّر صفْوَ هذه الصداقة.

***

مع مطلع الأسبوع، بعث مصطفى الفيلم الذي صوَّره في رحلة باتسي بالبريد السريع، ليُحمَّض في فرنسا، وطلب من معمل التحميض ثلاث نسخ من كل صورة، لأنه فكر أن يحتفظ بنسخة كاملة لنفسه، ويُعلِّق صُورا منها في المختبر، أو في قاعة الدرس، ويقدِّم بعضها هدية لصديقه المهندس رضا كوجا، وأخرى لعبد الرحمان، المراقب العام، ويهدي بعضها لمدير الثانوية.

وألهمته صوَرُ الرحلة بفكرة على قدر كبير من الأهمية كان غافلا عنها، وهي أن يهتم بتصوير مظاهر الحياة في الجزيرة بمختلف مُكوِّناتها، الطبيعية، والعمرانية، والاجتماعية، وتوثيقها بأسمائها وبتواريخ التقاطها، لتكون أرشيفا شخصيا له، يذكِّره بأيامه فيها، وبأصدقائه، وبالأماكن التي عاش فيها، أو التي زارها. ومنذ ذلك الأسبوع شرع في أخذ صور لبيته من الداخل ومن الخارج، وصورٍ لنفسه وهو يجلس تحت شجرة الأفوكا، بعد أن شرح لعبدو كيف يستعمل الكاميرا، وأخذ صورا لعبدو نفسه وهو يعُد بعض الأكلات في المطبخ. وعرض على جُمان أن يلتقط لها صورة، ولكنها رفضت، وولَّت هاربة إلى غرفة الحمَّام، وكانت قد شاهدته وهو يصوِّر عبدو، وكانت مدهوشة من لمعان "فلاش" الكاميرا، فلم يلح عليها، وأعطاها مهلة حتى ترى الصور، وتتعوَّد على التصوير.

وفي نهاية الأسبوع اصطحب أندريا إلى "عش الغراب"، خصِّيصا من أجل التقاط صور في الملهى معًا، واستعان في ذلك بنادل ظريفٍ من نُدُل عش الغراب، أطلق عليه في وقت سابق اسم "ثلاثَ حصان"، بعد أن حاول عبثا، في بداية معرفته به، أن يُصحِّح له عبارته بالفرنسية بعبارة "ثلاثة أحصنة"، إلاَّ أن النادل أصرَّ على "ثلاثَ حصان"، لأن منْطقه يقول له ـ حسب ما شرح ذلك

لمصطفى ـ إنه التعبير الأصح، على وزن "واحد حصان". ومنذ ذلك اليوم صارا صديقين، وأصبح "ثلاث حصان" يختار له أحسن الطاولات ليجلس إليها، ويحرص على خدمته بنفسه، وتلبية طلباته دون زملائه الآخرين، ويمزح معه أثناء ذلك بمنطق "ثلاث حصان". وكان هذا النادل، بما يتمتَّع به من حيوية ومرح، قد ذكَّره بشخصية "جورج شيكن"، في المسلسل الأمريكي "جذور"، الذي حقَّق نجاحا منقطع النظير في تلك الأيام، وعرضَته قنوات تلفزيونية كثيرة في العالم، ولكن مصطفى رأى اسم "ثلاث حصان" ألْيَقَ به، وأقربَ إلى التعبير عن شخصيته.

عرض مصطفى على "ثلاث حصان" أخذ صورة له، فسُرَّ بذلك أيَّما سرور، ووقف نافِشًا ريشه بصورة مُضحكة، أمام صناديق البيرة التي تحمل اسم ورسم "ثلاثة أحصنة"، فطلب منه أن يغيِّر مكانه بعيدا عن الصناديق، ويبتسِم، ويكون طبيعيًّا، فابتسم للكاميرا ابتسامة مُصْطَنعة، ولكنه أبَى أن يُغيِّر مكانه، أو يعدِّل من وقفته المُتعاظِمة. وسأل مصطفى:

ـ متى تعطيني الصُّورة؟

ـ بعد حوالي أسبوعين..

ـ لكنها مُدة طويلة..

ـ ولماذا أنت مُستعْجَل عليها؟!

ـ لتراها "نورا".

ـ هل هي خطيبتك؟

ـ بالتقريب..

ـ إذن، هاتها معك بعد أسبوعين لأعطيك الصورة، وآخذ لك معها صورة أو صورتين..

ـ هل هذا وعد؟

ـ وعد..

والتفت "ثلاث حصان" إلى أندريا ليُشهِدها على ذلك:

ـ سيدتي الجميلة، سمعتِ وعده؟

ـ سمعت، وأشهد على ذلك..

فانطلق مُنتشيًا فرَحًا، ودخل "العش" ليعود بعد دقيقة بوردتيْن، قدَّمهما لأندريا ومصطفى، قائلا:

ـ سيِّدتِي، سيِّدي، تمتَّعا بوقتِكُما.. هل تريدان أيَّ خدمة أخرى؟

ـ شكرا، هات لنا ورقة الحساب..

ودفع مصطفى الحساب، وانطلقا عائدين إلى فيلَّا أندريا، ليشربا كأسي ويسكي، لهضم طعام العشاء، وجلْب النُّعاس، وناما مُبكِّرين، استعدادا لعمل اليوم التالي.

***

9

تطوُّرات لم تكُن في الحُسبان

أحدثت صور الرِّحلة التي علَّقها الأستاذ مصطفى في حجرة الدرس صدًى غير مسبوق، لكونه شيئا جديدا لم يتعوَّد عليه الطلبة، وقد طلب كل واحد منهم صورة أو صورتين من تلك التي ظهر فيها، لكن الصورة التي صنعت الحدث، واستأثرت بالاهتمام الأكبر، هي صورة نعيمة أثناء ما كانت تتوجَّع من قدمها المجروحة، وتلك التي تُظهِر الفوندي وهو يعالج جرحها، حيث كانت محل تعاليق كثيرة، تراوحت بين الإشفاق على نعيمة مما حدث لها، وبين السُّخرية مما بدا عليها من التأثر والجزَع، وتأرْجَحت مشاعر نعيمة إزاءها بين الرِّضا بما حظيت به من اهتمام جعل منها "نجمة الفيلم"، وبين الانزعاج من التعاليق الساخرة. ولبَّى الأستاذ طلب تلاميذه، فسجَّل كل الأسماء، وإلى جانب كل اسم وضع رقم الصورة التي وقع اختيار صاحبه أو صاحبته عليها، وبعث بالطلبات في اليوم التالي إلى معمل تحميض الصور.

وصار تفرُّج الطلبة على الصُّور والتعليق عليها يتجدَّد كل صباح، إلى أن جاءت الصور المُرسل في طلبها بعد أيام، فلم يخبر

الأستاذ أحدا بوصولها، وأرجأ توزيعها إلى الدقائق العشر الأخيرة قبل الخروج، حتى لا يُقتطع من وقت الدرس، وحتى لا ينشغل الطلبة بها عن مُتابعة الدَّرس، وكانت حصة نعيمة خمس صور كاملة، اثنتان منها جماعية، وثلاثة خاصة بها، وهذا ما ألهب خيالها طوال ذلك اليوم، وجعلها تتذكَّر، لحظة بلحظة، شعورها بالسعادة، على الرغم من الألم، حين كان الأستاذ يعالج جرحها، ثم وهو يُمسك بساقها أثناء لفٌ الشاش على قدمها، وتستعيد بلذة ملامسة يده لساقها، حيث كان جسدها كله قد تكهْرب أثناء لمسه، وتمنَّت لو أنه هو الذي أعاد تضميد جُرحها في اليوم التالي، وفي اليوم الذي بعده، حتى تتلذَّذ مرة أخرى بلمساته السحرية. ولكثرة ما فكرت في تفاصيل الحادثة، صوَّر لها عقلها أنها مازالت تحظى باهتمام أستاذها، وأن تلك الموظَّفة الملغاشية لم تؤثر في شيء على مكانتها عنده، وأن علاقته بها لم تكن إلا نزوة عابرة ستنتهي اليوم أو غدا. ومن هنا بدأ تفكيرها يشتغل حول ما ينبغي عليها فعله في قادم الأيام، من أجل أن تفتكَّه نهائيا من مُنافِستها فيه، وتستأثر به دونها.

***

صار مصطفى لا يأتي إلى بيته إلا للغداء، ليخلد بعده لِقيلولة تدوم حوالي ساعة، ويخصِّص الوقت الباقي لإعداد دروس اليوم التالي، ثم يغيِّر ملابسه عندما تميل الشمس إلى المغيب، ويأخذ

محفظته، ويركب سيارة أندريًّا، وينطلق للمبيت عندها. وكانت أندريًّا هي التي عرضت عليه استعمال سيارتها في الصُّعود والنزول إلى ومن هامبو، فتعوَّد على استعمالها، وغدا يُمرُّ كل يوم أمام فيلتها بعد انتهائه من العمل، ليأخذ السيارة ويصعد إلى بيته، ليعود بها في المساء، حاملا معه محفظته وما يحتاج إليه في دروس اليوم التالي من مُذكِّرات ووسائل شرح.

عندما جاء بالسيارة في المرة الأولى، ورآها عبدو و جُمان، أظهرا إعجابهما بها، وظنَّا أنه اشتراها، لأنه لم يسبق لهما أن رأياها، أو رأيا أندريا تقودها عندما أتت في المرَّات السابقة، فغدا عبدو يولي عنايته بسيارة مُستخدِمه، فينفض كراسيها من الغبار، وينظِّف مفَارِش الأرجُل، ويمسح زجاجها، ويُلمِّع لوحة القيادة، تطوُّعا منه، لأن مصطفى لم يطلب منه ذلك، على اعتبار أن تنظيف السيارة لا يدخل ضمن مهام خدمته، ولكنه طلب من عبدو، في مقابل هذا، أن يعلِّم جُمان الطَّبخ، وكيفية تحضير الأكلات التي كان يُعِدُّها له، وأفهمه أن هذا سيكون مقابل العبء الذي خفَّفته عنه جُمان في تنظيف الغُرف، وغسل الثياب، وحتى لا يُنقِص شيئا من أجرته التي تعوَّد على أخذها منه في نهاية كل شهر.

وبعد حوالي عشرة أيام من تكليفه لعبدو بتعليم جُمان الطبخ، حين عاد من عمله، وأخذ دُشًّا سريعا، وارتدى ملابس

البيت، وقصد طاولة السفرة، وجدهما يقفان عندها، ويتبادلان النظر، ويبتسمان، فسأل عبدو بحركة استفهامية من رأسه، فأجابه بهيئة من يفتخر بنجاحه في تعليم تلميذته:

ـ كل ما تراه أمامك من أطباق، هو من إعداد جُمان..

وتأمل الأطباق المتنوِّعة، من سلائط، ومشويَّات، ومطهيَّات، فلاحظ أنها تليق بالضيوف المُميَّزين، وأطلق تصفيرة خفيفة وهو يقول:

ـ برافو، جُمان..

وارتسم الفرح والخجل على وجه جُمان، في حين التفتَ إلى عبدو ليشمله بالمَدْح:

ـ برافو، عبدو.. لقد نجحت في مهمتك بامتياز..

وظل عبدو وجُمان واقفين، في انتظار أن يتذوَّق الأكل، ويختبر جوْدته، فتناول شوكة، وبدأ بالسلائط، من الأفوكا المُضمَّخ بالخل وزيت الزيتون، مع قليل من الفلفل الأسود المطحون، إلى خليط الذُّرة والخيار والطماطم والجبن، وحرَّك رأسه مُستحسِنا طعمها، ثم تذوَّق قطعة من سمك السَّلمون المشوِي، وملعقة من طبق الأرز بالصَّلصة، وحرَّك رأسه بالاستحسان مرة أخرى، وانتهى إلى تذوق الموز المقلِي، وحرَّك رأسه بعدم الاستحسان، فارتسمت علامات

التوتُّر على وجه جُمان، وعلامات الخوف على وجه عبدو من السقوط في الاختبار، ونطق أخيرا وهو يبتسم:

ـ ينقصُه الفلفل الحار، وقليل من الملح..

وضحك على إثر ذلك، ففهما دُعابته وضحكا معه، وأسرع عبدو لإحضار المملَّحة وهريسة الحار، ثم استأذنا في الانصراف، وخرجا مسرورين، ومُطمئنَّين لنجاحهما في الاختبار.

***

في ذلك المساء، دخل عند أندريا متأخرا، لانشغاله بتصحيح أوراق اختبارٍ فُجائي أجراه صبيحة ذلك اليوم للطلبة، فوجدها تنتظره في قلق واضح، فبادرها:

ـ أراك مُتوَتِّرة.. ما بك؟

ـ لا أدري.. مُتوَتِّرة، كما ترى..

ـ هل واجهتك مشكلة في الشغل؟

ـ لا..

ـ مالأمر إذن؟!

ـ مشكلة من علاقتنا مع بعضنا..

ـ ماذا تقصدين.. من جهتي أنا، لا مشكلة..

ـ صحيح، لا مشكلة من جهتك.. أما من جهتي..

وغلبها البكاء، فأسرعت إلى غرفة النوم، وألقت بجسدها على السرير، وخبأت وجهها في المِخدة، فلحق بها، وراح يربِّت على كتفها، ويمسِّح على شعرها، محاولا أن يخفِّف عنها، وأن يفهم سِر بكائها، ولكنها ظلت على وضعها ذاك، تبكي، ولا تجيب، ثم جلست أخيرا على طرف السرير، وتناولت منديلا ورقيا، وأخذت تمسح دموعها، ثم تمخَّطت، لتقول له في الأخير:

ـ تأخرت عادتي الشهرية عن موعدها..

وضرب ما يشبه الناقوس في رأسه، وتنبَّه إلى شيء كان غافلا عنه، وكان عليه أن يتوقَّع حدوثه، بعد ما وقع المحظور بينهما في الليلة الثالثة لمرور العاصفة المداريَّة. وسألها بعد صمت:

ـ لكنك أخبرتني أنك تتناولين حُبوب منع الحمل؟!

ـ يبدو أنها لم تنفع..

ـ أو ربَّما لم تتناوليها بانتظام..

ـ ماذا تعني؟ هل تريد أن تحمِّلني المسؤولية وحدي؟

ـ لا.. أقصد أنك نسيتِ تناولها..

ولم ترُد عليه، وظلَّت صامتة، ثم عادت إلى البكاء ثانية، فقطع الصمت ليقترح عليها:

ـ ما من وسيلة إلا أن تذهبي غدا إلى المستشفى، لتستشيري السيدة إفلين في الموضوع..

ـ وإذا قلت لك لا، لن أذهب؟

وتجاهل التحدِّي الذي بدا واضحا في صوتها، وسألها:

ـ وما العمل إذا كانت المسألة جدِّية، وتأكَّد لكِ الحمْل؟!

ـ أنا مُتأكدة، ولا أحتاج إلى السيدة إفلين لتُقول لي أنِّي حامل.

وسألها في حيرة:

ـ وما العمل، إذن؟

ـ نتزوَّج..

وكاد الضَّحك يغلِبه، على الرغم من الموقف الجاد والمتأزِّم، وسألها مندهشا:

ـ لكن، ألسنا مُتزوِّجيْن فعلا؟!

ـ أقصد أن نعقد قِراننا بصفة رسمية..

وخشي في هذه المرة أن يجْرح مشاعرها بالسؤال الساخر الذي طرأ على ذهنه: "هل نعقِد قِراننا في الكنيسة أم في المسجد؟"، وكتم السؤال في نفسه، وعوَّضه بالقول:

ـ حتى لو فكَّرنا في الزواج رسميا، لابد لك من استشارة صديقتك السيدة إفلين..

ـ ولماذا؟ هل هي أمِّي؟!

ـ لتتخلَّصِي من الحمل، إذا كانت نتيجة التحليل إيجابية..

ـ أريد أن أحتفظ به، فهو في النهاية طفلي..

ـ لكنني أنا لا أريده..

ودخلا في نقاش حادٍّ لأول مرة، صريحٍ وبعيد عن المُجاملة، فاتَّهمته بأنه غير جادٍّ في الارتباط بها، وأن حبَّه لها لم يكن إلا نفاقا، وأنها لم تكن بالنسبة إليه إلا عجلة خامسة، يستعملها بعض الوقت، ثم يستغني عنها في أول فرصة، واتهمها بأنها تُمارس عليه الابتزاز، وأنها تعمدَّت أن تحمل منه لتضعه أمام الأمر الواقع، وهو ما لن يرضخ له أبدا.

ومع توتُّر الأعصاب، وارتفاع حِدَّة النقاش بينهما، أصرَّت على الزواج الرسمي في أقرب الآجال، وعلى الاحتفاظ بحَمْلها في

الوقت نفسه، وأصرَّ من جهته على إسقاط الحمل أولا، وعلى تأجيل الزواج إلى وقت لاحق، بعد أن يناقشا المسألة من جميع الجوانب، ويتفقا على كل شيء في المستقبل بينهما. وحين اتضح له أنها راكبة رأسها، وأنه لن يخرج معها بأية نتيجة أو تفاهم قرَّر الانسحاب، فألقى بمفاتيح السيارة على منضدة السرير، وخرج مُغضبًا، وصعد إلى بيته في هومبو.

ولأول مرة، منذ مرور العاصفة المَدَاريَّة، باتا مُنفصلين عن بعضهما، فباتت أندريا في غيظ منه، مستنتجة من رفضه فكرة الإبقاء على حملها، أنه لم يكن صادقا في علاقته معها، وأنه لم يكن إلا طالب مُتعة لا غير، وبات مصطفى في غاية الأسف على التطور المُفاجئ الذي حدث بينه وبينها، مُتعجِّبا من موقفها المُتصلِّب، ومُتأثِّرا باتهامها له بالنفاق، لاسيما أنه كان مُقتنِعا أن الخطأ جاء منها، والمسؤولية مسؤوليَّتُها هي وحدها، فإذا كانت قد نسيت تناول حبوب منع الحمل، فهذا ذنبها، وإذا كانت قد تعمَّدت أن تحمل منه، من أجل ابتزازه، والضغط عليه ليتزوجها، فهذا أسوأ، وهو ما لن يقبل به أبدا.

وأثناء ما كان يراجع علاقته بها مع نفسه، تذكَّر ما باحت له به ذات مرة، وهما في لحظة حميمية، فربط بين ما قالته آنذاك وبين الاختبار الذي وضعته فيه. قالت له: "شجَّعني السيد جورج على

الاستمرار في علاقتي معك، لأنك وسيم، ومثقف، ولا تلتزم بالدين، ولكنه حذَّرني من كونك عربيًّا!"، فاستفزَّه هذا البوح في تلك اللحظة، ولكنه لم يُحمِّله أكثر مما يحتمل، واعتبره من الأحكام المُسبقة التي تُكوِّنها الأمم والشعوب عن بعضها بعضا، وسألها: وأين عرف السيد جورج العرب؟! في فرنسا، أجابته، حين كان يدرس الهندسة في باريس. وضحك حينذاك، وسألها مازحا: وكيف وجَدْتِنِي أنتِ؟ وحْشًا آدميًّا مثلا؟ فردَّت في جدية كاملة: بل وجدتك إنسانا رائعا، وسيما ومُثقفا، كما قال عنك السيد جورج.. ولم يفوِّت تغزُّلها به، فردَّ عليها: مثل ما وجدتكِ أنا أيضا، رائعة، وجميلة، وفي منتهى الرِّقة والعُذوبة، ووجدتُ السيد جورج لطيفا، ومُتسامِحا، على الرغم من حُكمه المُسبق على كل العرب.

***

في صبيحة اليوم التالي، وكان يوم سبت، صحا من نومه متأخرا، وبعد أن قام بتمارين رياضية في باحة البيت، عاد إلى الحمَّام ليزيل عرقه، ولبس ثيابا نظيفة، وخرج مُجددا إلى الباحة، ليتناول فطوره الإنكليزي، الذي دأب على تناوله في نهاية الأسبوع، في الباحة الخارجية للبيت، كسرا للروتين اليومي، فحملت إليه جُمان فطوره حيث كان يجلس، في ظل شجرة الأفوكا الضخمة، وكانت جُمان هي التي أعدَّت الفطور، بعد أن تعلَّمت من عبدو كيفية

إعداده. وكان باله مايزال مشغُولا بالنقاش العاصف الذي جرى بينه وبين أندريا، فانعكس ذلك على شهيَّته، فلم يَنل من العُجَّة الإنكليزية إلا القليل. واكتفى بالعصير والقهوة. وعندما عادت جُمان لترفع المائدة، لاحظت أنه لم ينلْ من فطوره إلا القليل، فأصيبت بخيبة أمل، وظنَّت أن أكلها لم يعجبه. وفي غياب عبدو، الذي يقوم بالترجمة بينهما عادة، حاول أن يُفهمها، بالعبارة والإشارة، أن أكلها جيِّد، ولكنه فاقد للشهية.

ولم يدرِ إن كانت جمان قد فهمت ما قاله، ولكنَّه أضاف، وكأنه يُحدِّث نفسه: لابد لك أن تتعلَّمي اللغة التي أخاطِبُكِ بها، مثلما تعلَّمت الطبيخ، ومن الآن. وأشار إلى العُجَّة وقال لها "بيض"، وكرَّر الكلمة، ففهمت وكرَّرت وراءه "بيض"، وأشار إلى ذاته وقال: "أنا"، فكرَّرت وراءه "أنا"، فأضاف ببطء، وكأنه يتهَجَّى "أنا أحِب"، فردَّدت وراءه "أنا أحب"، فأكمل لها الجُملة "أنا أحِب البيض"، فكرَّرتها وراءه وهي تبتسم، وقد تغلبت بصعوبة على اللجلجة التي اعترت لسانها في الأول، فأعاد عليها الجملة عدة مرات، حتى تيَقَّن أنها حفِظتها. وبعدها قام مُتهيِّئا للنُّزول إلى المدينة، واغتنم المناسبة ليقول لها وهو يشير بإصبعه إلى صدره "أنا ذاهب إلى المدينة"، وصاحب العبارة بالإشارة، وودَّعها بحركة من يده وهو يقول:

ـ إلى اللقاء.

فكرَّرت ما قاله بنبرة مُكسَّرة، فردَّ مُشجِّعا:

ـ برافو، جمان..

وأرادت أن تقول له شيئا ما، ولكنه لم يفهم من عبارتها إلا كلمة "أُطو"، فاستنتج أنها تسأل عن السيارة، ولم يكن في استطاعته أن يوصل إليها أية فكرة عن عدم وجود السيارة، فتركها تفهم ما تشاء: أنها تعطَّلت مثلا، أو باعها، أو ما شاء لها فهمها، وانطلق مُكرِّرا لها عبارة "إلى اللقاء"، فردَّت عليه بابتسامة عريضة، ووقفت تراقبه وهو ينزل في المنحدر، إلى أن غاب عن نظرها في المنعطف.

***

من موقع المدفعين المشرفين على مركز المدينة، رأى تجمُّعا للناس يتحرك في ساحة البلدية، وقال محدثا نفسه، لعلهم سيقدمون اليوم على حرق البلدية نفسها، واسرع الخطى، وحين بلغ الساحة، رأى الناس تتحلَّق حول حمار، وقد ركب على ظهره بالمقلوب رجُلٌ كهل، قام شبان الثورة بحلْق شعر رأسه من جهة واحدة، ونصف لحيته من الجهة المقابلة، وعلَّقوا على صدره وظهره لوحتان كُتِب عليهما: "سارق أموال الشعب"، وكانوا يلاحقونه بالسباب

والضرب، ويبصقون عليه. وتفرَّس جيدا في ملامح وجه الرجل، فإذا هو السيد موريس، صاحب فندق الهِمالايا بشحمه ولحمه، وسأل بعضهم عما ارتكب الرجل من جُرم، ولكنه لم يفهم منهم أكثر مما فهمه من اللوحة المكتوبة على ظهر الرجل وصدره.

وذكَّره المشهد بمُمارسات شُبان الحرس الثوري في الصين مع أتباع "عِصابة الأربعة"، وجرِّ زعماء سياسيين سابقين في الحزب والحكومة في وحَل شوارع بكين، وتنكيل طلبة الجامعات بأساتذتهم، وحبسهم، وتجويعهم، فلم يحتمل التفرُّج على الرجل وهو يعاني المهانة والضرب وسوء المُعاملة، وتوجَّه إلى بقَّالة السيد طاكي، فاستقبله شاكيا، مُغمغِما في تذمُّر:

ـ أرأيت يا فوندي كيف يعاملون الهنود؟ كأننا لسنا بشرا مثلهم..

وفهم أنه يقصد تعامل اللجان الثورية مع السيد موريس، ولكنه لم يفهم قصده في الأول، لأنه لم يكن يعلم أن السيد موريس هندي الأصل، وأن اسم موريس مُستعار، وسأله عن التهمة التي يتَّهِمونه بها؟

ـ قالوا إنه يهرِّب الأموال إلى الخارج !! فهل تحويل الأموال إلى الخارج جريمة؟! هل هذا يسمح لهم بإهانته وتعذيبه؟!

وبصق على يمينه، ليتخلَّص مما تجمَّع في فمه من مضغ القات، ثم أضاف وقد صار تعبيره أوضح:

ـ هو حرٌّ في ماله. يبعث به إلى الخارج، أو يسْكر به، أو يُوزعه على المُومسات، أو يحرقه إذا شاء!

وأدار مصطفى في ذهنه ما قاله السيد طاكي، ثم علَّق:

ـ هذه المسألة في نظري مسألة قانون وعدالة، وليست قضية اللجان الثورية..

ـ هذا هو المفروض، لو كان في البلد قانون وعدالة، ولكن...

وبصق مرة ثانية في تقزز وحقد، ثم واصل:

ـ تصوَّر يا فوندي لو كان السيد موريس يحمل الجنسية الفرنسية، أو أية جنسية أوروبية أخرى، هل كانوا سيتجرَّأون على معاملته بهذه القسوة والإهانة؟

ودخل أحد الزبائن في هذه اللحظة، فانقطع الكلام بينهما، ودفع مصطفى ثمن أسبوعيتي "جون أفريك" و"أفريك آزي"، [٨] وعلكة بالنعناع فكَّر في أن يُهديها لجُمان، وانطلق في اتجاه السوق، لا لشراء شيء بعينه، ولكن بدافع حُبِّ الاطلاع على أحوال الناس، وكنوع من التَّنزه اعتاد على القيام به في نهاية

الأسبوع، حين تكون الأحوال الجويَّة مُواتيَّة، وكانت حال السيد موريس المسكين قد شغلت باله، وشوَّشت تفكيره، ولم يجد أي مُبرِّر لذلك العنف الهمجي الذي مورس عليه.

وبات مصطفى ليلته الثانية وحيدا، ولكنه نام بسرعة، لأنه ألغى قيلولته المعتادة في ذلك اليوم، وكان تفكيره في الخلاف الذي نشب بينه وبين أندريا قد أرَّقه في الليلة السابقة، وملأ فراغ صبيحة اليوم التالي، الأحد، بتحضير دروسه، وبقراءة مقالات "جون أفريك" و"أفريك آزي" بعد ذلك، وكانت ملأى بالأخبار والتحاليل السياسية، والتحقيقات الصحفية المثيرة، عن كل ما كان يجري في بلدان القارة السمراء.

وبعد الظهيرة اشترك في مباراة لِلكُوَر الحديديَّة، رُفقة الأساتذة القاطنين بهومبو، حضرتها بعض السيدات، على غير العادة، كمُشجِّعات للفريقين المُتنافسين، ومنهن صونيا، وصديقة دانيال المتبرِّجة، كمُشجِّعتين لأرتور ودانيال، وسوزان وإيميلي، كمُشجِّعتين لبِرْتران. وحضرها، لأول مرة، الدكتور أبوبكَر الذي شارك في فريق مصطفى وميدو.

ولاحظ مصطفى أن صونيا كانت متحفِّظة إزاءه حينما سلم عليها، وأدرك أنها مازالت متأثرة بردِّه المُحرِج لها، حين سألته في بيت الدكتور أبوبكَر عن علاقته بنعيمة، وارتاح لذلك، لأنه ضَمِن إغلاق

باب الفضول لديها نحوه. ولم يفته أن يلاحظ أيضا فُتور علاقتها بأرتور، وكانت من قبل تتباهى بارتباطها به، وتلتصق به في حرص شديد، كأنها تخشى أن يُفلت منها، وبدت له من ذلك النَّوع من النساء العجولات، الملُولات، ودار بخلده أن تكون قد حصلت بينهما مشكلة بعد الزواج عكرت صفاء العلاقة بينهما. وعن طريق التداعي وجد نفسه منساقا إلى التفكير في مشكلته مع أندريا، واستنتج في شيء من التسرُّع، لم يكن من طبعه، أن النساء كلهن هكذا، يُظهِرن في الأول رِقَّة وعذوبة، ثم ينقلبن فجأة، ودون سابق إنذار، إلى عواصف هوجاء. وتساءل مع نفسه، متفلسفا بشأن صونيا وأرتور: ترى، ما الذي جعل العلاقة بينهما تفتر بهذه السرعة؟!

وانتهت المباراة بهزيمة مُدويَّة لأعضاء الفريق الأوروبي الكندي، إذ أنهم لم يتمكَّنوا من كسب أية جولة، ولم يُنقِذهم من تلقِّي المزيد من الهزائم إلا هطول المطر بغزارة، الذي فاجأ الجميع، مُتبارين ومُشجِّعين، ففروا في مختلف الاتجاهات، لائذين بِبُيوتهم.

***

انصرمت أيام الأسبوع على مصطفى ثقيلة ومُمِلَّة، وكان باله مُنشغلا طوال الوقت بمشكلته مع أندريًا. وما أقلقه أكثر، ووَتَّر أعصابه أنه لا يدري ما إذا كانت قد فكَّرت جيِّدًا، وأدركت خطورة الوضع، واتصلت بالسيدة إفلين في المستشفى كما طلب منها، أم

أنها مازالت راكبة رأسها، ومُصِرَّة على الاحتفاظ بحملها! لأن المسألة، في حالة ما إذا كانت حُبْلَى حقًّا، لا تحتمل أي تأجيل، وتزداد تعقيدا كلَّما مرَّ الوقت، ويصبح التخلص من الجنين أمرا صعبا.

ولام نفسه على تسرُّعه في ردِّ فعله، حين أخبرته أنها حامل، واعتبره تصرُّفا أحمق منه، وهروبا من مواجهة المُشكلة، وليس ضغطا عليها كما فكَّر في تلك اللحظة، من أجل أن تتخلَّى عن فكرة الاحتفاظ بالحمل، وفكَّر أنه كان من الأجدر به أن يتحمَّل الصَّدمة، ويبقى إلى جانبها، ويُحاول أن يعالج المسألة بِرَوِيَّة، ويُقنعها برأيه بعد أن تهدأ، ويزول عنها التوتُّر. أمَّا وقد ألقَى مفاتيح السيارة في وجهها، وغادرها لا يَلوِي على شيء، ولم يرجِع إليها، ولم يُراجعها بعد أن زال عنه الغضب، وتركها وحيدة، تعاني الوحدة والقلق، وتتصوَّر أنه تخلَّى عنها، ببساطة شديدة، في أول مشكلة تواجههما، فإنه يكون قد ظلمها بتصرُّفه هذا، وأخطأ في حقها، ويجب عليه تدارك الأمر، والإسراع إلى إصلاح خطئه.

هذا ما توصَّل إليه مصطفى في تلك الظهيرة، بعد طول تفكير، وقرَّر أن ينزِل عند أندريا بعد القيلولة، ويعتذر لها، ويُطيِّب خاطرها، ويدعوها إلى العشاء في ملهى عش الغُراب. وقام من جلسته في الصالون، وتوجَّه إلى غرفة النوم، فأسدل ستارة النافذة، وشغَّل المِروحة الكهربائية. وما إن تمدَّد على سريره حتى سمع دقًّا

على الباب، فانزعج من هذا الزائر الثقيل الذي لا يُراعِي وقت الزيارة، وتريَّث قليلا في الذهاب لفتح الباب، لعل الزَّائر يظنُّه نائما، أو غائبا عن البيت، فيرجع من حيث أتى، ولكن الدَّق تكرَّر، وفي شيء من الإلحاح. وفتح الباب على وجه نعيمة، وحين لاحظ أنها كانت وحيدة، همَّ بأن يرُدَّها من الباب، تفادِيًا للشُّبُهات، ولكنه أشفق عليها حين رآى وجهها يتصبَّب عرقا، وقال في نفسه سأصرفها بعد أن ترتاح قليلا. وقبل أن يسألها عن سبب زيارتها في تلك الساعة من اشتداد الحر، قادها إلى الحمَّام لتغتسِل، وجلس ينتظرها في الصالون.

وطال انتظاره لها، وتعجب من بقائها في الحمام كل ذلك الوقت، فدق عليها الباب، وسألها:

ـ نعيمة، هل أنت بخير؟

ـ أنا بخير.. أمْهِلني دقائق.

وخرجت وهي تلُفُّ جسدها في مِنشَفتيْن كبيرتين من مناشف حمامه، وقالت له معتذرة:

ـ نزعتُ فُستاني وشِيروماني لأنهما يقطران عرقا، ووقفتُ تحت مِرَش الحمَّام لأتبرَّد قليلا..

وأدهشه تصرُّفها هذا، وأدرك أن نيَّتها ليست بريئة، وأنها تريد، دون شك، أن تلعب معه لعبة خطيرة، تؤدي إلى فضيحة كُبرى لو هو تساهل معها، وسألها بلهجة جادَّة:

ـ ما سبب زيارتك لي في هذا الوقت، وبمُفردك ؟

ـ جئت لأشكرك على ما قمت به من أجلي عندما جُرِحْت..

ـ هذا صار من الماضي.. ولهذا أطلب منك أن تلبسي فستانك وشيرومانك وتخْرُجي في الحين..

قال هذا في لهجة حازمة، وغاضبة، فاندهشت من طرده المفاجئ والصريح لها، وظهر على وجهها الخجل والاضطراب، تحوَّل بسرعة إلى شعور حادٍّ بالإهانة، وقفزت الدموع على إثر ذلك من عينيها غزيرة، ووقفت لحظات تتطلَّع إليه في صمت وخيبة أمل، ثم قفلت راجعة إلى الحمَّام. وكان يتوقع أن تلبس ثيابها وتخرج، ولكنها أطالت المُكوث في الحمَّام مرة أخرى. وفهم من ذلك أنها بصدد إفراغ شحنتها من الدُّموع، ثم تغسل وجهها وتخرج، غير أنه صُعِق حينما رآها تخرج من الحمَّام عارية كيوم ولدَتْها أمُّها، ووقفت تعرض جسدها عليه، ثم قالت في رجاء يخنقه البكاء:

ـ فوندي.. أرجوك، تزوَّجني.. أنا مجنونة بِحُبك..

وأشاح بوجهه عنها، وصرخ فيها:

ـ نعيمة.. هل جُننتِ؟! ارجعي والبسِي ثيابك.

ولم تتحرك، وظلَّت واقفة تتحدَّى رجُولته. فخفَّف من حدة لهجته وخاطبها متوسِّلا:

ـ أرجوك، نعيمة.. البسي ثيابك ثم نتحدث بهدوء..

وتحرَّكت نحو الحمَّام ثانية، فلبست فستانها، وحملت شيرومانها في يدها، وجاءته لتبادره بالقول:

ـ لقد رأيتني عارية، هل هي أجمل مني؟ هل هي أكثر أنوثة؟

ـ ما هذا الكلام؟! من تقصدين بكلامك؟!

ـ أقصد المُحاسِبة الملغاشية.. لماذا فضَّلتها علي؟ ألأنها موظفة وأنا تلميذة؟ ألأنها تملك سيارة وأنا لا؟

ـ هذا هذْرٌ منك، وغيرة لا معنى لها..

ـ إذا كان هذا غير صحيح، فتزوَّجني الآن..

ـ هذا غير مُمكن، فالزَّواج لا يكون بهذه الكيفيَّة..

ـ إذن، أنت لا تريدني لأنك متزوِّج بالملْغاشية..

ـ هذا غير صحيح..

ـ بل هو صحيح.. رأيتك بعيني تدخل بيتها في المساء، ولا تخرج منه إلا في الصَّباح..

وأحرجه كلامها، وأدرك أنها كانت تُراقبه، وقال مداريا حرَجه:

ـ كنتُ استعرْتُ سيارتها منها وأعدْتُها لها..

ـ لا تكذب عليَّ، فأنا لستُ مُغفَّلة. أنت تركبُ سيَّارتها في النهار، وتركبها هي في الليل..

واستشاط غضبا من اتهامها له بالكذب، فلم يدْرِ إلا وهو يرفع يده ويصفعُها، ويأمرها بالخروج من بيته في الحال. وباغتتها اللطمة، فقابلتها بدهشة وانفعال شديد، لأنها لم تتوقَّع أبدا أن يضربها، ووضعت يدها على خدِّها من شدة الألم، وما إن زالت عنها الدهشة بعض الشيء حتى أسرعت بالخروج، وهي تبكي وتتألم، فأدرك بسرعة حَراجَة الموقف، وأحس بالنَّدم في تلك اللحظة على فداحة ضربه لها، ولكن ما وقع قد وقع، فتركها تمضِي، دون أن يحاول اللحاق بها، ليعتذر لها، ويُصلِّح خطأه معها، وجلس في الصالون، قلقا، ومُراجعا نفسه فيما أقدم على فعله مع تلميذته، فبدا له عملا لا يبرِّره أي مُبرِّر، ولا يليق أبدا برجلٍ مُتعلِّم ومُتحَضِّر مثله، وأستاذ يعمل على تهذيب سلوك تلاميذه، وغرس القِيَم النبيلة في نفوسهم، قبل أن يعلِّمهم العِلم. وتذكر تصرُّفه الغاضب مع أندريا، وندمه عليه بعد ذلك، وتبيَّن له، بشكل ملموس، من صفعه لنعيمة هذا اليوم، كيف يرتكب الأخطاء

الفادحة كلما عطَّل عقله، واستسلم للغضب، وتصرَّف بأعصابه عوضا عن عقله.

ولم يمض على خروج نعيمة أكثر من ربع ساعة، حتى سمع دقًّا على الباب، وعندما فتح، وجد درَكِيَّيْن بلباسهما الرَّسمي الأزرق، ليسأله أحدهما:

ـ أأنت الأستاذ مصطفى بن سعيد؟

ـ أنا نفسه.. ما الأمر؟

ـ أنت مطلوب للتحقيق معك..

ـ بِخُصوص ماذا؟

ـ بخصوص أنك ضربت إحدَى تلميذاتك، وحاولت الاعتداء عليها جنسيًّا.

وصعقته التُّهمة، وأنكرها مُباشرة، ولكن الدَّركي قال له:

ـ أثناء التَّحقيق يُمكنك أن تقول ما تشاء.. غيِّر لِباسك، وتعالَ معنا..

وقاده الدَّركيَّان إلى المركز الأمني القريب منَ سكنه، وهناك وجد نعيمة في مكتب أحد الضباط، فلم ترفع نظرها إليه، وسألها الضابط:

ـ هل هذا هو الأستاذ مصطفى بن سعيد، الذي ضربك وحاول الاعتداء عليك؟

فنظرت نحوه، وحرَّكت رأسها، بالإيجاب.

وحاول مصطفى أن يتحكم في أعصابه، وتوجه إليها بالسؤال:

ـ نعيمة، لماذا تكذبين علي؟ هل هذا انتقام مني؟ هلَّا ذكرتِ للضابط لماذا صفعتك؟...

وقاطعه الضابط:

ـ على رسلك، مازال التحقيق لم يبدأ بعدُ، ولم أسألك لماذا ضربتها، ولا لماذا حاولت الاعتداء عليها..

وأشار إليها آمِرًا:

ـ الآن يُمكِنُكِ الانصراف إلى بيتكم، وسنستدعيك إذا لزم الأمر..

وقامت نعيمة فلفَّتْ جسدها في الشيروماني وقصدت باب الخروج، فلاحظ مصطفى، أثناء ذلك، تمزُّق فُستانها من جهة الصدر والكتف اليسرى، فضغط على أسنانه من الغيظ، وحدَّث نفسه قائلا: "عرفت لعِبَتْها الشَّيطانة بإتقان، لتظهَر بمظهر الضَّحية، وتُثبِت عليَّ تهمة محاولة الاعتداء عليها جِنْسيًّا".

وتناول الضابط جهاز التلفون، وشكَّل رقما، وتكلَّم بضع دقائق مع طرف ثان باللغة المحلية، خمَّن أنه أحد رُؤسائه، ثم شرع بعد ذلك في التحقيق معه.

***

10

مَخاطِرُ المِهْنة

استغرق التحقيق معه حوالي ساعة، بدأه الضَّابط المُحقق بطلب معلومات شخصية، عن اسمه الكامل، وسنِّه، وجنسيَّته، ثم سأله عن الجهة الرسمية التي بعثت به للتدريس في الأرخبيل، وفي أي إطار من التَّعاون، وكانت إجابته عن هذه الأسئلة مختصرة جدا، وطلب من الضابط، إن كان يرغب في معلومات مفصَّلة، أن يتَّصل بوزارة التعليم في بلده، لتُزوِّده بها، ولكن الضابط تغاضى عن ذلك، ودخل مباشرة في موضوع الحادثة التي اقتيد من أجلها للتَّحقيق معه، وسأله:

ـ هل طلبتَ من تلميذتك "نايما" المَجيء إلى بيتك بداعي أن تشْرح لها درْسا تخلَّفتْ عن حُضوره في الثانوية؟

ـ لا، لم أطلب منها المَجيء أبدا، ولم تتأخر عن أي درس من دروسي، ويُمكنك أن تتأكد من هذا بالرجوع إلى سجل الحضور والغياب لدى السيد المُراقب العام للثانوية. ثم إنه ليس من عادتي أن أستقبل تلاميذي في بيتي، لأي سبب من الأسباب.

ـ لكنك استقبلتَها في مرَّة سابقة في بيتك..

ـ هذا صحيح، إلا أنها لم تكن وحْدها، بل مع مجموعة من زملائها الطلبة والطالبات، جاؤوا لزيارتي بمُبادرة منهم، وكان معهم مُنسِّق اللجان الثورية على مُستوى الجزيرة، الذي تعرَّفتُ عليه في تلك الزيارة.

ـ ولماذا استقبلتها في بيتك هذه المرة وحْدَها؟

ـ كان هذا خطأ منِّي، وقد استقبلتها بنيَّة سليمة، وكان عليَّ أن أرُدَّها من الباب.

ـ هل اعتديْتَ عليها بالضرب؟

ـ صفعْتُها على وجهها.

ـ لماذا؟

ـ لأنها اتهمتْني بالكذب، وتلفَّظت بعِبارات تخْدِش الحَيَاء.

ـ ماذا قالت لك؟

ـ لا أستطيع أن أُعيدها عليك، لأنها، كما قلت لك، عبارات غير لائقة..

ـ أما هي فقالت في شكواها ضدك إنَّك ضربتها لأنها رفضَتْ دعوَتك لها إلى السرير..

ـ هذا مَحْضُ كذِبٍ وافتِراء، فالعكس هو الذي حصل، فقد عرضَتْ نفسها عليَّ بكيفية متهوِّرة، فنهَرتُها عن ذلك التصَرُّف الطائش، فتفوَّهت بكلام أغضبني، وحينئِذ لم أتمالك نفسي وصَفعْتُها..

ـ إذن، أنت تعترف أنك ضربتها.

ـ لقد بيَّنتُ لك السَّبب.

ـ وكيف تفسِّر أن فستانها مُمزَّق من الأعلى، عند كتفها وصدرها؟

ـ هذه إلا مجرد تمثيلية، قامت بها لتُثبت لكم محاولة الاعتداء عليها.

وانكبَّ الضابط لحظات على أوراقه، ليُدوِّن ما قاله مصطفى، ثم رفع رأسه وعاد ليسأله:

ـ هل لك علاقات مع النساء؟

ـ أتحفَّظ عن الإجابة على هذا السؤال ، لأنه يتعلَّق بأُمور شخصيَّة لا صِلة لها بما تُحقِّق فيه..

ـ طيِّب.. هل كُنتَ مُتزوِّجا قبل مجيئك إلى الجُزر؟

ـ لا، لستُ متزوجا.. وأعتبر هذا السؤال أيضا من الأمور الشخصية التي لا يحِق لك أن تسألني عنها.

وتفرَّس الضابط في وجهه وقال له:

ـ مِن واجبي أن أحذِّرك.. مُحاولتك الاعتداء جنسيًّا على تلميذتك يُعتبر أمرا في غاية الخُطورة، وإذا لم تتعاون معنا لإظهار الحقيقة، والخروج من القضية بأقل الأضرار، فقد تتسبَّب في حبْسك، وتغْريمك، وطرْدِك من الأرخبيل.

وردَّ على تحذيره بهدوء، وبكل ثِقة:

ـ تحذيرك لا يُخِيفني أبدا، لأنني أوَّلاً بريء، و ثانيا، لأنني أجبتُك على الأسئلة المُتعلِّقة بالتُّهمة المُوجَّهة إليَّ، وثالثا، لو أنني تورَّطت فِعلا في شيء كهذا، لسارعْتُ، من تلقاء نفسي، إلى تقديم استقالتي من وظيفتي كأستاذ، وغادرتُ البلد بلا أي انتظار..

ودوَّن الضابط آخر ما ردَّ به على أسئلته، وجمع أوراقه، ونادى على الحاجب ليأمره:

ـ سيبقى الأستاذ عندنا الليلة، إلى حين عرْضِه غدا على الحاكم العام.

فاحتج مصطفى عليه:

ـ ما الداعي للبقاء عندكم، وبيتي على بعد خطوات منكم؟ هل سأهْرُب؟

ـ من يدري؟! إلى أن تثبُت براءَتك.. وعملنا يقتضي هذا.

***

لم ينم في تلك الليلة إلا قليلا، وقضى أمسيَّته وليلته في ذلك المكتب، جالسا، أو مُتنقِّلا على مساحة خمسة أمْتار على خمسة، يُراقب عقربا الساعة المُثبَّتة على جدار المكتب، ويسمع تكتكاتها المُنتظَمة في هدأة الليل، ويُعاني من الحرارة الشديدة، ومن لسَعات البعُوض المُتسرِّب من وراء قُضبان النافذة، مُنشغِلا طول الوقت بالمِحنة التي حلَّت به على حين غفْلة منه، ولم يكُن يتوَقَّعُها أبدا، ولا كان مُتهيِّئا لها، ومُفكِّرا في كيفية إظهار براءته ، والخروج من التهمة بأقل الأضرار، حسب تعبير الضابط.

ورفض صحن الأرز الذي قُدِّم له، كما رفَض القهوة التي عُرِضتْ عليه في الصباح، ما عدا الماء الذي لم يستطع أن يستغني عنه. وبقي ينتظر بفارغ الصبر مقابلة الحاكم، وهو الشيء الذي لم يتم إلا في حدود الساعة الحادية عشر، حيث نُقل إلى مقر الحاكم، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يقابله فيها، بعد ما قابله رفقة السيد عبد الودود، مدير الثانوية، حينما نزل أول مرَّة بالجزيرة كأستاذ، وكوَّن عنه انطباعا حسنا، لِمَا رأى فيه من رجاحة العقل ومن التواضع. ولم يُشاهده بعد ذلك إلا حينما حضر مباراة كرة

القدم بين العسكريين القمَريِّين والتَّانزانِيِّين، بعد الشِّجار الذي وقع بينهم في فندق الهمالايا.

عندما دخل إلى مكتب الحاكم، دعاه على الفور إلى الجلوس، وطلب له قهوة وماء وعصيرا. وكان مثلما رآه في المرَّتين السابقتين، يلبس اللباس التقليدي الفضفاض، المطرَّز الصدر والحواشي، ويضع طاقية بيضاء، خفيفة، تزيِّنُها زخارف بُنِّية. ودخل معه في حديث عام، عن حرارة الجَو، وتقلُّبات الطقس، وهو ما استغربه منه، ولم يتطرَّق إلى الحادثة التي جيء به إلى مكتبه بسببها إلا بعد أن شرب الماء، وارتشف رشفات من القهوة، فطلب منه ببساطة، أن يروي له ما حدث.

وكرَّر على مسْمع الحاكم ما قاله أثناء التحقيق، وهو أنه ليس من عادته أن يدعو طلبته إلى بيته، لأي سبب من الأسباب، وخاصة الطالبات، بحكم أنه رجل أعزب، ويخشى على سمعته من الإشاعات، وأن الاستثناء الوحيد كان يوم أن زارته مجموعة منهم، ومن بينهم نعيمة، وكانوا صحبة المُنسق العام للِّجان الثورية.. ولم يُخفِ عن الحاكم تحرُّش نعيمة به، عندما طلبت الرقص معه في عرس زميلتها صونيا، بملهى عش الغراب، ولكنَّه تغاضى عن الأمر، واعتبره مُجرد مُعاكسة، من فتاة مازالت لم تتخلَّص بعدُ من طيش المُراهقة، وفسَّره بتأثير زواج زميلتها بالأستاذ لانسن البلجيكي، كما تجاهل

كل حركاتها نحوه فيما بعد، وفوجئ بها بعد ظهر أمس وهي تدخل عليه البيت، وتعرِض عليه الزَّواج، وحينما قابلها بالرفض القاطع، تلفظت في حقه بكلام غير لائق، جعله يصفعها، لكنه ندم على ذلك، لأنه ليس من عادِته استعمال العنف، مع أي كان.

ولم يقاطعه الحاكم، ولم يسأله عن أي تفصيل، إلى أن انتهى من سرد روايته، ليعلّق قائلا:

ـ إنها مَخاطر المِهنة، يا أستاذ..

وسكت لحظات ثم أضاف:

ـ عندما أخبروني هذا الصباح بالأمر، اتصلت بالسيَّد مدير الثانوية، وطلبت منه أن يحقّق مع التلميذة نعيمة، وأن يسأل عنها زميلاتها في الفصل، فأخبرني بعد ساعتين، أن التلميذة أصرَّت على اتهامها لك، ولكن اتضح للسيد عبد الودود، من الشهادات التي استمع إليها على انفراد من زميلاتها، صحة تحرُّش التلميذة المُشتكِيَّة بك، وأنها أباحت للمُقرَّبات منها بأنها تعمل من أجل الإيقاع بك. وبطبيعة الحال، كانت هذه الشهادات كلها تصبُّ في صالحك، لحسن حظك، وإذن، فالمطلوب منك أن تكون حذرا في تعاملك مستقبلا مع طلبتك، وخاصة مع البنات.

ـ بالتأكيد، سيدي الحاكم العام.

وساد الصمت بينهما، وأسعد مصطفى الكلام الذي سمعه من الحاكم، واعتبره بارقة أمل للخروج من المحنة بشرف. وقطع الحاكم الصمت، وهو يتهيأ لمغادرة مكتبه، ليقول له:

ـ أنت تعرف أن انشغالاتي كثيرة، ومهامِّي لا حصر لها، ولهذا أعوِّل عليك، وعلى السيد عبد الودود، أن تُنهِيا هذاالإشكال بالتي هي أحسن، وأطلب منك أن لا تحْمِل الضغينة في قلبك للتلمذة.

ـ لن أحمل لها أية ضغينة..

ـ أعني أن تكون عادلا معها، وتُعطيها في الاختيارات ما تستحِقُّه من العلامات..

قال ذلك ضاحكا، ثم أضاف:

ـ ... وأرجو أن لا تكون قد تأثَّرت كثيرا بإجراءات التحقيق معك، فهذه مسألة تتعلق بالضَّبط والرَّبط، مع الجميع، بدون تمييز..

ودعا العسكري الواقف خلف الباب، ليأمره:

ـ أوصلوا الأستاذ إلى بيته.

عندما دخل البيت، وكان يبدو مُتعبا، ولا يحمل محفظة في يده، ظنه عبدو وجُمان مريضا، لأنه بكَّر في الرجوع من الثانوية على غير عادته. واستغرب عبدو أمره حين طلب منه أن يُعِدَّ له فطوره، وقال له:

ـ الغداء جاهز، إذا كنت جائعا..

ـ أريد أولًا كأس عصير مُثلَّجا، وقهوة سوداء ثقيلة..

واتجه رأسا إلى الحمام، فأزال العرق عن جسمه، وحلق ذقنه، وتطيَّب، ولبس لباس البيت، وخرج إلى الصالون، ليجد القهوة والعصير في انتظاره، وسأله عبدو، بعد أن تهامس مع جُمان:

ـ هل أنت مريض، سيدي؟

ـ لا.. ولكنني متعب.. يمكنكما الذهاب الآن، إن أنهيتما عملكُما..

ـ ألا ترغب في أي شيء آخر..

ـ لا.. شكرا..

ـ إذن، عندما ترغب في الغداء، هو جاهز ومُغطًّى على مائدة السُّفرة..

ـ شكرا..

وأدرك عبدو وجُمان من كلامه المختصر، والمُقتصر على الضروري، أنه ليس مريضا، ولكنه مُعكَّر المِزاج، وأنه يرغب في الخُلوِّ بنفسه، فعجَّلا بإنهاء عملهما، وانصرفا قبل الأوان.

وجلس مصطفى في حالة استرخاء، وأمامه فنجان القهوة، يرتشِف منه بين الحين والحين، مُسترجِعا في ذهنه تفاصيل ما حدث

له لحظة بلحظة، ومحاولا أن يفهم سلوك نعيمة فيما أقْدمت عليه، ومُتسائلا عن دافع الجنون الذي استولى عليها فجأة، ودفع بها إلى التهوُّر معه، ثم ارتكاب حماقة الاشتكاء به إلى السلطات. هل هو ببساطة جنون الحب الذي لا يعرِف حدودا يقف عندها؟ أم هو الغيرة القاتلة التي أشعلت نار الحقد والضغينة في قلبها من أندريا؟ أم هو انتقام شخصي منه، بعد أن لعبت آخر أوراقها معه، ونزعت عنها ورقة التُّوت أمامه، وفشِلت في إغوائه فشلا ذريعا، فشعرت بالمهانة لشخصها، وبالاحتقار لجسدها، فقرَّرتْ، في لحظة غضب ويأس، أن تهدِم المَعْبَد على من فيه؟! أم هي كل هذه العوامل مجتمعة، التي تكون قد أسهمت في شدِّ أعصابها، وحوَّلتها إلى قُنبلة موْقوتة، أشعلتْ فتيلَها الصَّفعةُ المُهينة التي تلقَّتها منه؟ وتساءل في الأخير مع نفسه: "ترَى، ألا أتحمَّل أية مسؤولية فيما جرى؟ ألم أستهِن بما بدَر منها نحوِي؟ ألم أقابل ذلك بالتَّجاهل وعدم الاكتراث؟ أما كان الأجدر بي لو نظرتُ إلى المشكلة باعتبارها واحدة من مخاطر المِهنة، كما قال لي الحاكم، وعالجتها بحكمة منذ البداية؟ إنه لا ينبغي أن أعفي نفسي تماما من المسؤولية، وأن ألقي بها على نعيمة وحدها.

عندما صحَا من نوم القيلولة، الذي امتد معه، على غير العادة، إلى ما بعد العصر، وجُد مِلحَفة السرير تحته تقطُر عرقا،

وجسده كلَّه يَرْشح، مع الشعور بألم حادٍّ في الرأس، وقُشعريرة في كامل جسمه، وآلام في العضلات، فقام ليرُش الماء على جسده، ولكنه فقد التوازن، وكاد يسقط، فجلس على طرف السرير، وانتظر لحظات، إلى أن زالت الدَّوْخة عنه، ثم مشى نحو الحمَّام وهو يستنِد بيده على الحائط. وحينما أنهى حمَّامه السريع، ونشَّف جِسْمه، عاودَتْه القُشعْريرة، وشعر بالغثَيان، وكاد يفرغ كل الأكل الذي أكله في الغداء. وأدرك، بحكم تخصُّصه العِلمي، أنه أصيب بحُمَّى الملاريا، فسارع إلى أخذ حبَّات من دواء "المِيفلوكْوِين" المضاد لفيروس الملاريا، ثم ارتدى ملابسه، وتحامل على نفسه، وتوَجَّه إلى الصالون بخطوات مُرتبِكة، وملأ إبريقا زجاجيا كبيرا بالماء، بعد أن أضاف إليه مُكعَّبات من الثلج، وقليلا من الملح، وعصَر فيه ليْمُونَتيْن، ثم قطَّعهما في شكل دوائر ورمى بهما في الماء، وصبَّ كأسا روَّى به عطشه، وتحامل على نفسه مرة أخرى، وعاد إلى غرفة النوم، لأنه لم يكن قادرا على الجلوس، وأخذ معه إبريق الماء ليشرب منه بقدر ما يستطيع، حتى يُعوِّض ما يفقِده جسمُه من السوائل والأملاح مع العرق.

وقضى ليلته تلك في حالة من الوهن الشديد، يعاني من دوخة الرأس، وألم العضلات، وتقلُّصات البطن، ويهْذِي من شِدَّة الحُمَّى تارة، وترتعد فرائسه من البرد تارة أخرى، فيتدثَّر ببطَّانية

كانت مُهملة في الخزانة الحائطية منذ أن نزل بالجزيرة، ويُلقِي بها عند قدميه، حين تشتد حرارته، ويتصبَّب جسمه عرقا.

عندما دخلت عليه جُمان في السابعة صباحا ووجدته في تلك الحال، تأكد لها أنه مريض، وارتبكت في الأول، ولم تدر ما تفعل، ولاسيما في غياب عبدو، الذي يمرُّ كل صباح إلى السوق، ليشتري ما يلزم لغداء الفوندي، قبل أن يلتحق بعمله، ولكن حدْسها سرعان ما ألهمها بما يجب أن تفعله، فأحضرت منشفة، وأزاحت الناموسية إلى جهة من السرير، ونشَّفت له وجهه ورقبته من العرق، وتردَّدت قليلا قبل أن تبادر وتنْزع عنه قميصه القُطني، الذي كان يقطُر عرقا، ومسحت له صدره وبطنه بمنشفة أخرى مُبلَّلة بالماء، وقلَّبته على جنْبه الأيسر، ومرَّرت المنشفة على ظهره عدة مرات، فشعر بالراحة، وتركها تفعل، وكأنه طفل صغير. ثم أحضرت له قميصا آخر، وألبسته إياه، وقرَّبت منه كرسيا كان في الغرفة، وطلبت منه، باللفظ والإشارة، أن يجلس عليه، فقام بصعوبة ونفَّذ ما طلبته منه، وحينئذ نزعت الملحفة التي كان ينام عليها، وأحضرت أخرى نظيفة، وبسَطْتها على السرير، ثم أشارت إليه بالتمدُّد عليه من جديد، وغطَّته بملحفة أخرى خفيفة.

وأُعجِب بحسِّها العملي، فابتسم لها، وقال: "شكرا جُمان"، وكرَّرالشُّكر عدة مرات. ففهمت أنَّه يعلِّمها، وراحت تُردِّد ما قاله

لها، لكنه أشار إليها وقال مُوضِّحا: أنتِ تقولين: "لا شُكْر على واجب"، فكرَّرت العبارة وراءه وهي تبتسم. وخرجت، ثم عادت بعد لحظات تحمل كِمَادة، وإناءً من الماء البارد، وجلست على الكرسي عند قدميه، وأخذت تمرر الكِمَادة على باطن قدَميه، ثم انتقلت إلى باطن كفيه، وانتهت إلى تبريد جبهته، وبلَّ شعره بالماء، فأحسَّ براحة أكثر، ودبَّ النشاط في جسمه، فجلس في السرير، فأتت له بمخدة أخرى وضعتها وراء ظهره، ووقفت تبتسم له، وقد ظهر الارتياح على وجهها مما قامت به.

في هذه الأثناء دخل عبدو قادما من السوق، مُحمَّلا بالتَّموين الذي يحتاج إليه البيت، فنادته جُمان من غرفة النوم، وفوجئ بمرض "الفوندي" مثلها عندما دخلتْ. وطلب منه مصطفى أن يشكُر جُمان على تمريضها له، وأن يقول لها: أنتِ مُمرِّضة ممتازة. فبَان السُّرور على وجهها حينما ترجم لها عبدو ما قاله.

وسأله عبدو إن كان يرغب في أكل أي شيء، فطلب منه أن يأتيه بكوب كبير من عصير البرتقال، ويُكلِّف جُمان بإعداد بيْضتين مقليَّتين له في الزُّبدة، مع فنجان شاي ساخن. وأعفاه من إعداد الغداء في هذا اليوم، وطلب منه أن ينزل إلى الثانوية، ليُخبر المُراقب العام، أو المدير، بأنه مصابٌ بالملاريا، ولذلك لم

يحضر للتَّدريس في ذلك الصباح، وأنه لن يقدِر، دون شك، على الحضور غدا، وربما بعد غد.

وأتت له جُمان بالفطور الذي طلبه إلى السرير، ثم انصرفت لتغسل له قميصه وملاءة السرير المبلولَيْن بالعرق، فأكل وشرب، ثم أخذه النوم فنام. وفتح عينيه عندما داهمته موْجة أخرى من الحُمَّى، ووجد جُمان جالسة إلى جانبه، تنتظر أن يصحو من نومه، وقد غطَّته بالبطانية حينما لاحظت أنه يرتعِد من البرد أثناء نومه. ووجد قميصه وفراشه مُبتلَّين بالعرق مرة أخرى، وعندئذ أعادت جُمان الكرَّة، فنشَّفت له عرق جبينه ورقبته، ثم غيَّرت له القميص والملحفة، ونشَّفت له صدره وظهره، وبرَّدت له باطن قدميه ويديه، فشعر نحوها بامتنان كبير، وراح يتأمَّلها وهي تُكمِّد له أطرافه، مما جعلها تشعر، في لحظة ما، بالحرج من نظراته، فابتسم لها، وأدار وجهه إلى الجهة الأخرى ليُزيل عنها الحرج.

وعندما قاربت الساعة منتصف النهار، وكان قد شرب الكثير من السوائل، وأحس بتحسُّن في حالته، طلب من جمان الانصراف إلى بيتها، غير أنها ردَّت عليه بكلام، فهم منه أنها تقول له: أنت مريض، وتحتاج إلى من يرعاك في مرضك، فألح عليها في الانصراف، مُنتهِزا الفُرصة ليعلِّمها عبارة: "أنا بخير.. يُمكنك الانصراف"، متبوعة بالإشارة المُساعِدة على فهمها، فردَّدت معه العبارة، ثم قامت،

ولبست شيرومانها، وودَّعته بالعبارة البسيطة التي تعلَّمتها من عبدو، وصارت تردِّدها كل يوم عند الانصراف: "إلى اللقاء، فوندي".

***

قبل غروب الشمس بقليل، ومن غرفة النوم، سمع استِدارة المِفتاح في باب البيت، وفوجئ بجُمان تدخل عليه مبتسمة، وتسأله بلغتها "كيف حالك؟"، وسألها من جهته مُندهِشا "لماذا رجَعْتِ؟"، وفهم منها، على وجه التقريب، أنها قلقة عليه، وجاءت لتُساعده فيما يكون في حاجة إليه. وبادرتْ في الحين فطلبت منه تغيير القميص والملحفة، وبعد ذلك رفعت الكوب وإبريق الماء الذي كان على منضدة السرير إلى جانبه، وجدَّدت له الماء، وأضافت إليه الثلج والليمون، وأتته بكوب آخر، وقنِّينة عصير، ومِنديل. وغابت عنه دقائق، ثم جاءته بصحن من ثمر "البابَّاي" النَّاضج، كانت قد قطَّعته في شكل مُكعَّبات قبل انصرافها عند الظهر، ووضعته في البرَّاد، فتناول الشَّوكة وذاق قطعة منه، فأعجبه مذاقه الحلو، وأنعشته برودته في ذلك الحَر الشديد، فأتى على كل ما كان في الصحن، لأن معِدته كانت فارغة، ولم يأكل شيئا، ماعدا البيضتين المقليَّتين اللتين أعدَّتهما له في الصباح، ثم استسلم بعد ذلك للنوم.

وكان يُحِس بيدها وهي تمسحُ له عرقه بين الحين والآخر، وتبدو له هيئتها، من خلال الضوء الخافت للغرفة، وهي تُشرف عليه، وتضع الكِمادة المُبلَّلة على جبهته، فيريحه ذلك، ويجعله يستلذ النوم أكثر، لكنه اضطر إلى النهوض من سريره قاصدا الحمَّام، بسبب الماء الكثير الذي شربه، والباباي الذي أكله، ويحتوي هو الآخر على نسبة عالية من الماء، فوجد جُمان نائمة على الكرسي، في الجهة الأخرى من السرير، مُسنِدة رأسها إلى الحائط خلفها، فتأثَّر برؤيتها على تلك الحال، ورأى في ذلك نموذجا رائعا لتفانيها في خدمته، ودليلا على قلبها الطيِّب، ومعدنها الأصيل. وحاول أن يتسلَّل إلى الحمام دون أن يُوقظها، ولكنه فقد توازنه عندما وقف، فلاذ بالخزانة، وأحدث ضجَّة صغيرة جعلتها تنتبه، فأسرعت إليه تُسنِده، وقادته إلى الحمَّام، وانتظرته، لتعود به إلى سريره.

وفهمت قصده حينما قال لها: "اذهبي إلى الصالون، ونامي على الأريكة"، ولكنها أبتْ إلا أن تبقى جالسة على الكرسي، إلى جانب سريره. وبقي مستيقظا مدة لا يدري كم طالت، يُفكر في سلوك جُمان الإنساني نحوه، وتساءل أثناء ذلك مع نفسه: "هل ترى لو كنتُ متزوِّجا، أكانت الزوجة ستقوم بأكثر مما قامت به جُمان نحوي؟! إنها حقا نموذج مثالي للمرأة التي تمتلك قلبا كبيرا،

وتشعر بالمسؤولية التلقائية إزاء من يكون في حاجة إلى مساعدتها!"، وفكَّر أنها تكون قد غادرت عند الظهر من أجل أن تستأذن أمها، لتعود إليه في المساء، فزاد إكباره لها، وشعر بالرِّضا عن نفسه، لأن حدسه لم يخطئ في تقديره حين رآها أول مرة عند دُكان محمد بحر الصفاء، وأعجِب بها، بل، فُتِن بها، على الرغم من هيئتها المُزرية التي كانت عليها، وقال في نفسه آنذاك، إنه لا يمكن لهذه الصورة الجميلة إلا أن تحمل روحا شفَّافة، وقلبا يفيض بالعواطف النبيلة، ينسجمان مع صورتها الظاهرة، وها هو ذا يكتشف ذلك بشكل ملموس.

واستعاد في ذهنه مَلمس يدها حين أمسكت بكفِّه المُلتهِبة، فنزلت بردا وسلاما على قلبه، واستعاد في مخيِّلته أيضا اتصال جسدها الدافئ بجسده المُتَّقِد حين أسندته وقادته إلى الحمام، وأنفاسها وهي تُداعب خدَّه وجبهته. وابتسم مع نفسه حين تذكَّر أنها تكاد تُساويه طولا. وأخذه النوم في الأخير وهو يتلذَّذ بهذه المشاعر والاستذكارات، ورأى، فيما يشبه الحُلم، أنها عادت وأمسكت بيده، فمسَّت بلمساتها شغاف قلبه، فاستسلم لهذا الإحساس الجميل، ولم يستيقظ من حلمه إلا في الصباح.

***

واضَبت جُمان على العناية به، وعلى قضاء الليل إلى جانب سريره طيلة ثلاثة أيام، تمرِّضه، وتُطعِمه، وتسقيه، فبدأ في اليوم الثالث يتماثل للشفاء، وأصبح في إمكانه أن يذهب إلى الحمَّام دون مساعدة منها، وصار يرُشُّ جسده بالماء الدافئ في الحمام **كلما** فاجأته الحُمَّى، ليتبرَّد، ويُزيل عنه العرق.

في اليوم الثالث هذا، وكان يوم سبت، جاءت أندريا بعد العصر لزيارته. ومنذ الوهلة الأولى لاحظ مصطفى أنها انزعجت انزعاجا شديدا من وجود جُمان معه، على الرغم من أن جُمان كانت قد استقبلتها استقبالا حسنا، وقدَّمت لها العصير مع مصطفى في غرفة نومه، وعرضتْ عليها القهوة أو الشاي، ولكن أندريا رفضت عرضها بشيء من الجفاء. وبعد أن انصرفت جمان سألت مصطفى في استغراب:

ـ ماذا تفعل هذه هنا؟!

ـ تخدِمُني، كما ترين.

ـ هل طردتَ خادِمك؟

ـ لديَّ الآن طاهٍ وخادمة.

وفكَّرت لحظة ثم اقترحت عليه:

ـ يُمكِنكَ صَرْفُها إلى بيتها، وسأتولَّى أنا العِناية بِك.

وتظاهر بخُلوِّ البال مِن انزعاجها، ومِمَّا راود خيالها إزاء جُمان، وشكرها على عرضها:

ـ تحسَّنَتْ حالتي اليوم، كما ترين، ولم أعد في حاجة إلى مساعدة.. وأنوِي العودة يوم الاثنين إلى عملي في الثانوية.

وساد الصمت بينهما، قطَعتْه أندريا بعد لحظات بنبرة لوْم له:

ـ انتظرتُ رجوعك في اليوم التالي، بعد أن خرجت من عندي مُغضبًا، ولكنك كنت قاسيا ولم ترجع..

ـ أنا متأسف جدًّا.. الحقيقة أنني كنت قد عزمتُ على زيارتك، ولكن مرضِي مَنعَني من المجيء.

ونظرت إليه في شك، ثم قالت:

ـ... مرضك، أو لأنك كنت في الحجز..

واندهش من بلوغها خبر حبسه، ولكنه لم يسألها عمن أخبرها به، وأجابها:

ـ بقيت في الحجز ليلة واحدة ..

ـ هل صحيح أنك حاولتَ إغواء تلميذتك؟

ـ وهل صدَّقتِ أنتِ الإشاعة؟!

وتجاهلت سؤاله وسألت:

ـ .. ولماذا دعوْتَ تلميذتك إذن إلى بيتك؟!

وظهر الانزعاج على وجهه، وأجابها غاضبا:

ـ وكيف خطر ببالك أنني أنا الذي دعوْتُها؟

وسكت لحظة، شرب أثناءها جرعة ماء، ثم أضاف:

ـ أرجوك، أندريا.. هذا الموضوع انتهى، ولا أريد الخوض فيه، إذْ لو كانت التُّهمة التي وُجِّهت إليَّ صحيحة، لما أطلِق سراحي بهذه البساطة..

ـ إذن، خبِّرني...

فقاطعها: بل، خبِّريني أنت، هل ذهبتِ عند السيدة إفلين؟

ـ لا..

وحرَّك رأسه في أسف وعلَّق:

ـ إذن، أنتِ مُصِرَّة...

ـ لا، أنا لست مُصرَّة، ولكن، كانت عادتي الشهرية قد تأخَّرت عن موعدها، وهذا كل ما في الأمر..

وراحت تتأمل رد فعله من خلال ملامحه.. وشعر في دخيلة نفسه بارتياح شديد، ولكنه لم يقل شيئا..

ـ سأنتظرك إذن، ليلة الاثنين؟

ـ إذا كنتُ قد تعافيتُ تماما..

وردَّت مازِحة:

ـ تعالَ ولا تهتم، سأعرف كيف أجعلك تتعافى تماما.

ـ لكن، علينا أن نحترس في المستقبل، حتى لا يتكرَّر معك كابوس الحَمْل..

وقامت من الكرسي، وجلست على حافة السرير إلى جانبه، وطوَّقت رقبته لتقول له في رقَّة ودلال:

ـ في المستقبل، لا أريده أن يكون كابوسا، بل أريده أن يكون حلما جميلا..

ونظر في عينيها، وسأل:

ـ لم أفهم؟ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أنني لن أخجل بحَمْلي حينما أكون زوجة لك، بصفة رسمية.

ولم يعلِّق على قولها بشيء، وظل صامتا، مُفكِّرا..

ـ أراك صامتا، ألا ترُد؟

ـ ماذا أقول؟! فأنت قلتِ كل شيء!

ـ ألست معي في هذا؟ ألا نتزوَّج؟

وأطرق مفكرا لحظة ثم أجابها:

ـ عندنا في البلد مثلٌ شعبي يقول ما ترْجَمَتُه: "زواج ليلة يحتاج إلى تدبير عام".

ـ هل أفهم من مثلكم الشعبي أنَّ عليَّ أن أنتظر عاما لِتُوافق؟!

ولم يجبها بشكل مباشر، وراح يُناقشها في المبدأ نفسه، موضّحا أنه لم يسبق لهما أن طرحا مسألة الزواج، ولم يتفقا عليه، ولم يناقشا مصير الأولاد الذين سيأتون من هذا الزواج، ولا أين سينشأون، ولا أين سيقيمون.

وصارحته في شيء من الحِدَّة:

ـ أعتبر هذا كلُّه لفًّا ودورانا حول الموضوع، مع أن المسألة ليست بكل هذا التعقيد..

ولم يشأ أن يجاريها في حِدَّة اللهجة. ولا أن يُفحِمها بأسئلة حول موضوعات تفرّق بينه وبينها، على الرغم من عِلمانيَّته، وعدم تديُّنه، بدا له أنها خالية الذهن منها، فاكتفى بالرد عليها باختصار شديد: "سأفكِّر في الأمر".

***

11

درسٌ عن وباء المَلاريا

في صبيحة الاثنين لم يكن مصطفى قد استعاد كل قوَّته، ومع ذلك تحامل على نفسه وقرَّر النزول إلى العمل، حِرْصا منه على مصلحة طلبته، الذين أضاعوا عدة دروس معه بسبب مرضه، فاستقبله أغلب الزُّملاء الذين قابلهم في قاعة الأساتذة بالسؤال عن سبب غيابه، وأعرب عن امتنانه لكل من اعتذر له عن عدم زيارته له لأنه لم يعلم بمرضه، ولكن، لا أحد منهم سأله عن توقيف الدَّرك له، تجنُّبا للحرج، حسب ما فكَّر مع نفسه، لأنه كان على يقين أنهم يعلمون الخبر، ويعلمون السَّبب أيضا، إذ لا شيء يخفَى في مجتمع مدينة موتسامودو الصغيرة، مهما صغُر حجمه، أو قلَّ شأنه.

عندما دخل على الطلبة، رأى من المفيد أن يستأنف عمله معهم بمُراجعة درس البعُوضة المسبِّبة للملاريا، الذي كان من أوائل الدروس التي أعطاها لهم في بداية العام الدِّراسي، ولم يكن غرضه من المُراجعة علميًّا فحسب، ولكنه كان يهدف أيضا إلى إعلام

طُلابه بمرضِه، من أجل تبديد الشُّكوك في أذهانهم عن بقائه في الحجْز طوال الأيام التي غاب فيها عن الثانوية. وكان يُدرك أنهم يعلمون بواقعة ما جرى مع نعيمة، وبالشَّكوى التي تقدمت بها إلى الدرك ضِدَّه. ومن أول وهلة، كان قد لاحظ غياب نعيمة عن الدرس في هذا اليوم، مما جعله يفترض أن شعورها بالخجل منه ومن زملائها، وندمها على اتهامه بمحاولة الاعتداء عليها هو سبب غيابها، بعد أن ظهرت الحقيقة، وكشفت بعض المُقرَّبات منها أمرها.

لم يتوقف في درسه طويلا عند مواصفات البعوضة المسبِّبة للملاريا، ولا عند الأعراض التي تُصاحب الإصابة بالمرض، ولا عند فتْك فيروسات الملاريا بالكُريَّات الحمراء في دم المريض، لأنه سبق أن شرح كل هذا في درسه السابق بالتفصيل، ولكنه أعطى الأهمية للوقاية من المرض، ولوسائل مكافحة البعوض، وركَّز، بالأخص، على الإحصائيات التي تتحدَّث عن انتشار وباء الملاريا في العالم، وعن إصابته لملايين البشر كل سنة، وتسبُّبه في وفاة عشرات الآلاف منهم، في عشرات البلدان الواقعة في المناطق المدارية الشديدة الحرارة والرُّطوبة ـ ومنها أرخبيل القمر وما جاوره من الجزر ـ التي تشكِّل حزاما يحيط بالكرة الأرضية، ويزيد عددُها عن تسعين بلدا في القارات الأربع.

والواقع، أن هذا كان دِيْدَنه في دروسه كلها، فهو لا يقدِّم المادة العلمية تقديما جافا، ويأبى إلا أن يربطها دائما بالواقع الاجتماعي، وبالبيئة الطبيعية، من أجل أن يخرج الطلبة بنتائج ملموسة، توسِّع من دائرة معرفتهم بمحيطهم، وتُفيدهم في حياتهم العمليَّة، وتدفعهم إلى إعادة التفكير في كثير من المسائل التي تعوَّدوا على النظر إليها كمُسلَّمات لا نقاش فيها، غير أن طلبته في هذه المرة، أحسوا أن أستاذهم يبالغ في وصف خطورة الملاريا، لأنهم مرضوا بها كلهم، وخرجوا منها سالمين مُعافين، بل، واكتسبوا مناعة طبيعية ضِدَّها، ولم يعودوا يمرضون بها، وتعجَّبوا حين أخبرهم أنه يُصاب لأول مرة في حياته بهذا المرض، ونظروا إليه وكأنه قادم من كوْكب آخر، ولكن ما أدهشهم أكثر هو سؤاله عن نعيمة في نهاية الدرس، وطلبُه من من زميلاتها السؤال عنها، والاطمئنان عليها، لعلها تكون مريضة. فتجرأ خالد، وعلق على سؤاله بقوله:

ـ الأكيد أنها ليست مريضة بالملاريا..

فانفجرت القاعة ضحِكا، وتجاهل الأستاذ دافِع الضَّحك، وكذا التوريَّة التي انطوى عليها تعليق خالد، وقال لهم وهو يجمع أوراقه، ويتهيأ للخروج:

ـ في جميع الأحوال، يجب عليكم أن تسألوا عن زميلاتكم وزُملائكم حين يغيبون..

وبطبيعة الحال، كان الأستاذ مصطفى يهدف من السؤال عن نعيمة، إلى إعطاء طلبته درسا في التسامح، باعتباره مُربّيا قبل أن يكون مُعلّما، ويدعوهم، بطريقة غير مباشرة، إلى تجاوُز أخطاء الآخرين في حقّهم، والصَّفح عمَّن يسيء إليهم، كما كان يهدف أيضا إلى التخفيف من أثر النَّدم على نفسية نعيمة حين تُبلَّغ بسؤال الأستاذ عنها، مما سيرفع معنوياتها، ويُزيل عنها الحرج، ويسهِّل عليها العودة إلى الدراسة.

عندما أنهى دروسه في منتصف النهار، اتجه إلى بقَّالة السيد طاكي، لشراء المجلَّات الأسبوعية، واشترى لجُمان غَسولا للشعر، وصابونا فاخرا، وزجاجة عطر، جزاء لها على عنايتها به في مرضه، وسهرها الليالي إلى جانب سريره، تطوُّعا منها، وإخلاصا في خدمته، ولم يستَثْنِ عبدو، فاشترى له حامل مفاتيح، بحلقة معدنية مطليَّة بمادة الكَرُوم، في غاية الأناقة. ولم يفته أن يسأل السيد طاكي، حين واتته الفرصة، عن أخبار السيد موريس، فبصق على يمينه كعادته وغمغم: "أطلقوا سراحه بعد أن بهْدلوه، وعبث الصِّبيان بلحيته، ولم يثبتوا عليه أي تهريب للأموال".

واستقل في عودته إلى هومبو سيارة أجْرة، لأنه مازال يشعُر بالوَهن من أثر المرض. ووجد عبدو وجُمان ينتظرانه، وقد أعدَّا له

مائدة غداء استثنائية، ونوعيَّة، تزيد بكثير عن حاجة مريض مازال في مرحلة النَّقاهة، فسألهما مازحا:

ـ هل أخبرتُكما أنني سأستقبل ضُيوفًا على الغَداء؟!

وردَّ عليه عبدو، بعد أن فهم النُّكتة وترجمها لجُمان:

ـ تتغذَّى جيِّدا، لتستعيد عافيتك بسرعة..

وفرحا كثيرا بالهدية التي قدَّمها لهما، واستأذناه بعدها في الانصراف، فطلب من عبدو أن يكلِّم جُمان بالفرنسية منذ ذلك الحين، حتى يسْهُل عليه التفاهم معها، دون الحاجة إلى ترجمته. وترجم عبدو لجُمان ما قاله، فسُرَّت بذلك، وعبَّرت عن موافقتها بحركة من الرأس، وبابتسامة عريضة على محيَّاها.

***

لم يغِب عن ذهن مصطفى أن أندريا كانت تأمل أن يبيت عندها ليلة الاثنين، لكنه خيَّب أملها، وانتظرته ليلة الثلاثاء، بقلق دون شك، وخاب أملها مرة أخرى، أمَّا ليلة الأربعاء، فيكون اليأس قد بدأ يدِبُّ في قلبها من حضوره. وكان قد فكَّر مَليًّا فيما قالته عند زيارتها له عشيَّة السبت، فرأى فيه حلقة أخرى من حلقات الاختبار التي ما فَتِئت تختبره بها بين الحين والآخر، للتأكد من مدى صدق

نيَّته نحوها، بل رأى فيه أكثر من مجرد اختبار للنيَّة في هذه المرة، وإنما هو نوع من الابتزاز الخفِي، وتهديد مُستمِرٌّ له بموضوع الحَمْل، الحقيقي أو الكاذب، لتُخَيِّره، متى شاءت، بين الزَّواج الرسمي أو الفضيحة، ولهذا كله قرَّر أن يضع حدا لعلاقة تجعله رهينة لامرأة، ولعبة بين يديها.

وكان في مناسبات فائتة قد لاحظ أنها تحاول أن تختبر عقيدته الدينية، لتتأكد إن كان مُتخَلِّيًا عنها بلا رجعة كما بدا لها، أم أنها مازالت مُتغلغِلة في أعماقه، وتؤثر عليه في مواقف معيَّنة، ويمكن أن تحُول في يوم ما دونه ودون الارتباط بها رسميا، وقد شهد لها في نفسه بالذكاء وسِعة الحيلة، ولكنه شعر بشيء من الإشفاق عليها، لأنها كانت تلعب مع من يتجاوزها بكثير خبرة وحيلة، وذلك حينما يجد نفسه مضطرا إلى استعمالهما، وتأسَّف لمحاولاتها التي أوقعتها، دون أن تدري، في التعصب الديني الذي تخشاه منه، وكانت آخر محاولاتها تلك، قبل ادعائها أنها حامل، حين قدَّمت له شرائح من لحم الخنزير، كان السيد جورج قد أتى بها من مدغشقر، فرفض أكلها، وبات جائِعا، وهو ما جعلها تُصارحُه بأنه "لم يتخلَّص بعدُ من مُعتقداته الدِّينية". ووجد نفسه مُضطرًّا إلى أن يشرح لها "بأن شُربه الكُحول، وعدم قيامه بواجباته الدينية، ومُعاشَرته لها دون زواج، لا يعني أنه مُرتدٌّ عن دينه، أما أكل الخنزير فهي مسألة تعافها نفسه"، وأحرجها حين سألها: هل أنت مُرتدَّة عن ديانتك

المسيحية؟! فأجابته بعد تردُّد "لا"، وهل تذهبين إلى الكنيسة وتُمارسين الشّعائر الدينية؟ فأجابت "لا". وحينئذ سكت، وتركها تستنتج ما تشاء.

بعد أن استيقظ من قيلولته، التي طالت أكثر من العادة، دق عليه ميدو الباب، وكان يحمل سلة صغيرة، فيها جرادات بحرية، وقال له بعد أن استقر به المجلس في الصالون:

ـ هذا ما تركتْه لنا الخنازير من حصيلة صيْدنا في هذا اليوم..

ـ عن أية خنازير تتحدث؟! ساله مصطفى وهو يضع أمامه كوب العصير..

ـ الخنازير ذات البِدَل الكاكيَّة، التي تحمل البنادق وترعب بها الصيادين..

وضحك ميدو ضحكته المُدويَّة، من الشتيمة التي يستعمِلها صيَّادو السمك فيما بينهم، لوصف الجنود الذين ينتظرون عودتهم في المساء، ليستولوا على حصيلة ما اصطادوه، وقال مُوضِّحا:

ـ يأخذون منا الأسماك، ويسلِّموننا أوراقا مختومة، ويطلبون منا أن نذهب بها إلى الحاكم العام، ليدفع لنا ثمنها من خزينة الحكومة، وجنابُ الحاكم يكرِّر لنا في كل مرة أن الخزينة فارغة، ويطالبنا بالصبر إلى حين توفُّر المال.

وأتى ميدو على كوب العصير، ثم سأل:

ـ أراك اليوم تلازم البيت، ولم تخرج لتلعب بالكُوَر الحديدية مع جماعتك؟!

ـ لأنني مازلتُ أعاني من الوهن من أثر الملاريا..

ـ لم أعلم بمرضك.. إذن أتركك ترتاح.

وقام ميدو لينصرف، ولكن مصطفى طلب منه أن يجلس ثانية، وسأله:

ـ كم يلزمك ثمنا للجرادات؟

ـ ولا فرنك واحد..

ـ هذا لا يصح.. قلت لي قبل قليل أنهم أخذوا منكم كل حصيلة يومكم من السمك في هذا اليوم..

ـ وعلى الرغم من هذا لن آخذ منك فرنكا واحدا..

وألحَّ عليه مصطفى، فصمَّم على الرفض، وحينئذ جاءته فكرة، فطلب منه الجلوس وقال له:

ـ أعرف أنك راجع من البحر، ولم تأكل شيئا، وعندي طعام كثير بقي من الغداء.. اجلس، وكُل، ثم انصرف.

وتردَّد ميدو قليلا في قبول الدعوة، ثم قبِلَها لأنه كان جائعا حقا، ولا يدري إن كان سيجد في بيته شيئا يأكله. وأخرج مصطفى من البرَّاد كل ما احتفظ به من طعام الغَداء، ووضعه أمامه.

وضحك ميدو ضحكته العالية، المُميَّزة وعلَّق:

ـ هذا طعام كثير، يكفي لثلاثة أو أربعة أشخاص!!

ـ كُلْهُ كلَّه إن استطعتَ، لأنني مازلت أفتقد الشهية بسبب المرض..

وشجَّع ميدو ما قاله مصطفى، فأتى على معظم ما وُضِع أمامه من طعام، وغادر شبعان، ريَّان، شاكرا للفوندي عظيم كرمه.

***

عقب تماثُلِه للشفاء، ذهب لزيارة الدكتور "أبوبَكَر" في المشفَى، من أجل أن يقدِّم له النُّصح عن كيفية الوقاية من الملاريا مُستقبلا، ويصف له دواء جديدا مناسبا لمرحلة ما بعد المرض. وفي الطريق إلى المستشفى، استرجع في ذهنه تمريض جُمان له بكل ذلك الاهتمام، وكل تلك العناية، ورأى أنها تتمتَّع بمواهب في مجال التمريض، وتأسف أن تضيع مواهبها هذرا، ولا تتعلم التمريض على أصول. وهنا خطرت بباله فكرة، وهي أن يسأل الدكتور

أبوبكر عن إمكانية تشغيلها في المشفَى كمتطوِّعة، يومين أو ثلاثا في الأسبوع، تتدرَّب فيها على أعمال التمريض.

وواتته الفرصة حينما سأله الدكتور أبوبَكَر عمَّن رعاه في مرضه، لعلمه أنه غير مُتزوِّج، فأخبره بما فعلته جُمان معه طوال أيام مرضه، وعرض عليه فكرة تشغيلها في المستشفى كمتطوِّعة، بعد أن أطرَى مواهبها، وإخلاصها في عملها، فرد عليه الدكتور بقوله:

ـ لوكنا نملك ميزانية، لوظَّفناها في المستشفى بصفة رسمية، لأننا في حاجة إلى مُمرِّضات.

ـ هل أفهم من هذا أن لا مانع عندك من تشغيلها كمتطوِّعة؟

ـ لا مانع عندي.. تستطيع أن تأتي منذ الغد إذا شاءت.

وفي طريق العودة إلى المنزل، راح يُفكر في الكيفية التي يُقنع بها جُمان بفكرته، لأنها جاءت وليدة اللحظة، وخشي أن تضيع الفرصة منها إنْ هو أجَّلها إلى ما بعد استشارتها. وبدا له أن إقناعها لن يكون صعبا، وخاصة إذا شرح لها أن أجرة عملها في بيته لن تُمس.

عندما رجع من عمله في ظهيرة اليوم التالي، عرض فكرته على جُمان، وترجم لها عبدو أهمية أن تتعلَّم أصول التَّمريض، وتتدرَّب على كيفية العناية بالمرضى، وأفهمها أن عملها في

المستشفى سيكون بالتناوب مع عملها في بيته، يوما بيوم، دون أن ينقص من أجرها فرنكا واحدا. فاستمعت بعناية لشرحه، وأعجبتها الفكرة، ولكنها أرجَأت المُوافقة إلى ما بعد استشارة أمها في الأمر، فزاد إعجابه برجاحة عقلها، وبصواب رأيها في استشارة أمِّها.

وباشرت عملها في المستشفَى بعد يومين، وسُرَّ مصطفى بذلك، وتوقَّع أن يحصل لها تقدُّم مُهم في حياتها، غير أن هناك مسألة مهمة ظلت تشغله، وهو أن أميَّتها ستقف عائقا في طريق تقدُّمها، وبعد أن فكر في الأمر مليا، عرض عليها أن تتأخر في الانصراف من عملها ساعة واحدة يوميا، ليُعلِّمها، بعد رجوعه من الثانوية، القراءة والكتابة والحساب. واحتاجت أن تستشير أُمَّها في ذلك، كالعادة، وأخذت موافقتها، مما جعله يستنتج أنها أمٌّ حكيمة، وتريد لابنتها الخير.

واكتشف مصطفى أن جُمان لم تكن أميَّة بالكامل، فقد سبق لها أن دخلت المدرسة الابتدائية في سن الطفولة، ثم انقطعت عن التعليم، ونسيت الكثير مما تعلَّمته، هذا ما عرفه منها حين سألها بواسطة عبدو. وساعدته هذه القاعدة التعليمية على جعلها تستعيد بسرعة ما تعلَّمته، وتتقدم في تعلُّمها بخطوات كبيرة. غير أنه واجه مشكلة لم يحسب لها حسابها، وسبَّبت له حرجا شديدا، نتج عن كيفية جلوسهما أثناء الدرس، فقد كانت تجلس إلى جانبه،

ولا يفصل جسدها عن جسده إلا بضعة سنتيمنرات، ويجعل ساقَها تلتقي بساقِه العاري تحت الطاولة. ووجد لهذه الوضعية الأخيرة حلًّا، حين عوَّض البنطلون القصير ببنطلون رياضي طويل، يمنع احتكاك ساقها بساقه بشكل مباشر، إلا أنه لم يجد لأنفاسها التي كانت تلتقي بأنفاسه حلًّا، فتُدغدِغ حاسة شمِّه برائحة القرنفل الذي كانت تُداوِم على مضغه، ويُشعره بلذة غامضة يعجز عن صدِّها، كما كان صدرُها الممتلئ يستفِزُّ نظره، ويتحدَّاه بإغراء لا يقاوم، فيجد العنَت الشديد في كبح جِماح نفسه، وفي التغلُّب على ما يثيره فيها من توتُّرات.

وبعد أن تكرَّرت الجلسات التعليمية معها، لاحظ تغيُّرا واضحا في سلوك جمان، إذْ صارت تعتني بنفسها أكثر من المُعتاد، فتتزيَّن، وتتعطَّر بالعطر الذي أهداه إيَّاها، ولم تعُد تشعُر بالحرج حين تلتصق به مثلما كانت من قبل، كما صارت منذ أيام قلائل تضع زهرات من الياسمين في فراشه، وعلى وِسادته، وفلجأها ذات مرة وهي تشُم قُمصانه وتقبِّلها، وهذا ما أشْعره أنها بدأت تعشقُه، وهو ما يؤثر على مشروع تعليمها، ويخلق له مشكلة.

وأحسَّ بمسؤوليته في هذا التحوُّل الذي طرأ على سلوكها، إذْ من الطبيعي أن يحدث لها هذا ما دام قد دأب على إطراء خصالها، وإظهار الإعجاب بها، وإسماعها ما يُشبه الغزَل في مناسبات مختلفة،

وهاهوَ ذا يتقدَّم خطوة أخرى في الاقتراب منها، حين صار يختلي بها كل يوم ساعة بداعي تعليمها، غافلا عمّا ينتج عن ذلك من احتكاك، وناسيا أنها، مثل أية امرأة، لها مشاعر وأحاسيس، وتحب وتكره، وترغب في أن تكون جميلة ومُغرية، وأن تثير اهتمام الرجل بها، وتُلفِت نظره إليها، ولاسيما إذا لقِيَت منه اهتماما وتجاوُبًا.

ووقع في حيرة من أمره، وراح يتساءل: ترى هل هذا خطأُها أم خطئي أنا وحدي؟ لماذا لم أفكر في كل هذا ولم أتوقَّع حدوثه منذ البداية؟ لماذا غفَلتُ عن حقيقة أنني أتعامل مع إنسانة لها قلب، ولها مشاعر؟ هل عليَّ أن أتراجع الآن؟ ولكن كيف لي أن أبرِّر التراجع مع نفسي، ثم معها؟ وما الدافع إليه في نهاية الأمر؟ أهو الخوف مما قد يحدث؟ أم هو التعالي وكِبَر النفس من النزول إلى مستوى هذه المخلوقة الطيبة؟ ثم، هل فكَّرت في انعكاسات تراجعي على نفسيَّتها؟ وهل تصوَّرت كيف سيكون ردُّ فعلها؟ وكيف ستنظر إلي بعد كل هذه الإغراءات التي أغريْتُها بها ثم قطعت الحبل؟!

وانتهى به التفكير والتساؤل إلى أن تراجعه سيكون عبثا، وسوء تصرف، وظلما لها، واستهتارا بمشاعرها، فقرَّر أن يمضي فيما شرع فيه، واقتنع بأهميته وجدْواه، وليَكُن ما يكون. وأضاف مُحدِّثا نفسه: ...ثم ما الداعي إلى هذا الخوف؟ وما الضرر أن تُحبني؟ وما

المانع أن أحبها؟ فليس فيها ما يُعاب، وقد حبَاها الله بجمال الصورة، وحُسن الخُلق، ومنحها صفاء السريرة، وطيبة النفس، حتى إنها لتبدو لي أحيانا أقرب إلى براءة الأطفال وسذاجتهم!

وتذكَّر أول لقاء له بها أمام دكان محمد بحر الصفاء، وكيف فُتِن بجمالها الطبيعي منذ اللحظة التي وقعت عينه عليها، وكيف سحرته بابتساماتها، وحرَّكت في نفسه كل ما يجذب الرجل نحو المرأة، ويجعله مبهورا بها، وكيف ذهب به الخيال كل مذهب، إعجابا بها، فتمنَّى أن لو كان أميرا، أو رجلا غنيًّا، حتى ينقذها من وضعها البائس، ويعمل على إسعادها، وانتشالها من حمأة الفقر والحاجة.

وتنبَّه في هذه اللحظة إلى أنه قام بدور الأمير أو الرجل الغني دون أن يدري، منذ ذلك اليوم الذي عرَض عليها التخلي عن العمل الشاق في غابات الموز، لتعمل في بيته، فغيَّر حالها إلى الأفضل بكثير، فكيف له الآن أن يتخلَّى عن هذا الدور، ولا يمضي فيه إلى آخر المشوار؟!

***

بقاعة الأساتذة، في فترة الاستراحة، سمع الأستاذ لامبير، بمحض المُصادفة، يتحدث مع الأستاذ خليل الحارثي، بنبرة أسف، عن انفصال صونيا عن أرتور، فاستغرب الأمر، لشدة ما كانا عليه من

تعلَّق ببعضهما بعضا، ولكنه لم يحشر نفسه في الحديث. وعلَّق الحارثي على الخبر بحكم غير قابل للنقض:

ـ كلُّهُن جنس نْمرود.. ما فيه أمان..

ـ أنا شخصيا أدرك هذا جيِّدا، ولذلك لم أتزوَّج، ولن أتزوَّج..

ـ هذا أفضل لك.. لن تندم أبدا..

وتوقَّف الحديث بينهما عند هذا الحد، وانصرف كلاهما لترتيب أوراقه للدرس التالي..

وتذكَّر مصطفى أنه لم يشاهد صونيا وأرتور معا منذ مباراة الكُوَر الحديدية، وكانا من قبل مُتلازمين كالشَّيء وظِلِّه، ولشيء ما في نفسه، انصرف ذهنه عن التفكير في سبب انفصالهما، إلى لذة الشعور الذي غمره يومها بالانتصار على فريق أرتور، نِكاية في صونيا، بعد أن حشرت نفسها في موضوع نعيمة، أثناء السهرة التي أقامها الدكتور أبوبكر في بيته، وكان ذلك أول احتكاك مباشر له معها، وأول نفور يشعر به نحوها. وتذكَّر في هذه اللحظة كلاما يُشاع عن وجود علاقة شاذة بين أرتور وأحد قادة اللجان الثورية، الذي قد يكون أبوـ سيندي نفسه، وتساءل مع نفسه: أتكون الإشاعة صحيحة، ويكون هذا هو السبب؟

وتمنَّى لو أن لامبير لم يسكت عن ثرثرته، ليتأكد إن كان ما يشاع عنه هو سبب الخلاف بين العاشقين المُتلازمين، ولكن خليل الحارثي أفسد على لامبير شهوة الثرثرة، بتعليقه الفظ على جنس النساء، ولم يسأله عن سبب الخلاف. وكان مصطفى يعلم أن الحارثي، هو الآخر، على خلاف مع زوجته ماريان، والجميع يعلم بذلك، حيث كان خليل يضربها على الغداء، ويضربها على العشاء، وكانت هي تجْأر بالشكوَى منه لكل مَن تُقابله، ولا ترْعَوِي عن نشر غسيلهما الوَسِخ أمام الناس، وكان جيرانهما يتدخلون لفض النزاع بينهما كلَّما علا صُراخ ماريان، أو تهاطلت شتائم خليل وتهديداته على رأسها.

وكان قد سأل ذات يوم عبد الرحمان، المراقب العام، عن سبب الشِّجار الدائم بين خليل وماريان، فأسَرَّ إليه بأن السبب الرئيسي يعود إلى الضائقة المالية التي يُعاني منها خليل، مثل غيره من المُوظَّفين المحليِّين، الذين يقبضون أجورهم بشكل غير مُنتظم، بسبب الضائقة المالية التي تعاني منها حكومة الأرخبيل، حيث تمُر عليهم الشُّهور الطويلة دون أن يقبضوا فرنكا واحدا، فتسوء أحوالهم المعيشية، وتنعكس على حياتهم الأُسَرِية، والسيدة ماريان لم تتعوَّد في بلدها على ضَنك العيش، والاكتفاء بالقليل منه، وأخونا خليل عصبي المزاج. ويميل بطبعه إلى حل مشاكله بالعنف.

في هذه الأثناء دخل عليهم مدير الثانوية ومعه المهندس الزِّراعي رضا كوجا، فقدَّمه المدير للأستاذين لامبير وخليل، في حين، بادره المُهندس سائلا:

ـ السيد مصطفى، كيف حالك.. انتظرتُ زيارتك لي في المشْتلة بعد رحلة باتسي، ولكنك لم تحضر..

ـ حدثتْ لي ظروف منعتني..

ـ أتمنَّى أنك لم تكن مريضا..

ـ بل هذا هو السبب، لكنني تعافيتُ الآن، والحمد لله.

وقطع السيد عبد الودود حوارهما، ليوجِّه إليه الحديث:

ـ السيد رضا كوجا جاءنا اليوم لمُعاينة القطعة الأرضية التي سنخصِّصها لزراعة بعض النباتات، ونريدك أن تحضر معنا، وتقدِّم اقتراحاتك بشأن ما سيزرعُه الطلبة فيها، بإشراف السيد كوجا.

ورحَّب مصطفى بالفكرة، واعتبرها مبادرة جيدة، وخطوة عملية تجعل النباتات التي يدرِّسُها للطلبة في مُتناول أيديهم. وخرجوا لمعاينة قطعة الأرض، وكانت أرضا مهملة، تقع في الجهة الخلفية للثانوية، تزيد مساحتها عن خمس مائة متر مربَّع، فعلَّق مصطفى عندما رآها بقوله:

ـ ستكون جنينة رائعة.. وأقترح، من الآن، أن تُحاط بشُجيْرات الياسمين.

ـ يمكنك أن تشرف بنفسك على غرسها مع الطلبة، قال المدير.

ـ وسأوَفِّر لكم، من جهتي، شُجيرات الياسمين، قال المهندس.

واتفقوا على الشروع في تنفيذ فكرة الجُنينة في أقرب الآجال، بتخصيص حصَّتين لها من وقت الطلبة كل أسبوع، وواعد المهندس رضا كوجا بتوفير الأدوات التي يحتاج إليها الطلبة في استصلاح الأرض، على أن يتولَّى المُراقب العام مسؤولية جمع الأدوات عند انتهاء العمل، وحفظها في مخزن خاص بها.

عند رجوعه في منتصف النهار إلى البيت، فوجئ بالسيدة ماريان في انتظاره، فانزعج من المفاجأة، وتوقَّع أن تُدخِله في متاهة خلافها مع زوجها، وكان عبدو من الذكاء بحيث وضع لها كرسيا في الفناء، تحت شجرة الأفوكا، ولم يُدخلها إلى البيت، مُعتذرا لها أن صاحبه أوصاه أن لا يُدخِل أحدا إليه في غيَّابه.

وما إن وقف مع السيدة ماريان حيث كانت تجلس، حتى أخذت تبكي، وتشتكي من زوجها، الذي طردها في ذلك اليوم من البيت، وطلبت منه أن يُؤويها في بيته، إلى أن تُجبر السلطات

زوجها على إرجاعها. وأدرك في الحين أن المسألة أعقد مما تصوَّر في الوهلة الأولى، وقرَّر أن يتصرَّف معها بحكمة، ولكن بحزم أيضا، فاستعمل معها كل ما لديه من اللباقة وحسن التدبير، فقال لها:

ـ سيدتي ماريان، هذه المسألة من اختصاص السلطات، كما قُلتِ، أما أنا فلا أستطيع أن أفعل لك شيئا.

ـ لكنك تستطيع أن تؤويني يوما أو يومين..

ـ هذا مستحيل، فأنا رجل أعزب، ولا يمكنني أن أستقبل سيدة متزوجة في بيتي..

ـ ولو ليوم واحد..

ـ ولو لساعة واحدة.. وتستطيعين أن تقصدي جيراننا من الأساتذة المُتزوِّجين، فهم أولى منِّي بإيوائك..

ـ لكنني جائعة.. لم آكل شيئا منذ أمس..

فنادى على عبدو، وطلب منه أن يزوِّدها بزادٍ مُشْبِع تأكله، ويطلب منها الرحيل. ودخل هو البيت ليأخذ دُشًّا يُزيل به عرقه، ويغيِّر ملابسه، وكانت جُمان قد أعدَّت له الحمَّام مُسبقا، ووضعت له مناشف وثيابا نظيفة. وعندما خرج أخبره عبدو أن السيدة أخذت الزَّاد ورحلت، قاصدة بيت الكنديِّين، فشعر بالارتياح، لأنها لوبقيت لتسبَّبت له في مشاكل مع خليل الحارثي هو في غنى عنها.

وحدث فعلا ما توقَّعه، إذ لم تمض إلا دقائق معدودة من انصراف ماريان حتى سمع لغطا في الفناء، وما يشبه التهديد والوعيد، ففتح الباب فإذا بخليل يُرعِد ويُزبِد، ثم يقتحم عليه البيت دون استئذان، بحثا عن زوجته. وتفاجأتْ جُمان بدخوله وهو على تلك الحال من الهيَّاج، ووقفت مشدُوهة من تصرُّفه. ولم يتردَّد خليل لحظة واحدة في الدخول إلى إلى غرفة النوم، ثم إلى الحمَّام، متوعِّدا أنه سيقتلها إن وجدها مختبئة. وكما دخل دون استئذان، خرج دون اعتذار.

وأوعز مصطفى إلى عبدو أن لا يدُلَّه على الاتجاه الذي مشَت فيه ماريان، وكان على وشك أن يخبر خليلا بالوِجْهة التي سارت فيها، وعندئذ استأذن عبدو بالرحيل، ودخل هو ليقدِّم درسه اليومي لجُمان.

***

12

القلبُ وما يعشَق

مضى أكثر من أسبوعين دون أن تُعاوِد أندريا زيارته، فظن أنها قرَّرت من جهتها أن تضع حدًّا لعلاقتها به، إلا أنه، وعلى غير ما كان يتوقع، تلقى منها في هذا اليوم لكنه رسالة، حملها إليه حاجِبُ مكتبها، أخبرته فيها بوصول السيد جورج إلى موتسامودو، ودعته، بالمناسبة، إلى مشاركتهما العشاء في "عش الغراب"، ودون أن يفكر طويلا، قرَّر أن لا يستجيب لدعوتها، اعتقادا منه أن تجاهله لها سيمس كبرياءها، ويجعلها تقاطعه كما قاطعها، وتنتهي العلاقة بينهما بصفة تلقائية، غير أنه فوجئ في ظهيرة اليوم التالي بها تدخل عليه في غرفة الصالون، لأن عبدو نسي أن يغلق الباب حين خرج، وكان هو في هذه الأثناء مُنهمكا في إعطاء درس جديد لجُمان، وتفاجأت أندريا بجلستهما مُلتصقين ببعضهما، وتصوَّرت أنهما كانا يتطارحان الغرام، واستنتجت مباشرة أن هذه العلاقة الجديدة هي التي صرفته عنها، فخاطبته في انفعال لم تستطع أن تسيطر عليه:

ـ إذن، هذا هو السبب.. أنت منشغل عني بسبب خادمتك هذه؟

وكظم غيظه من طريقة دخولها عليهما بذلك الشكل غير اللائق، وتغاضَى عمَّا تحمله نبْرتها من اتهام له، وتحقير لوظيفة جُمان، وحاول أن يفهمها بكل هدوء أنه يعطيها درسا، وليس شيئا آخر كما فهمتْ، ولكنها واصلت هجومها عليه، وقالت له في شيء من التحدِّي:

ـ إذا كنتَ صادقا فيما تقول، فاطرُدْ هذه الخادمة في الحين، ثم يكون التَّفاهم بيننا بعد ذلك..

ـ هذا شيء مستحيل.. لا يوجد لديَّ أي سبب وجيه يدفعني إلى طردها..

وأدركت جُمان بسرعة طبيعة العلاقة بينهما، واستنتجت أن المرأة التي دخلت على مُستخدمِها بلا استئذان، وكلَّمته بكل ذلك الغضب الذي ظهر في وجهها ـ لأنها لم تفهم كل ما قالته ـ لا يمكن إلا أن تكون بينهما علاقة حميمية، وفكَّرت أنه من الأنسب لها أن تنصرف، وتتركهما يُصفِّيان حسابهما مع بعضهما، فقامت ولبست شيرومانها على عجل، وهمَّت بالخروج، ولكن مصطفى طلب منها أن تبقى، وردَّ على أندريا بهدوء، ولكن في شيء من الصرامة:

ـ لقد تجاوزتِ حدود اللياقة معي، وأسأتِ إلى هذه الفتاة دون سبب، ولهذا أدعوكِ إلى المُغادرة.. من فضلك..

ـ أنت تطردُني إذن، عوض أن تطرد عشيقتك.. أنا ذاهبة.. لن ترى وجهي بعد اليوم، فقد اكتشفتك على حقيقتك.. فأنت لستَ إلا رجلا مُنحطًّا، يبحث عن اللذة مع الخادمات..

وصَفقَت الباب وراءها، وركبت سيارتها، وانطلقت وهي في حالة غليان.

عندئذ أجلس مصطفى جُمان إلى الطاولة كما كانت، وأمسك يدها وقبَّلها، كنوع من التعويض لها عن الإهانة التي لحقت بها، وكان على يقين أنها قد أدركت نوع العلاقة بينه وبين أندريا، وأنها فهمت أيضا معظم ما دار بينه وبينها من خصام، لأن تحصيلها اللغوي بالفرنسية كان قد تطوَّر بشكل ملحوظ، وصارت تفهم ما يقال أمامها بهذه اللغة، ولكنها مازالت تجد صعوبة في التَّعبير بها.

وتأثرت جُمان بملاطفته لها، وبتقبيله لأناملها، فانفلتت الدُّموع من عينيها. وفي غمرة ذلك تناولت يديه بين كفَّيها، وراحت تقبِّلهما، وتبلِّل أصابعه بدمعها. وتأثر بدوره من حالها، فتناول منديلا، وأخذ يجفِّف لها دمعها، ويبتسم لها، مُهوِّنا عليها ما جرى، فارتاحت لِلَمسَات يديه، وترجمت ارتياحها بابتسامتها

السّاحرة التي ظلت تفتِنه بها كلما ابتسمت له، ثم قامت لتنْصرف، فلم يدْعُها لإتمام الدرس، ودعاها عوضا عن ذلك للغداء معه، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يدعوها للغداء، فردَّت عليه بالعبارة الفرنسية التي حفَّظها إياها، وكانت تكرِّرها له كلما دعاها: Merci beaucoup (شكرا جزيلا). وألحَّ عليها في الدعوة، فأصرَّت على الذَّهاب، وعندئذ أخرج من محفظته كيسا بلاستيكيا صغيرا، فيه علكة أمريكية مُعطَّرة، ولوحة شوكولاطة بالحليب والبُندق، وسلَّمه لها، فقبِلت هديَّته، وكرَّرت له عبارتها مُبتسمة Merci beaucoup، ثم انطلقت.

كان مِزاجُه قد تعكَّر من المشهد الدرامي الذي لعبته أندريا بامتياز، وأشركته في تأديَّته على الرغم منه، ولذلك لم يُقبِل على أكله بشهيَّة، وحينما آوى إلى سريره في فترة القيلولة امتنع النوم عن عينيه، وظل يتقلب في فراشه، ويستعيد في ذهنه تفاصيل المشهد، ويتساءل مع نفسه إن كان قد تصرَّف التَّصرف المُناسب مع المرأتين، الأولى حين طردها، وفي ذلك إهانة لها، مع أنه لم يقصد إهانتها، وليس من عادته أن يُهين أيًّا كان، مهما أخطأ في حقه، فما بالك أن تكون الإهانة مُوجَّهة لمن منحته نفسها بسخاء، وسقته كاسات الخمر من دِنان جسدها، والثانية حين بالغ في إرضائها، وإظهار التَّعاطف معها، وهو ما قد يُطلق عِقال أوهامها، ويجعلها

تزداد تعلّقا به، ويخشى أن تتطوَّر الأمور معها إلى حدٍّ لا يستطيع فيه التحكم في نفسه، وينساق في مغامرة عاطفية جديدة لا يدري نهايتها!

وما شوَّش فكره بشأن جُمان، أنها لا تُغريه بجمال صورتها، وبجسدها المُكتمل الأنوثة فحسب، ولكنها تأسره بجاذبية روحية خاصة، يُحسُّها ولا يدري كنهها، ويلمسها ولا يراها، ويعقِلها ولا يجد تفسيرا لها، جاذبية انطبعت في قلبه منذ أن رآها أول مرة، فوقعت في نفسه، فيما يشبه المعنى الشائع عن الحب من أول نظرة، مع أنه لم يكن يؤمن بهذا النوع من الحب، ويعتبره خرافة. ولم يُضعِف هذا الإحساس في نفسه تعوُّده على رؤيتها يوميا، والتحدُّث إليها، ولو بأقل العبارات، نظرا لحاجز اللغة الذي يفصل بينهما، فظل يرى فيها دائما تلك "الأمازونية" المُحاربة، التي خرجت له ذات يوم من أدغال الموز، لتسكن قلبه، وتأبى أن تُغادره. وقد كشف له مرضُه بالملاريا إحساسها الإنساني النبيل، وروح المبادرة التي تتمتَّع بها، حيث تصرَّفت معه من تلقاء ذاتها ذلك التصرف الرائع، وسهرت الليالي إلى جانب سريره، ومرَّضته بإخلاص، وبكفاءة عالية، وهو ما كشف له عن معدنها الأصيل، وقلبها الكبير.

ولاحظ، وهو يقلِّب الأمر من جميع جوانبه مع نفسه، ويقارن بين هذه وتلك، أن هناك اختلافا أساسيا بين المرأتين، يتمثل في أن

أندريا موظفة، لها استقلالية تامة عنه، ولا يربطها به إلا الجانب العاطفي، الذي يمكن لها أن تتجاوزه مع الوقت، مهما كان قاسيا على نفسها، أما جُمان، فإن عملها في بيته يجعل منها امرأة ضعيفة، لا تمتلك حرية قرارها، فإن هي قبلت بوضعها معه كخادمة وعشيقة فستقبل لأنها مُرغمة على ذلك، وإن انتفضت لكرامتها، ورفضت وضعا كهذا، خسرت الحب والوظيفة، وقد تعود إلى حمل الساطور مرة أخرى، وتقصد غابة الموز، لتضمن الحصول على لقمة العيش، وهذا ما تعافُه نفسه، ويأباه ضميره، وسيُشعره، لو هو أقدم على فعله، بأنه تحوَّل من إنسان تحكمه القِيمُ والمبادئ، إلى ذئب يأكل اللحم البشري نيِّئا. لكن، ما البديل؟ وما العمل مع رغبات الجسد؟ فقد جعلته أندريا يشعر أنه لم يعد قادرا على الاستغناء عن المرأة، وجعلت لياليه، بعد أن افترقا، باردة كشتاء بلده، على الرغم من ارتفاع حرارة الجو في البلد الذي يعيش فيه. ووجد نفسه في حيرة، بين غواية الجسد ومقاومة الضمير، بين رغبته في جُمان المرأة، وبين ضرورة أن يصون لها كرامتها، ويُجنِّبها الشعور بالخجل من وضعها، ولكن كيف؟

وقضى عشيَّته حيْرانَ، مُفكِّرا، مُتدبِّرا، إلى أن تبلَّد ذهنه، وضاق خاطره من جو البيت، فخرج عند الأصيل مُتجوِّلا، وقد صار الجو لطيفا، وتحرَّكت فيه نسائم المساء. وتفادَى المرور قُرْب ملعب الكُوَر

الحديدية، لكي لا تُغريه أجواء المنافسة، ولا يتورَّط في تحديَّات المهوُوسين باللعبة، لأن مزاجه لم يكن رائقا، وخسارتُه للتحدِّي ستكون مُؤكَّدة. ومرَّ بدكَّان أحمد، الذي حوَّله مالكه الجديد إلى محل خُرْدَوَات، وكان مغلقا في تلك الساعة، فذكَّره بلقائه الأول بجُمان، واستعاد في ذهنه كل تلك الانطباعات التي تركها ذلك اللقاء في نفسه، وكل الخواطر التي داعبت مُخيِّلته في ذلك اليوم، واستطردت به الذاكرة إلى لقائهما الثاني تحت شجرة الأفوكا في فناء بيته، ثم إلى لقائهما التالي، حين عرض عليها العمل في بيته، لينتهي إلى تلك العناية التطوُّعيَّة التي لقيها منها أيام مرضه، التي جعلته يزداد إعجابا بها، لما لمسه فيها من أخلاق نبيلة، وقلب فيَّاض بالمشاعر الإنسانية.

عندما وصل إلى موقع المِدفعين، وقف على التلة المُشرفة على وسط المدينة، يتأمل قرص الشمس وهو يلامس مياه البحر في الأفق البعيد، وتحوَّل الأفق في لحظة إلى لوحة من نار ونور، تخلِب الألباب، وتأسِر القلوب، وعندما غطست القرص الأحمر في الماء قفل راجعا إلى بيته، وقد ارتاحت نفسه، وصفا ذهنه.

وقبل أن يُؤوي إلى فراشه كان قد توصَّل إلى الحل الأمثل، الذي يحقِّق له رغبته، ويريح ضميره، ألا وهو الزواج من جُمان،

حسب التقليد والعُرف المعمول به، وقرَّر أن يُصارحها بذلك في الغد، ويتقدم لخِطبتها من أمها بلا تردُّد.

***

لم تصدِّق جُمان أذنيها وهي تسمع ما ترجمه لها عبدو، وبقيت مشدوهة، بكماء، لا تدري ما تقول، فأدرك أن المفاجأة أخرصتها، وطلب من عبدو أن يكرِّر لها السؤال: هل تقبلين الزَّواج منِّي؟

وتبيَّن لها في هذه المرة أن المسألة ليست مِزحَة، ولا تدخل في درس اللغة التي اعتادت على أخذه كل يوم في تلك الساعة، وقد استوعبت معنى السؤال حتى في لغته الفرنسية، ومع هذا بقيت متأثرة بفعل المفاجأة، وظلت صامتة. وحينئذ توجه مصطفى إليها بالخطاب وهو يبتسم ليخفِّف عنها:

ـ هل أفهم من صمتك أنك موافقة؟

ـ لا، أجابته.

وتقلَّبت سحنتُها فجأة، وارتسمت على وجهها مِسحةُ حزن واضح، فانتقلت الدهشة في هذه المرة إليه، ولم يفهم سبب رفضها أو مدعاة حزنها، فسارع إلى تصحيح ما اعتبره خطأ منه، وتسرُّعا في اتخاذ قراره، وقال لها معتذرا:

ـ أرجوك جمان، سامِحيني.. ما كنت أظن أن طلبي الزواج منك سيصدِمك، ويُحزنك!

وترجم لها عبدو ماقاله، ولكن اعتذاره لم يلق تجاوبا منها، وزادت على ذلك أن انفجرت باكية، فازداد أسفا وحرجا من مشهدها وهي تبكي، واحتار فيما عليه أن يفعل لمعالجة الموقف، والتكفير عن خطئه. وتدخل عبدو ليقول له:

ـ أظن، سيدي، أنني فهمت سبب بكائها..

ـ اشرح لي إذن، من أجل أن أكرِّر لها اعتذاري وأُرضِيها..

ـ السبب أنها لا تستطيع أن توفِّر لك سكنا تقيم فيه معها..

وارتسمت الدهشة على وجهه، وسأله مستغربا:

ـ وهل طلبت أنا منها سكنا نُقيم فيه؟!

ـ هذه هي العادة المتَّبعة في بلدنا، يا سيدي.. السَّكن من واجبات الزوجة، فهي التي تُوفِّره للزوج، ليأتي ويقيم فيه معها..

ـ لكنني أنا لم أطلب سكنا، ولا أريده منها.. وبيتي هذا، ألا يكفينا؟! أطلب منك أن تشرح لها هذا بالتفصيل، إذا كان هو سبب رفضها.

وأكد له عبدو ما ظنه من قبل، بعد أن شرح لها، وسمع ردَّها، وحينئذ توجَّه إليها مباشرة ليقول لها:

ـ عزيزتي جُمان، أنا لا أريد منك شيئا، أنا أريدك أنتِ لا غير..

وافترَّت شفتاها عن ابتسامة خفيفة بدَّدت بها سحابة الحزن التي علتْ وجهها، وتطلعت إليه بنظرة كلها ودٌّ وإكبار، فانفرجت أسارير وجهه هو الآخر، وسألها في وُدّ:

ـ هل أفهم أنك غيَّرتِ رأيك؟ هل تقبلين الزواج مني؟

وحركت رأسها بالموافقة، ثم قالت كلاما نقله عبدو إليه:

ـ تقول إنها لا تستطيع الموافقة النهائية إلا بعد أن تخبر أمها، وتأخذ موافقتها.

ـ بطبيعة الحال، سأنتظر مُوافقة أمك أيضا، وسنأتي أنا وعبدو لأخطُبك منها..

وابتسمت له مرة أخرى ولم تقل شيئا، وحينئذ التفتَ إلى عبدو ليقول له:

ـ الآن، انتهت مُهمَّتك، يُمكنك الانصراف..

ولأنه كان على يقين أن خاطرها مُشوَّش في تلك اللحظة، وأنها لن تستطيع التركيز في الدرس، قرَّر أن يعفيها منه في هذا اليوم السعيد، وقال لها وهو يرد بابتسام على ابتسامتها:

ـ يُمكِنك الانصراف أنتِ أيضا.. نؤجل الدرس إلى الغد..

فقامت، وكأنها أُطلِقت من عِقالها، ولبست الشيروماني على عجل، وتوجَّهت نحو الباب مُنصرفة، ناسية أن تودِّعه.

ـ إلى اللقاء غدا، قال لها..

ـ إلى اللقاء، ردَّت عليه باحتشام، ثم انطلقت وكأنها هاربة.

وأحس هو في هذه اللحظة أنه تخلص من حمل ثقيل كان يشغل باله منذ أمس، وشعر بالارتياح، فأقبل على أكله بشهية، وأمضى فترة قيلولة هادئة، اختلطت فيها أحلام النَّوم بأحلام اليقظة، غير أن الشك داخله حينما خرج متجوِّلا في العشية، إذ تذكَّر أنه لم يسمع من جُمان كلمة صريحة بقبول عرضه، وفكَّر أنه قد يكون متوهِّما حين اعتقد أنها بدأت تعشقه، وزاد قلقه حينما وضع في باله احتمال أن لا توافق أمها على زواجها منه، لكونه رجلا أجنبيا، فقد يصوِّر لها عقلها أنه قد يرحل عنها بعد أن يتم الزواج، وتقع الفأس في الرأس، ويترك عروسه وراءه مُعلَّقة، لا هي متزوِّجة ولا هي مُطلَّقة، أو قد تتصوَّر أن يأخذها معه ويرحل إلى غير رجعة، فتكون كمن دفنت ابنتها إلى الأبد!! وفي حال رفض الأم، فإن جُمان لن تشق عليها عصا الطاعة، ولن تقبل بالزواج منه حتى لو كانت تحبُّه.

وعبثا حاول أن يطرد عن نفسه هذه الهواجس، أو يقلل من احتمالات حدوثها، ونال منه القلق والأرق في ليلته تلك، وانعكس ذلك على دروسه في صباح اليوم التالي، فلم يقدِّمها بالحيويَّة التي اعتاد على تقديمها بها، حتى إن بعض الطلبة لاحظوا ذلك، وظنوه قد انتكس بعد شفائه من الملاريا. وما إن دقَّ جرس انتهاء الدروس حتى ركب أول سيارة أجرة تمرُّ به أمام الثانوية، نقلته إلى هومبو، على خلاف عادته في الصعود مشيا، باعتبار ذلك نوعا من الرياضة دأب على ممارسته يوميا.

وما إن ولج باب البيت، ورأى جُمان حتى اطمأن باله، واستبشر خيرا، وزالت أول مخاوفه من أن لا ترجع إليه في هذا اليوم، ومع هذا، لم يستطع أن يقرأ على وجهها ما يطمئنه تماما، لأنها كانت مُنهمكة في عملها المعتاد، أو ربَّما كانت تتظاهر بانهماكها فيه، وجاءت المبادرة من عبدو، حين هنأه على موافقة أم جمان على طلب الزواج، فدقَّ قلبه سرورا للخبر، وأسرع إليها في غرفة النوم، بعد أن اختفت فجأة، حين سمعت عبدو يُخبره بموافقة الأم، وأمسك بيديها فقبلهما، ثم قبَّلها على جبينها، وسألها ليتأكد منها:

ـ إذن، وافقت أمُّك على زواجنا؟

وردَّت بكلمة واحدة وهي تبتسم وتُحني رأسها خفرًا:

ـ وافقتْ..

ـ واوو.. ـ صاح من الفرح ـ هذا رائع.. أنا مسرور جدا بهذا الخبر.. ألست مسرورة أنت أيضا؟

فحرَّكت رأسها بالإيجاب ولم تقل شيئا..

ـ دعيني إذن، أقبِّلك على خدَّيك في هذه المرة..

وجفَلت بعض الإجفال، ولكنها تركته يفعل. وعبِقت رائحة القرنفل من فمها، والياسمين من شعرها، واختلطت بأنفاسه، فتشمَّمها بتلذُّذ، ومرَّر يده على شعرها، مُعبِّرا لها عن إعجابه بتصفيفه، وكان مختلفا عما كان عليه بالأمس، حيث ضَفَرتْه في جدائل رقيقة، طويلة، وشدَّته إلى الوراء على شكل ذيل حصان، وأطلقت ضفيرتين من جهة الخد الأيمن، ومِثلهما من جهة الخد الأيسر، وزيَّنتها بزهور الياسمين، وشدَّت مُقدِّمة الرأس بشريط عريض أبيض، مُرصَّع بالسِّمسم الاصطناعي البرَّاق، فزادها جمالا على جمال، وأبرز تناسُب قسمات مُحيَّاها، واستدارة وجهها، وبدتْ له كأميرة حبشية، يُزرِي جمالها بجمال البيضاوات والسَّمراوات على السواء.

وأخجلتها تأمُّلاته في وجهها، ولمسات أصابعه في شعرها، ونظرات الإعجاب التي غمرها بها، وكأنه يكتشفها لأول مرة،

فأفلتت منه، واتجهت مسرعة إلى الصالون، وحينئذ تركها ودخل الحمام، فأزال عنه عرقه، وغيَّر ملابسه، ثم التحق بالصالون، وسأل عبدو:

ـ كم يبلغ مَهر العروس عندكم الآن؟

وفوجئ عبدو بالسؤال، فأبطأ في الرد، ثم أجابه:

ـ من خمسة آلاف، إلى عشرة آلاف فرنك

ـ طيِّب.. بعد يومين، أعني يوم السبت، تصحَبُني إلى بيت جُمان لأخطبها من أمها، وندفع لها المَهر.

والتفت إلى جمان ليسألها:

ـ فهمتِ ما قلتُه لعبدو..

وحرَّكت رأسها بالإيجاب، فأضاف:

ـ إذن، هذا السبت نأتي للخِطبة، ونتَّفق على اليوم الذي نقرأ فيه الفاتحة في المسجد ونكتب الكتاب..

ولأنه لم يكن متأكدا من فهمها لكل ما قاله، طلب من عبدو أن يُترجم لها.

وحينما بدت له أنها استوعبت كل ما قاله، ووافقت عليه، أضاف مُؤكدا:

ـ موعدنا، إذن، هذا السبت، في العاشرة صباحا.. سآتي إلى داركم، مع عبدو، لأخطبك من أمك ؟ Ok

فحرَّكت رأسها بالإيجاب.

وعلى الرغم من رغبته الشديدة في إبقائها إلى جانبه، والاستمتاع بوقته معها، فقد أعفاها من الدرس في هذا اليوم أيضا، وقرَّر أن يعفيها منه طوال الأيام اللاحقة، لأنه كان متأكدا أن بالها سيكون مُشتَّتا، ومنشغلا بمراسيم الخِطبة وتجربة الدخول الوشيك إلى بيت الزَّوجية.

***

في صباح يوم السبت، أخذ حمَّاما دافئا، وحلق ذقنه، وسرَّح شعره، وتعطَّر، ولبس أجمل ما عنده من الثياب، وحمل معه، في حقيبة يدوية صغيرة، مبلغ العشرة آلاف فرنك الذي كان قد سحبه صباح الجمعة من البنك، ليدفعه كمَهر لعروسه، ونزل إلى ساحة البلدية، ليجد عبدو في انتظاره هناك، حسب اتفاقهما ظهر الأمس. ومرَّا عبر السوق البلدي، ليدخلا المدينة القديمة، ويتغلغلا في أزقتها الضيقة وحواريها، وينتهي بهما المطاف أمام بيت متواضع، من الطراز القديم، تلتصق به بيوت أخرى مثله، وتقابله أخرى من الطراز نفسه، فتقدَّم عبدو ودقَّ الباب، ليخرج إليهما شاب مراهق،

عرف مصطفى من ملامحه وجمال وجهه أنه أخو جُمان، ولحق خلفه رجل كهل، ليرحِّب بهما، ويدعوهما إلى الدخول. فدخلا، ليجدا نفسيهما في بهو البيت، أو ما يمكن اعتباره قاعة الاستقبال، ودعاهما الرجل الكهل إلى الجلوس، فجلسا حيث أشار لهما، على دَكَّة خشبية، ترتفع عن الأرض بحوالي نصف متر، وتلتصق بالجدار ليشكل مُسندها الخلفي، وكانت مُغطَّاة ببساط سميك، مزركش اللون، وجلس الرجل قُبالتهما على حَشيَّة فُرشت على الأرضية مباشرة، وتفصله عنهما مائدة من خشب الأبنوس، مضلَّعة الشكل، وقدَّم لهما نفسه بلغة فرنسية مقبولة، مراعاة منه للضيف الأجنبي، الذي لا يفهم، حسب علمه، لغة البلد:

ـ أنا عبد الله، خال العروس وولي أمرها..

ولم يتفاجأ مصطفى باستقبال الخال له عوضا عن والدها. لأن جمان كانت قد أخبرته بوفاته منذ ما يزيد عن عشر سنوات.

وعاد إليهم الشاب المراهق، بعد أن اختفى عن أنظارهم لحظات، حاملا صينية نحاسية، عليها أربعة كؤوس ملئت عصيرا، وصحن من الكعك، كان مصطفى قد رآى مثله يباع في السوق، ووضع الصينية أمامهم على المائدة المُضلعة، فقدَّمه الخال لهما:

ـ .. وهذا حكيم، أخو جمان..

ثم أضاف:

- تفضَّلا، هذا شراب قصب السُّكَّر، والكعك البلدي، أعدَّتهما العروس بنفسها..

وما إن تناولا من يد الخال شراب القصب، حتى دخل عبدو معه في الموضوع، شارحا له الغرض الذي جاءا من أجله. وبطبيعة الحال، كان الخال على علم مسبق بغرض الزيارة، فكرر الترحيب بهما، وطلب من ابن أخته أن ينادي على أمه، فذهب الفتى وعاد ومن خلفه سيدة في الأربعينيات من عمرها، تلفُّ كامل جسدها بشيرومان فضفاض، فحيَّت الزائرين بالتحية التقليدية "كوز مويني"، وجلست إلى جانب أخيها. ومن نظرة خاطفة، لاحظ مصطفى ما تتسم به أم جمان من الوقار، كما لاحظ أن وجهها مازال يحتفظ بشيء من الجمال.

لخَّص لها أخوها غرض الأستاذ الذي قصدهم في ذلك اليوم، طالبا ابنتها للزواج، فأجابت بما ترجمه عبدو له:

- كلُّ أُمٍّ تفرح بزواج إحدى بناتها، وخاصة إذا كانت ابنتها موافقة على الارتباط بالرجل الذي تقدم لخطبتها.. ولكن، لا يفوتني، أن أذكِّره بما قالته له ابنتنا "نحن لا نملك بيتا يقيم فيه معها".

وردَّ عليها بواسطة عبدو:

ـ ... وأنا لا أريد منكم أي شيء، فالعروس ستقيم معي في بيتي.

فأضافت شيئا آخر، نقله عبدو إليه:

ـ تقول لك، إذن، هي لا تعارض هذا الزواج، وخاصة أن ابنتها لها انطباع جيِّد عنك، منذ أن دخلتْ لتعمل في بيتك، ولم يبلغها عنك إلا ما يطمئن قلبها، ولا يهمها في الأخير إلا سعادة ابنتها ورضاها بهذا الزواج.

ـ قل لها أنا مسرور جدًّا بموافقتها، وقل لها أيضا، إنني أعِدُها، من جهتي، أن أعمل كل ما أستطيعه لجعل جُمان سعيدة، ولن ترى منِّي إلا ما يسُرُّها..

وعقب هذا الحوار الوُدِّي، والإيجابي، أخرج مصطفى العشرة آلاف فرنك من محفظته، ووضعه على المائدة قائلا: هذا مَهر جمان..

ثم أخرج مبلغا آخر وأضاف:

ـ ... وهذا ثمن عشاء الأهل والجيران القريبين منكم.. أما أنا، فلا أنوي أن أقيم أي احتفال، وخاصة أنني أعيش بعيدا عن الأهل.

وطلب من عبدو أن يشرح للأم والخال، بأنه يقترح عليهما قراءة الفاتحة في صباح اليوم التالي، على يد الشيخ عصمان، في المسجد الجامع، ليأتي بعد أسبوع، ويأخذ عروسه إلى بيته.

وتبادلت الأم وأخوها المشورة، قبل أن يقول له الخال أن لا مانع عندهما من النزول عند رغبته.

وحينئذ هب واقفا، مستأذنا في الانصراف، ولكن سيدة البيت أبت عليه أن يخرج ومرافقه قبل أن يشربا عصير القصب، ويتذوّقا طعم الكعك، فلبّيا دعوتها بكل سرور، وشربا، وأكلا، وامتدح مصطفى طعم ولذة الكعك والعصير، وشكر أصهاره الجُدد على حفاوة الاستقبال.

وبعد خروجهما، صرَف عبدو، بعد أن دعاه لحضور كتب الكتاب في اليوم التالي، وتوجَّه بمفرده إلى المسجد الجامع، فقابله الشيخ عصمان مُرحِّبا، ومبديا له سروره الكبير بالزيارة، وقاده إلى مكتبه الصغير مثل المرة السابقة، من أجل أن يتحدثا بعيدا عن أسماع الرُّقباء والمُتطفِّلين. وكانت مناسبة أخرى للشيخ عصمان، روى فيها لزائره المزيد عن رحلته إلى الحج، التي ظل يذكرها بكل فخر واعتزاز، ويُمنِّي النفس بتكرارها في المستقبل. وتركه مصطفى ينساق مع ذكرياته الجميلة عن الحج، ولم يشأ أن ينغِّص عليه لحظاته السعيدة بسؤاله عن أحوال البلد، أو

الخوض في مُستجدَّات تلك الأيام. وقبل أن ينصرف، أبلغه بغرض زيارته له، واتفق معه على لقاء اليوم التالي، ثم أخرج من محفظته مبلغ ألف فرنك، وقدَّمه له كإعانة للمسجد، تفاديًّا لتقديمه في الغد أمام الحضور، ثم نفحه مبلغا مُماثلا، نظير مراسيم عقد القِران التي سيقوم بها، فتسلم الشيخ المبلغين بامتنان وسرور، ودعا له بالتعويض المُجزِي من الله، وبالتوفيق في زواجه، وبالذُّرية الصالحة. ورافقه حتى باب المسجد.

في صبيحة اليوم التالي، وجد عبدو في انتظاره عند باب المسجد، وقد أحضر معه ما أوصاه بشرائه من عصير وبسكويت. ووجد معه الخال عبد الله، وحكيم أخو جُمان، وقد أحضرا معهما أيضا مشروب قصب السُّكَّر والكعك البلدي، للاحتفاء بالمناسبة.

وتمَّت مراسيم عقد الزواج، حسب الصيغة التقليدية، التي تقتضي أن يطلب العريس من وكيل العروس يدها للزواج، مع ذكر اسمها، ويكرِّر الطلب ثلاث مرات، ويكرِّر الوكيل القبول في كل مرة. وشهد على العقد شاهدان، هما عبدو وقيِّم المسجد، وتُلِيَت الفاتحة في الأخير، أعقبتها تهاني الحضور للطرفين المتعاقدين، ثم انتقل الجميع إلى طاولة مُجاورة، بُسِطت عليها المشاريب والكعك والبسكويت، لينال كل من حضر حظه منها، في جو من البهجة والسرور.

وأبى الشيخ عصمان إلا أن يرافق مصطفى عند انصرافه حتى باب المسجد، تكريما له، فشكر له سعيه، وودَّع خال العروس وأخاها، ثم انطلق مع عبدو إلى جهة السوق، ليفترقا عند ساحة البلدية. ومن هنالك، عرَّج على بقَّالة السيد طاكي، لشراء المجلات التي تعوَّد على قراءتها، وقفل صاعدا إلى بيته في هامبو، راجِلًا، وكان في غاية السعادة والارتياح لما قام به، وقد بدأ منذ تلك الساعة يفكر في يوم السبت القادم، حين يأخذ عروسه إلى بيته، ليبدأ تجربة جديدة في حياته، تختلف اختلافا تاما عن تجارب حياته السابقة مع النساء.

***

13

أيَّام كلُّها عسَل

بدا له يوم السبت بعيدا جدا، والأيام تَمُرُّ ببطء شديد، وظل باله مشغولا طول الوقت بالتفكير في استقباله لعروسه، وفي كيفية التعامل الذي ينبغي عليه أن يتعامل به معها، وخاصة في ليلتهما الأولى معا، لأنه كان مُتيقِّنا أنها ستكون مُرتبكة، ومُتوتِّرة، إن لم تكن مَرْعوبة من تجربة حياة حميمية تعيشها لأول مرة. وكان في الأيام الثلاثة الأولى من الأسبوع قد انشغل أيضا بالبحث عن الهديَّة التي سيُقدمها لها بهذه المناسبة، ليتقرَّب بها إليها، ويكسب قلبها. وكان قد طاف على مختلِف محلات المدينة، بحثا عن الهدية المناسبة، فلم يجد ما يُرضيه، وحين كاد يَيْأس من العثور على مُبتغاه، دلَّه عبدو على صائغي في البلدة القديمة، مُختص في صنع الحلي الذهبية التقليدية، فوجد عنده تشكيلة من الحلي التي تجمع بين الجمال وبين الطابع التقليدي المُميَّز، فانتقى منها خاتما، وقُرْطين، وقِلادة، يتوسَّطُها هلال ونجمة خماسية، غاية في دقة الصَّنعة والأناقة، وحينئذ ارتاحت نفسه من هذا الجانب، ولكن، أنَّى له أن يرتاح من جانب الشوق إلى جُمان، وقد بقي عليه أن ينتظر أربعة أيام أخرى

ليلتقي بها؟! وقد زاده شوقا إليها أنه لم يرها منذ مطلع الأسبوع، بعد أن أعفاها من الخدمة في بيته، حتى تهيِّء نفسها ليوم الزَّفاف القريب، وكانت قد أخذت عطلة من عملها التطوُّعي في المستشفى أيضا، مما جعل رؤيتها مستحيلة عليه قبل أن ينتهي الأسبوع.

وفي فترة الشوق والانتظار هذه، كانت جُمان هي كل ما يشغل باله، ويملأ وقت فراغه، وكل ما يفكر فيه أثناء جلوسه إلى مائدة الطعام، وحين يُؤوي إلى سريره في القيلولة، وعندما يخلد إلى النوم ليلا، وحين يصبح في الصباح، أو يمسي في المساء، مستعيدا في ذهنه، بلا كلل ولا ملل، شريط ذكرياته معها، منذ اليوم الذي التقى بها ووقعت في نفسه، إلى يوم أن عرض عليها العمل في بيته، إلى أيام سهرها الليالي إلى جانب سريره أثناء مرضه، وإلى حين أن نضجت الفكرة في ذهنه بطلب الزواج منها، وما أعقب كل ذلك من مقابلة أهلها، وإتمام إجراءات عقد القران في المسجد، لينتهي به المطاف إلى موعد ليلة السبت، فيحاول أن يتصوَّر ذلك اللقاء، وكيف سيكون، وماذا سيقوله لها، وكيف سيعمل على تطمينها وتبديد الرهبة عنها، مؤكدا على نفسه في كل مرة بضرورة أن يتحلَّى بالصبر، وأن لا يتسرَّع في نيل غرضه منها قبل أن تطمئن نفسها، وترتاح إليه، لاقتناعه أن سلوكه معها في هذه الليلة هو ما سوف يطبع علاقتهما في المستقبل، ويحكم عليها بالنجاح أو الفشل.

وفي دوَّامة تفكيره هذه، تداعت به الذاكرة إلى ما عرفه مؤخرا من عبدو، وأكَّده له عبد الرحمان، المراقب العام، عن العادة المتأصلة في المجتمع القمري، التي تقضي بانتقال العريس ليقيم في بيت عروسه، وليس العكس كما هو معمول به في بلده، فتعجَّب من هذه العادة الفريدة، وحاول عبثا أن يفُك لُغزها، أو يجد من يُرجعها إلى حدث تاريخي، أو إلى فتوى دينية، أو من يُعطيها تفسيرا أنتروبولوجيًّا حديثا! لكن الظاهرة في حد ذاتها نبَّهته إلى بعض آثارها الكارثية في المجتمع، ففهم مثلا لماذا يتزوَّج الرجل بأكثر من امرأة واحدة، على الرغم من فقره، وعجزه عن تلبية الحاجات الضرورية للزوجة وللأولاد، ومن هنا ربط في ذهنه بين هذه الظاهرة وحضور النساء بكثرة في السوق، وممارستهن لمعظم النشاطات التِّجارية الصغيرة فيه، وكان قد لاحظ في رحلة "باتسي" كثرة اشتغال النساء الريفيات في مجال الزراعة ضمن ظروف قاسية.

وفي هذا السياق تذكَّر تلك الخيبة التي ارتسمت على وجه المهندس رضا كوجو، حين أعلمه في تلك الرحلة بعدد بناته، حتى وإن لم يُعلمه بعدد زوجاته، وتحرَّج هو من طرح السؤال عليه، فأدرك الآن أن الرجل كان يحمل في قلبه هَمَّ توفير سبعة مساكن لأزواج بناته، وأنَّى له أن يُوفِّرها وهو الموظف الذي لا يمتلك إلا راتبه

الذي ينتظره في آخر الشهر، وقد يتأخر ليقبضه بعد شهور، كغيره من موظفي الدولة الآخرين.

وقد دفعه فضوله إلى أن يسأل عبدو إن كان مُتزوّجا أكثر من امرأة واحدة، ولم يكن قد سأله هذا السؤال من قبل، لا لأنه لم يخطر على باله، ولكنه رأى فيه تدخلا في أمور خادمه الشخصية التي لا يحق له أن يحشر نفسه فيها، فاندهش حين أخبره أنه متزوج بثلاث، وأن له منهن خمسة أطفال، على الرغم من أنه مازال في الخامسة والثلاثين من عمره، وأنه يأمل أن يتزوج برابعة إذا وجد فرصة، ما دام الشرع والعرف لا يمنعانه من ذلك، فسأله متعجبا:

ـ ... وكيف تستطيع أن تُطعِم ثلاث نساء مع أطفالهن، وليس لك مصدر رزق إلا ما تقبضه من عملك هنا في بيتي؟

وكان جوابه ببساطة:

ـ كلُّ أم تشتغل من أجل أن تُطعم نفسها وأولادها..

فازدادت دهشته ولم يرَ حرجا في أن يسأله:

ـ وما هي مهمتك أنتَ إذن؟! أن تنتج الأولاد وكفى؟!

وتفاجأ عبدو بالسؤال، فارتبك، ثم أجاب:

ـ أنفِق عليهم بقدر ما أستطيع.. ككل الأزواج في كامل الجُزر القمرية..

وأشفق عليه، فلم يشأ أن يحرجه بأسئلة أخرى تتعلق بمدى قدرته على إرضاء نسائه في الفراش، ولم يسأله على نوعية المساكن التي يقيم فيها معهن وهو يمر على مثلها كل يوم، فهي أشبه ما تكون بالأعشاش المسقوفة بجريد النارجيل، تفتقر لأبسط المرافق الضرورية التي يحتاج إليها الإنسان، من ماء وكهرباء ومرحاض، ومساكن المدينة القديمة نفسها لا تختلف كثيرا عن تلك الأكواخ إلا في شكلها، وتزاحمها فيما بينها، لتأخذ شكل مُكعَّبات متراكبة من اللبن والقش، وقد تمكن من رؤيتها من الداخل حينما ذهب لخِطبة جمان، وهي مثلها تفتقر لأبسط مرافق الحياة، ما عدا أحواض مياه بداخلها تجمع فيها مياه الأمطار، لتستعمل في الشرب والغسل. وتشكل منازل الأثرياء، على قلتها، نشازا وسط هذا الركام، ومعها البنايات الرسمية التابعة لمصالح الدولة، الموروثة كلها من عهد الحكم الاستعماري الفرنسي.

ومن مُجمل تأملاته هذه، توصَّل إلى الإجابة عن أسئلة سابقة طرحها من قبل على نفسه ولم يجد لها جوابا، عن انتشار مظاهر البؤس في مجتمع الأرخبيل إلى درجة لا تُصدق، وتفشّي الأمية، والجهل، والفقر، وعزوف الآباء عن تعليم أبنائهم، واستسلام

الناس إزاء وضعهم البائس، لا يعيشون إلا ليومهم، ولا يشغل بالهم إلا ما يسدُّون به الرَّمق عند مطلع كل شمس، أمَّا ما سِوَى ذلك فهو بالنسبة إليهم ضرب من الأحلام التي لا تتحقق.

***

وجاء أخيرا يوم السبت، فقصد بيت أصهاره في المدينة القديمة، وكله شوق إلى عروسه، واعتذر لأهلها عن الدخول بانتظار سيارة الأجرة له، واستلمها منهم عند الباب، دون طبل ولا زمر، ودون أي مظهر من مظاهر الاحتفال التي تُصاحب العُرسان عادة، ما عدا زغرودة مُحتشمة انطلقت من حنجرة أمها، فتجاوبت معها زغاريد فتاتين كانتا تقفان في الباب مع الأم، هما أختا العروس، حسب ما استنتجه من سنهما، ومن الشبه الموجود بينها وبينهما، وهو ما أثار فضول بعض الصبية كانوا يلعبون في الزقاق، فتجمَّعوا حولهم، ونبَّه نِسوة البيوت المجاورة، فأطللن برؤوسهن من النوافذ الضيِّقة لمعرفة ما يحدث. ولم يكن متاع العروس كله أكثر من حقيبة جلدية، تطوَّع أخوها بحملها، إلى غاية سيارة الأجرة التي كانت تنتظر عند مدخل السوق.

وكانت أصعب اللحظات على جُمان هي لحظة الوصول إلى بيتها الجديد، مع أنها كانت تعرف كل فضاءاته، وكل قطعة أثاث

فيه، فوقفت في الصالون كأنها تدخله أول مرة، متصلِّبة مثل دمية خشبية، لا تدري ماذا تفعل، ولا كيف تتصرَّف، فأمسك مصطفى بيدها وقبَّلها من جبينها، ودعاها إلى الجلوس، وأسرع إلى البرَّاد، فصبَّ لها وله عصير مانجو مُنعشا، وخاطبها مبتسما، وهو يحاول أن يكون هادئا وطبيعيا، ليبدِّد عنها وحْشتها:

ـ عزيزتي جمان، أنت الآن في بيتك.. اشربي العصير، ولا تخجلي مني، فأنا الآن زوجك..

وأحدثت عبارة "عزيزتي" في نفسها وقعا خاصا في هذه المرة، لأنه كان قد علَّمها إياها من قبل، ولكن في سياق آخر مختلف، فأحست بالحميمية التي حملتها نبرة صوته إليها، وارتلحت إليها، وتطلَّعت إليه في ابتسامة مرتبكة، ولكن، كانت بالنسبة إليه، هي الابتسامة ذاتها التي تسحره بها في كل الأحوال، وتناولت يده وقبَّلتها، فأمسك بكلتي يديها، وراح يقبِّلهما بحميمية وحرارة، ثم تناول كأس العصير ووضعه في يدها، وقرع كأسه بكأسها قائلا:

ـ على نَخْب زواجنا.. ومن أجل حُبِّنا، وسعادتنا.

وأخذ الحرج والتصلُّب يُزايلها شيئا فشيئا، فشربت العصير، ثم قامت إلى الحمَّام، وتخلَّصت من بعض لباسها، واطمأنت أمام المرآة على تسريحة شعرها، وعلى جمال مظهرها، ثم عادت إلى

الصالون، ومدَّت يدها لتحمل حقيبتها، فسبقها إليها، وحملها إلى غرفة النوم، وفتح لها مصراعي أحَد الدُّولابين، كان قد أفرغه من كل ما يحتويه من حاجاته، ليقول لها:

ـ هذا دولاب ثيابك الخاص بك منذ اليوم، افرِدِي مُحتوى حقيبتك على السرير، وضعِي ملابسك وحاجاتك الخاصة في دولابك..

وتركها ترتِّب حاجاتها في الخزانة، وعاد إلى الصالون، حتى لا يشعرها أنه يراقب ما في حقيبتها من أشياء، قد تكون بالنسبة إليها حميمية، ولا تريده أن يراها. وأثناء ما كانت منشغلة بإفراغ حقيبتها، توجَّه هو إلى الحمام، فتخلص من لباس الخروج، وأخذ دُشًّا سريعا، وتعطَّر، ولبس تُبَّانا وقميصا قُطنيَّين، وعاد مُجدَّدا إلى الصالون. وعندما استبطأ حضورها، وتيقَّن أنها انتهت من ترتيب حاجاتها، دقَّ عليها الباب دقًّا لطيفا، ثم دخل، فوجدها جالسة على حافة السرير، وقد لبست فستان نوْم خفيف، بلا كمين، شِبْه شفَّاف، مفتوحا من الأمام، وهو ما أبان عن بعض خبايا جسمٍ يأخذ العقل، ويُغري الناسك المُتبتِّل، فراح يتأمَّلها وهو في حالة ذهول، وقد انعقد لسانه مما رأى، فلم يجد ما يعبِّر به عن انبهاره إلا عبارة واحدة بالعربية أخذ يردِّدها: "ما شاء الله!"، "ما شاء الله!"، وكانت هذه العبارة متداولة بكثرة في حديث أهل المدينة، على لسان كبارهم

خاصة، فلم يغب عن فهمها معناها الديني، ولا ما فيها من دلالة الدهشة والإعجاب، فأحست بالخجل، وابتسمت ابتسامتها المُرتبكة، وسحبت ساقيها إلى الخلف، وجمعت يديها على صدرها، وانكمشت على نفسها، وكأنها تتقي بذلك نظراته المُحرجة لها. وعندئذ تمالك نفسه، وتذكَّر ما أوصى به نفسه أكثر من مرة، من ضرورة التحلي بالصَّبر، وعدم الاندفاع مع عواطفه قبل الوقت المناسب، فجلس بجانبها، وأمسك يدها وقبَّلها وهو يردد "أحبك".. "احبك".

ولاحظ أثناء ذلك خلو يدها وعُنقها من أية حُلي، ما عدا طوقا من الخرَز في يدها اليسرى، وعِقدا من المُرجان في جيدها، تفوح منه رائحة المسك. وحينئذ قام إلى دولابه الخاص، فأخرج هديته إليها، وألبسها الخاتم، ونظر في عينيها ليرى أثر ذلك في نفسها، فالتمعت عيناها فرحا، ثم مدَّ يديه ونزع من عنقها طوق المرجان، وألبسها القلادة الذهبية، وأمسك بيدها وقادها إلى الحمَّام، لترى نفسها في المرآة الكبيرة وهي تلبس القلادة، ونطَّت الفرحة من عينيها، فأمسكت بيده وقبَّلتها، ولكنه اغتنم الفرصة، ولم يكتف في هذه المرة بتقبيل اليد، فقبَّلها من شفتيها، فلم تمانع، فقبَّلها ثانية، وثالثة، ثم ضمَّها إليه، وانخرطا في قُبلة طويلة، حارة، استسلمت لها استسلاما كاملا، وتجاوبت فيها معه تجاوبا تاما.

وتذكَّر ما ينبغي عليه أن يقوم به قبل الوصول إلى مرحلة التلاحم والاندماج، فأخذ بيدها إلى الصالون، وأجلسها إلى طاولة الأكل، وكان عبدو قد أعدَّها بعناية، وغطَّاها بقماش أبيض، شفاف، ونوَّع في أطباقها، وخاصة منها أطباق الأرز المفضَّلة لدى أهل البلد، مسلوقا، ومقليا بالطريقة الهندية مع البهارات، ومخلوطا بالخضار، من أجل سيدة البيت الجديدة. وقبل أن يشرعا في تناول العشاء، أخرج علبة دواء شبيهة بتك التي سلمها إياها في أول الأسبوع، وطلب منها أن تتناول منها حبة كل يوم، فأسرعت إلى خزانتها تبحث عن تلك العلبة، ثم عادت إليه وهي تحرك رأسها أسفا، لأنها نسيت أن تأتي بها ضمن أغراضها، فهوَّن عليها الأمر، وتفهَّم سبب نسيانها في زحمة ترتيبها لحاجاتها، ولكنه سألها، عما إكانت قد داومت على تناول تلك الحبوب منذ أن أعطاها إياها، فحرَّكت رأسها بالإيجاب، وحينئذ ناولها قُرصا من العلبة الجديدة، فوضعته على لسانها، وأتبعته بجرعة ماء، فاطمأن باله، وشرعا بعدها في تناول العشاء.

واكتفت جُمان بلُقَيمات معدودة من كل طبق من أطباق الأرز الشهية، فحاول أن يحثها على المزيد منها، ولكنها امتنعت، فلم يلح عليها، لعلمه أنها تعيش في تلك اللحظات حالة توتُّر، تغلق شهيتها للأكل حتى لو كانت جائعة، ولم يكن هو نفسه قد سلِم

من بعض التوتُّر والقلق، مما أفقده شهيته هو الآخر، فقام يجمع أطباق الأكل ويضعها في البرَّاد.

وبعد أن تداولا على غرفة الحمام، فغسلا، وتطيَّبا، ولبسا لباس النوم، أشعل المروحة الكهربائية في درجتها البطيئة، ووجَّهها نحو الجدار، تفاديا لضرر تلقِّي هوائها بشكل مباشر، ثم أطفأ النور، وأشعل ضوء الأباجورة الأحمر، الخافت، وتمدَّد على السرير، ثم دعاها بلطف إلى التمدُّد إلى جانبه، فاستجابت له بكل طواعية. وأخذ يقبلها في الأول قبلات خفيفة، على الشفتين، وعلى عنقها، ويهمس في أذنيها بكلام لطيف، ثم راح يمرِّر يده على صدرها، ويضغط بقبضته على نهديها، ويمتص حلَمتيْها، وقد زادت رائحة العطور التي تضمَّخا بها من إحساسهما بلذة الجسد، وأسكرت حواسهما، وأيقظت في جسديهما كل مكامن الرَّغبة، ومتعة الانغماس في لحظات الانتشاء والحميمية، وسرعان ما اشتعل الفُرن، واشتد الصَّهَد، فاندمجا في غمرة اللذة، وقرعا كاسات الحب حتى الثُّمالة، وشربا من خمرة الجسد بالكبير وبالصغير، إلى درجة السُّكر والعربدة، ووجدها فرَسًا لم تُركب، ودُرَّة لم تُثقب، فسُر بذلك سرورا عظيما، وقرَّت عينه بالرهان الذي راهن عليه نفسه وكسبه. وإلى جانب هذا، أحس مع عروسه بمتعة لم يحس بها أبدا في علاقاته الحميمية السابقة مع كل النساء اللائي عاشرهن، وما

أكثرهن، ومن بينهن أندريا التي كانت بالنسبة إليه وكأنها زوجة سابقة، وقد تأكد له هذا الاختلاف حين واقَع جُمان مرة ثانية وثالثة، فكان في كل مرة يشعر وكأن روحه على وشك أن تُزهَق عندما يبلغ قمة النشوة، فيُلقي على إثر ذلك بجسده إلى جانبها وهو يلهث، ويئِنُّ من لذة الانتشاء، وقد تصبَّب جسده عرقا. ومع هذه النشوة غير العادية، كان يحس بارتياح نفسي لم يعهده من قبل، مبعثه أنه لم يكن يرتكب فاحشة، ولا يأكل فاكهة محرَّمة كما كان يشعر مع غيرها من النساء.

***

في صباح اليوم التالي، قاما من نومهما متأخرين، وكانا مُنهكِي القُوى، كمُحاربين خرجا من معركة طاحنة، خاضا فيها صولات وجولات طوال الليل، وحققا فيها انتصارات عظيمة، وكللا هامتيهما فيها بإكليل الشرف والبطولة. ولم يستعيدا بعض نشاطهما إلا حينما أخذا دُشًّا مُشتركا، حكّت له أثناءه ظهره بالليفة والصابون، ولم تمنعه أثناء الاستحمام من تقبيلها، ومُداعبة نهديها، ولكنها منعته من تجاوز ذلك، ومن إفساد تسريحة شعرها.

ومن الحمَّام انتقلا إلى المطبخ لإعداد فطور الصباح، وكان كلاهما يشعر بجوع شديد، وفي الوقت الذي انصرف فيه إلى إعداد

فطوره الإنكليزي الذي تعوَّد عليه كل يوم أحد، أخرجت ربَّة البيت الجديدة من البرَّاد بعض أطباق الأرز، التي لم تنل منها إلا القليل بالأمس، وراحت تسخِّنها على نار هادئة. وحاول عبثا إقناعها بمشاركته فطوره، في انتظار أن يَجْهز أكلُها، ولكنها رفضت أن تمسَّه. أما هو فقد تناول معها لُقمتين من الأرز المَقلي على الطريقة الهندية، وجاملها بامتداح طعمه.

ودعاها بعد الفطور إلى الجلوس في باحة البيت، في ظل شجرة الأفوكا، لكنها لم تمكث معه إلا وقتا قصيرا، واستأذنته، ودخلت البيت من أجل أن تعيد ترتيب حاجاتها في خزانتها الخاصة، لأنها كانت بالأمس مضطربة، ولم تُرتِّبها كما تحب أن ترتِّبها.

وأثناء ما كان يرتشف قهوته، ويقرأ بعض التحاليل السياسية في مجلة "أفريك ـ آزي"، وصل عبدو، وكان قد طلب منه أن يلغي عطلته الأسبوعية استثناء في ذلك اليوم، ويأتي إليه ليكلِّفه بأمر هام. وسمعت جمان حوارهما، فوضعت ما كان في يدها وخرجت. وكان عبدو في غاية اللطف والأدب، حيث قدَّم لهما تهانيه بالزواج، وتمنياته بالسعادة. وسألها مصطفى إن كانت ترغب في تمديد عطلتها عن العمل في المستشفى، فأعربت له عن رغبتها في العودة إليه صباح اليوم التالي، وعندئذ طلب من عبدو أن يأخذ معه مبلغا

ماليا من دُرج مصروف البيت، ليشتري في صبيحة اليوم التالي كمية من الكعك التقليدي الجيد، تكفي لعشرين شخصا، مع ما يلزمهم من العصائر والمشروبات الغازية، وينقله في سيارة أجرة إلى المستشفى مباشرة، من أجل أن تقيم جُمان حفلا صغيرا لزميلاتها وزملائها في العمل، بمناسبة زواجها.

وما إن غاب عبدو عن ناظريهما حتى أمسكت جمان بيده، وجرَّته إلى الداخل، وراحت تعانقه، وتقبِّله وهي متأثرة اشد التأثر باللفتة السارة التي فلجأها بها، والتي لم تخطر لها على البال، حيث رأت فيها إعلانا صريحا عن زواجهما أمام جميع الناس، ودليلا آخر على حبِّه لها، وافتخاره بالزواج منها.

في صبيحة يوم الاثنين، ودَّع مصطفى عروسه، مُتمنِّيا لها يوما سعيدا، ليباشر عمله كالمعتاد في الثانوية. ولم تفته أثناء الدرس ملاحظة همسات وابتسامات بين الطالبات خاصة، سرعان ما رأى أثرها يرتسم سلبا على وجه نعيمة، وهو ما دفع بها إلى استئذانه في الخروج، مدعية أنها تشعر بصداع شديد، وأنها ستتوجه إلى صيدلية الثانوية بحثا عن حبة أسبرين تخفِّف صداعها. وفهم أن خبر زواجه قد بلغ الطلبة، لكنه لم يأبه كثيرا بذلك، لأنه كان على يقين أنهم سيعلمون بزواجه اليوم أو غدا، وليس في ذلك ما يُخجِله أو يشعره بالحرج ما دام هو واثقا من نفسه، ومُقتنعا بما قام به، ولكن

هذا لم يحُل دونه ودون التأثر بحال نعيمة، بل والشعور بالإشفاق عليها، حيث بدت له منهارة، بعد أن أصيبت في كبريائها، وأخفقت إخفاقا كاملا في محاولة إغرائه، وتحوَّلت إلى موضوع تندُّر وسخرية من زميلاتها.

وفي الساعة التي حضر فيها السيد كوجا، ليتوجَّه مع الطالبات والطلبة للقيام بأعمال البستنة في حديقة الثانوية، همس له سائلا:

ـ أخبروني أنك تزوَّجت.. هل هذا صحيح..

ـ هذا صحيح ..

ـ مبروك.. هذا خبر سار..

ـ لكن، من أخبرك؟

ـ مارياما، ابنتي..

ولم يسأل السيد كوجا عن الكيفية التي علمت بها ابنته بالخبر، وفكَّر أنه قد يكون هو نفسه لم يسألها عمَّن أخبرها. وعاد المهندس ليقول له:

ـ لن أعفيك من حصتي في الكعك والمشروب بهذه المناسبة..

ـ بكل سرور.. ما عليك إلا أن تزورني في البيت، وأن تأتي، إذا شئت، بمارياما معك..

ـ اتفقنا.. سأزورك..

عندما عاد إلى البيت، وجد عبدو يتهيأ للمغادرة، بعد ما أن انتهى من إعداد مائدة الغداء، مراعيا في ذلك ما ترغب فيه العروس من الأكل المَحلِّي. وما إن خرج عبدو حتى أقبلت جمان على مصطفى تعانقه، وتقبِّله، وقد علت وجهها السعادة وهي تحاول، في شيء من الصعوبة، وبجمل متقطِّعة، أن تعبر له عن استقبال عاملات المستشفى وعمَّاله لخبر زواجها، وتهانيهم الحارة لها، وفي مقدمتهم الدكتور أبوبكَر وزوجته إفلين. وقد أسعدها أكثر، وزاد من شعورها بالفخر، أن الدكتور وزوجته، وبعض العمال، قد شرعوا في مناداتها باسم "مَدَام بن سعيد".

ـ كان احتفالا رائعا، إذن؟ علق مبتسما، ومظهرا ابتهاجه بالحدث.

ـ كان رائعا جدًّا، جِدًّا..

وسألته، وكأنها تذكَّرت شيئا مُهِما:

ـ .. وهل احتفلتَ بالمناسبة في الثانوية؟

ـ لا، مع الأسف.. لأن عدد الأساتذة والطلبة كبير.. ماذا يكفيهم من المشروبات والكعك؟!

وبدا عليها أنها اقتنعت بحجته، فتركته يمضي إلى الحمَّام ليغتسل ويغيِّر ملابسه..

وعندما جلسا إلى المائدة، كان كلام جُمان كله عن حفل المستشفى، وعن التهاني التي غمرها بها الجميع، حتى المرضى أنفسهم بلغهم الخبر وهنأوها، فقامت بتوزيع ما بقي من الكعك والمشروبات عليهم، وطالبها من لم ينل حظه من الوليمة بحصته في اليوم التالي. وطمأنها مصطفى بأنه سيترك ورقة على الطاولة لعبدو في الصباح، يطلب منه فيها إيصال حمولة أخرى من الكعك والمشروبات للمستشفى.

***

في ذلك المساء نفسه، وبعد أن أنهى إعداد درسه لليوم التالي، طلب من جُمان أن تلبس ثياب الخروج، ودعاها إلى عشاء سمك في "عش الغراب". وانتظرها بعض الوقت، إلى أن انتهت من تهيئة نفسها، وخرجت عليه في كامل زينتها، وقد لبست فستانا إفريقيا غلب عليه اللون الأصفر الفاقع، فضفاضا، يعطي للجسم الراحة وحرية الحركة، مُزركشا بأوراق شجر خضراء وبُنيَّة كبيرة الحجم، قصير الكمَّين، عريض الحواشي، مكشوف الصَّدر، وهو ما أبرز طول جيدها، وأظهر جمال قلادتها الذهبية عليه، وزاد القلادة جمالا

ذلك الهلال الذي يتوسطها، وتلك النجمة الخماسية التي تحتل صدارته، فأطلق تصفيرة إعجاب عندما رآها على هذه الصورة، وراح ينقل بصره من رأسها إلى أسفل ساقيها، وهو ما أحرجها، وجعلها ترتبك. وتناول يديها، وراح يُغنّي لها ويرقص على أنغام أغنية مصطفى أنور «Chérie je t'aime» ، وكانت حتى ذلك الوقت ما تزال رائجة لدى جمهور الشباب، فتغلبَتْ حينئذ على ارتباكها، وتجاوبت معه في الرقص، وتمايلت بجسمها ورأسها مع حركاته، وأنهى الرقص بقوله:

ـ ستجعلينني أغار عليك من عيون روّاد الكَابَريه..

وبدا عليها عدم فهم عبارته، فسألته:

ـ ما معنَى "أغارُ عليك"؟

وعجز عن شرح معناها لها، فقرَّبها لفهمها بقوله: "معناها أحبُّك كثيرا". وكان مُتيقّنا أنها لم تفهم معنى "كَباريه" أيضا، ولكنه لم يهتم بالأمر، مانحا إياها فرصة استيعاب معاني اللغة بالتدريج.

من أمام بيتهما ركبا سيارة أجرة كانت نازلة نحو المدينة، ولم ينْسَ أن يأخذ معه الكاميرا، لأخذ صور تذكارية لهما، وهما في الأيام الأولى من شهر العسل، وفي الطريق إلى عش الغراب، خطرت

بباله أندريا والسيد جورج، حتى وإن استبعد أن يلتقي بهما في يوم غير يوم السبت، ومع ذلك قرَّر أن لا يهتم بالأمر إن قابلاهما مُصادفة، ما دام كل شيء قد انتهى بينه وبين أندريا، كما قرَّر أن يعتذر أيضا لأي زميل قد يقابله في الملهى ويدعوهما إلى الجلوس معه، رغبة منه في الاختلاء بعروسه، وفي تفادي الخوض في أموره الشخصية، وفي ما لا يعنيه من أحوال الآخرين. ولأن اليوم كان يوم عمل عادي، فإنه لم يقابل في الملهى إلا الثنائي البلجيكي، غابريال لانسون صحبة صديقته المتبرِّجة، وأرتور لانسون مع أحد أبناء البلد، ممن كان قد رآه ملازما له في أكثر من مرة، وهو ما جعله يشك في أن يكون هو عشيقه الذي تسبَّب في انفصال صونيا عنه. واكتفى بالتحية من بعيد، ولكن غابريال استوقفه ليسأله:

ـ أراك غيَّرت الفارسة، سيَّد بن سعيد.

وتجاهل صفاقته، وردَّ عليه ببساطة:

ـ هذه زوجتي..

ـ تهانينا، سيد بن سعيد، لم تدْعُنا إلى عُرسك.

ـ لمْ أقِم أيَّ عرس..

ولم يهنِّئه أرتور بالزواج. واستوقفه غابريال ثانية ليهمس له:

ـ هناك في الرُّكن زميلنا الحارثي يجلس وحده.. لا أنصحك بالاقتراب منه أو التحدُّث إليه، لأنه ثَمِلٌ ومزاجه سيء..

وسأله مصطفى بتلقائية:

ـ ما به السيد خليل؟

ـ غافلَتْه ماريان وفرَّت إلى جزيرة "مايوت"، ومنها إلى فرنسا، وهي تحمل جنينا في بطنها من صلبه..

ولم يعلق مصطفى على الخبر، وظهر أمامه النادل "ثلاث حصان" فجأة، ليرحِّب به وبمُرافقته بحيويَّته المعهودة، ويقودهما إلى طاولة تُشْرف على البحر. وقبل أن يطلب الشراب والأكل، أعطاه الكاميرا وطلب منه أن يأخذ لهما صورا مع مغيب الشمس عند الأفق، ثم انطلق النادل لتحضير طبق السمك لهما. وعاد بعد لحظات بكأس عرق لمصطفى، وبآخر من عصير قصب السُّكر المثلج لجُمان. وتذكَّر مصطفى صوره التي أهداه إياها في المرة السابقة، فسأله مداعبا:

ـ هل أعجبت الصُّورُ خطيبتك؟

فمطَّ ثلاث حصان شفتيه، ورد عليه:

ـ تلك الفتاة لا يعجبها العجب، إنها مُعقَّدة.. قالت لي إنك في غاية البشاعة.. فوندي، هل ترى أنني بشِع حقا؟!

ـ لا، أبدا.. وأظن أنها قالت لك ذلك لتُغيظك لا غير..

ـ سأعرف كيف أؤدِّبها، تلك الوقِحة..

وواساه مصطفى بقوله: " مع الجنس اللطيف، عليك أن تتحلَّى بالصَّبرِ وسِعة الصَّدر"..

وفي هذه اللحظة دخلت الفرقة الموسيقية، فقوبلت بالتصفيق، وحيَّت بدورها الحضور، ثم بدأت العزف. وانبهرت جمان بجو الملهى، وراحت تتابع حركات الراقصين بإعجاب شديد، وسألها مصطفى مداعبا:

ـ أتريدين أن نرقص؟

وردّت عليه فيما يشبه الرفض والاستنكار: لا.. أبدا..

واستمتعا بالأكل على أنغام الموسيقى، والتفرُّج على الراقصين والراقصات، وأخذ لهما ثلاث حصان صورا أخرى مع الأكل، وطلب مصطفى كأس ويسكي مع العشاء، واكتفت جمان برشفات قليلة من قنِّينة الكوكاكولا، وقد بدا عليها أنها لم تستسِغ طعمها، فعرض عليها كأسا آخر من قصب السُّكر، ولكنها أبت.

ولم يطيلا السهرة، لأن اليوم التالي يوم عمل، يتطلب منهما القيام في السادسة صباحا، لهذا طلب مصطفى الحساب بعد أن

أنهيا عشاءهما، وركبا سيارة أجرة عادت بهما إلى البيت، وكانت جمان ما تزال مبهورة، وسعيدة في الوقت نفسه بما رأته من الحياة المرفَّهة، وما عاشته من بذخ لم تشهده مثيلا له في حياتها ، ولم يخطر على بالها من قبل أبدا.

***

14

تحرُّش وإزعاج

نظَّم مصطفى حياته مع جُمان بشكل دقيق منذ أن عادا إلى عملهما في اليوم الثالث لزواجهما، فصارت أيامهما كلها حُب، وعمل جاد، وتعلُّم، مع تخصيص نهاية الأسبوع للفسح والراحة دون شيء آخر، فكان مصطفى يداوم على إعطاء جُمان درسًا يوميا في القراءة والكتابة والحساب، ويستغل في الوقت الباقي كل فرصة ليعلِّمها كلمة جديدة، أو عبارة مُتداولة، أو معلومة عامة، أثناء فطور الصباح، أو حين الجلوس إلى مائدة الغداء، أو عند شرب الشاي عصرا، أو حتى أثناء سماع الأخبار بعد العَشاء. وكانت جمان تُقبل على التعلُّم بإرادة وتصميم كبيرين، لتحصيل ما فاتها في صغرها حتى وهي نائمة، وقد كان مصطفى يسمعها أحيانا وهي تردِّد أثناء نومها بعض ما تعلَّمته في يقظتها، وكان هذا يسرُّه، ويدفعه إلى تشجيعها على المزيد من التحصيل بكل الوسائل، ومنها أنه كان يهديها بعض الكتب المصوَّرة، الموجهة أساسا للأطفال، لأنها مسليَّة، وتناسب مستواها التعليمي.

في الوقت نفسه، كان مصطفى حريصا على على إراحتها في نهاية الأسبوع راحة تامة، فلا عمل، ولا دراسة، ولا طبخ، إلا الأعمال الهيِّنة، التي كان يساعدها فيها، كترتيب غرفة النوم في الصباح، أو إعداد طعام الفطور. وكانت عملية التعلُّم، بالنسبة لجمان لا تتوقف حتى في العطل الأسبوعية، ولكنها كانت تتم بشكل عفوي، أثناء الحديث، أو تأتي كجواب عن سؤال لها، عن كلمة عابرة سمعتها في المستشفى ولم تفهم معناها، أو سؤال عن اسم أداة من أدوات المطبخ، أو الحمَّام، أو معلومة تتعلق بمادة مُصنَّعة، أو بكيفية استعمال بعض مواد التجميل. أما الوقت الباقي، فكانا يقضيانه في الفُسَح، والأكل، والنوم، فكان يؤجِّر في نهاية الأسبوع سيارة صغيرة بدون سائق، ليتجولا بها يوم السبت، في المناطق السلحلية الشمالية أو الجنوبية للجزيرة، أو في يتوغَّلان في المناطق الداخلية الشرقيه، حيث الغابات، والينابيع الطبيعية، والشلالات، وأشجار "الإيلانق ـ إيلانق" ذات الروائح العطرية، لينتهي بهما المطاف في "فنلق الآمال" السيلحي، الخالي من النزلاء، باستثناء بعض رجال الأعمال القلائل، وبعض الموظَّفين الحكوميين، الذين ينزلون بالجزيرة في مهمات مستعجلة ثم يرحلون، فيستمتعان بالسباحة على الشاطئ الرملي الخاص بالفندق، ويتناولان الغداء في مطعمه المكيَّف، ويشربان القهوة

والعصير المثلج في شرفته الخارجية، تحت شمسيات كبيرة بلون البحر، ثم يسترخيان ساعة من زمان على الكراسي الطويلة المُعدة خصيصا للاسترخاء، ولا يعودان إلى بيتهما إلا بعد العصر.

وفي أيام الآحاد تُفضِّل جُمان أن لا تبرح البيت، فتبدأ يومها بأخذ حمَّام بالماء السَّاخن والشامبو، والصابون المعطَّر، ثم تتفرغ لشؤونها الخاصة التي تحتاج إليها في اليوم التالي، وتستريح بقيَّة الوقت، وأما مصطفى، فيبدأ يومه بالتمارين الرياضية في الهواء الطلق، ويأخذ بعدها دُشا ساخنا هو الآخر، ثم يتناول فطوره الإنكليزي الذي تكون جُمان قد أعدَّته له أثناء تريُّضه، ويخرج بعد ذلك ليجلس في فناء البيت، تحت شجرة الأفوكا، وأمامه على المائدة الصغيرة فنجان قهوة، وكتبه ودفاتره التي يحتاج إليها لتحضير دروس اليوم التالي. وبعد الغداء ونوم القيلولة كان يتوجَّه إلى الملعب البلدي القريب، ليُمارس هوايته، مع زملاء آخرين، في كرة القدم أو الكُوَر الحديديَّة، وعندما يعود مع الغروب، يأخذ دُشًّا سريعا، ويتناول مع جمان عَشاء خفيفا، ثم يخلدان معا إلى النَّوم في وقت مُبكِّر.

***

بعد أن شاع خبر زواجه في محيط عمله، توقَّع أن يكون هناك تحرُّش ما به، أو إزعاج له، من نعيمة خاصة وشُلتها، أو من أندريا،

ولكنه لم يتوقع أن تُستهدَف جُمان بالتحرش. لهذا كان خالي الذهن تماما عندما دعاه الدكتور أبوبَكَر، بواسطة جمان، لزيارته في مكتبه بالمستشفى، وظن أنه من أجل أن يهنئه بزواجه، أو ليُعرب له عن تقديره للعمل التطوعي الذي تقوم به جمان في خدمة المرضَى. وقدَّم له الدكتور أبوبكر أثناء المقابلة، تهانيه له بالزواج مثلما توقع، كما أطرى عمل جُمان وحُسن تعاملها مع المرضى، وسرعة استيعابها لقواعد الصِّحة العامة والعمل بها، لكن، سرعان ما تبيَّن له أن ليس هذا هو سبب دعوته له، حينما سأله إن كانت له معرفة سابقة بـ"أبو ـ سيندي" منسِّق اللجان الثورية، وعما إذا كان قد حدث بينهما خلاف ما في وقت سابق. وقبل أن يعرف غرضه من الأسئلة أجابه بصراحة ووضوح:

ـ زارني هذا الشخص مرة واحدة في البيت، مع أعضاء من اللجان الثورية من تلاميذ الثانوية، ولكنني لم أسترح إليه منذ الوهلة الأولى، بسبب سلوكه غير اللائق، وبالتأكيد أنه لم يسترح إليَّ هو أيضا، ثم قابلته في رحلة مع الطلبة إلى باتسي، ولم تكن هناك مناسبة لتبادل الحديث معه، أو للخوض في أية أمور اجتماعية أو سياسية.. هذه هي كل معرفتي به.

ـ لكنه يعرفك جيدا على ما بدا لي، وهو على علم بزواجك من جُمان..

وتعجَّب من إدخاله جمان في الحديث، وسأله مندهشا:

ـ وماذا يعني هذا الأبوسندي من زواجي بجُمان؟!

ولم يجبه الدكتور أبوبكر بشكل مباشر، وقال:

ـ يبدو لي أن هناك شيئا ما يدفع هذا "الثوري" إلى مراقبتك، والبحث عمًّا يُزعجك به.

ـ لا أعلم أنه يراقبني، هو أو غيره، فكيف عرفت أنه يراقبني؟!

ـ استنتجت ذلك من تصرُّفه، عندما جاءني هنا، واقترح علي فصل جُمان من العمل في المستشفى، بحُجة أنها متزوجة من رجل أجنبي ـ حسب تعبيره ـ وأضاف أن هناك العديد من بنات البلد المُتعلمات، والمُلتزمات بالخط الثوري، مَن هُن أولى منها بهذه الوظيفة.. وحين أعلمته أنها متطوِّعة، ولا تقبض فرنكا واحدا مقابل عملها، دارى خجله بقوله: إنه مستعد أن يأتيني بمُتطوِّعات غيرها. وبطبيعة الحال، رحَّبت باستقبال أية متطوِّعة، بشرط أن تكون جادَّة في عملها، لأن المستشفى في حاجة إلى كل من يمُد إليه يد العون.

وأطرق مصطفى مفكرا ثم قال:

ـ أشكرك، دكتور على هذا التوضيح، فقد تبيَّن لي الآن أن المستهدف هو أنا، وليس جُمان، وقد عرفتُ أيضا من يقف وراء هذه المُناورة، وسأتصرَّف على ضوء هذا بالتصرُّف المناسب.

ـ لكن، أرجوك، يا أستاذ بن سعيد، أن لا يخرج الكلام الذي دار بيننا من هذا المكتب.

ـ هذا أكيد.. وأكرر لك شكري مرة ثانية، لأنك نبَّهتني إلى ما يدور حولي من تحرُّش في الخفاء.

وودَّع مصطفى صديقه الطبيب، وخرج. وكانت جُمان تنتظر في البيت، بفارغ الصبر، أن يُعلمها بما دار من حديث بينه وبين الدكتور "أبوبكر"، لأنها أدركت بحدسها أن الدعوة تتعلق بها هي وبعملها في المستشفى. وما إن دخل حتى تعلقت به، وبادرته بالسؤال عما دار بينه وبين الدكتور أبوبكر، فأعلمها بأنه كان حديثا عاديا، هنأه أثناءه بالزواج، وامتدح عملها في المستشفَى، وتعامُلها الجيِّد مع المرضى. ولم يشر إلى من قريب أو بعيد إلى مسعى مُنسِّق اللجان الثورية لفصلها من عملها، حتى لا يثير أي قلق لديها.

***

زارهما في هذا اليوم أخوها حكيم، حيث وجده مصطفى عند عودته من الثانوية جالسا في الصالون، يتحدث مع أخته، وكانت هذه أول زيارة لأحد أفراد أسرة جمان منذ زواجهما، فرحَّب به، واندمج معه في الحديث بالفرنسية، حيث كان أوفر حظا في التعليم من أخواته، لأنه الذكر الوحيد في الأسرة، ولأنه كان آخر العنقود بالنسبة لوالديه، وهذا ما كانت جُمان قد أخبرته به من قبل. وأثناء الغداء، ذكر حكيم، دون أن يسأله أحد، أنه لم يخرج منذ مدة للصيد، فقرَّر أن يزورهما. والحقيقة أن أمه هي التي شجَّعته على زيارة أخته، وبعثت معه كعكا بلديا، وثمرة "باباي" كبيرة، ناضجة، فسأله مصطفى إن كان السبب هو أنه ينوي تغيير مهنته.

ـ لا، ولكن كل الصيادين مضربون في هذه الأيام عن العمل، والسبب أن العسكر يأخذون منا السمك، ولا يدفعون لنا شيئا..

ـ لماذا لا يدفعون لكم؟

ـ يعطون لأصحاب الزَّوارق فواتير مختومة، ويطلبون منهم الذهاب إلى الحاكم العام ليدفع لهم المقابل، والحاكم يطلب منهم الانتظار في كل مرة، لأن الخزانة فارغة.

وتذكر مصطفى صديقه ميدو، الذي لم يزره منذ مدة، وغاب تماما عن المباريات الأسبوعية لكرة القدم التي يعشقها، فسأله إن كان يعرفه.

ـ هو صديقي، وهو الذي دعا إلى الإضراب العام، وفرَّ إلى جزيرة "مايوت"، بعد أن طارده العسكر، ونجا من رصاصهم بأعجوبة.. أخبرني أنه صديقك، أليس كذلك؟

ـ كان يأتيني بالسمك، ونلعب معا كرة القدم..

وأدرك مصطفى سر غياب ميدو، وسرح بذهنه مُفكِّرا فيما كان يقوله كلما كانا وحدهما:

"يدعي النظام الذي يحكمنا أنه جاء ليدافع عن الفقراء، ولكن الفقراء لم يروا منه إلا القهر والحرمان". وعاد ليسأل حكيم:

ـ وماذا تنوي أن تفعل الآن؟

ـ أنتظر أن يتوقف الصيادون عن الإضراب، لأعود إلى عملي في البحر..

ـ ألم تفكر في ترك الصيد، وممارسة حرفة أخرى؟

ـ مثل ماذا؟ فأنا لا أحسن حرفة أخرى..

ـ تعلَّم ميكانيكا السيارات، مثلا، أو إصلاح أجهزة الراديو، أو الكهرباء، أو حتى صناعة المجوهرات.. فأنت مازلت صغير السن، وليس لك التزامات أُسريَّة..

وضحك حكيم من اقتراحات مصطفى، ثم أجابه:

ـ أتعرف أنني مُغرم بكرة القدم مثلك.. لقد كنت أراك تلعب في فريق ميدو، وشاركت في بعض المباريات إلى جانبكما كلاعب بديل، ولكنك لم تنتبه إلي، لأنك لم تكن تعرفني..

ـ الآن بدأت أتذكَّر .. لقد رأيتك من قبل.. ولكن، ما علاقة هذا بتعلُّم حرفة تعيش منها؟!

وأطلق حكيم ضحكة أخرى قبل أن يقول:

ـ أريد أن أكون نجما في كرة القدم، ألعب في أوروبا، وأكسب المال الكثير..

ولم يشأ مصطفى أن يصدمه في حلمه، فعلق على قوله:

ـ من حقِّك أن تحلم بهذا، فأنت شاب في مقتبل العمر، وتحب هذه اللعبة، وتمارسها، وليس مستحيلا أن تصبح نجما من نجومها، ولكن، لا شيء يمنعك من أن تتعلم حرفة، وتمارس هوايتك في كرة القدم !!

ـ سأفكر في الأمر، قال حكيم.

عندما انتهوا من تناول الغداء، ومن التحلية بالبابلي، الذي صار طعمه ألذ وأحلى بعد أن وضعته جمان في البراد، استأذن حكيم في الذهاب، فودَّعه مصطفى، ودعاه إلى تكرار الزيارة، وانصرف إلى

القيلولة. واغتنمت جُمان فرصة الخلو بأخيها، وسلَّمته المبلغ الذي تعوَّدت على تقديمه لأمها من راتبها الشهري ـ الذي استمر مصطفى في دفعه لها بعد الزواج ـ ليعطيه لأمها، ومنحته ألف فرنك له شخصيا، كمصروف جيب، وزادت على هذا أن حمَّلته بكيس صغير من الأرز البَسماتي الجيِّد، وبعباءة شيروماني لأمها، وبمنديلين لأختيها، فخرج الفتى من عندها مبتهجا بمبلغ الألف فرنك.

***

في أواخر يونيو، استدعت وزارة التعليم مصطفى، وأساتذة آخرين، إلى موروني، لحضور جلسات عمل تربوية، بغرض وضع أسئلة اختبارات آخر السنة، الموشكة على الانتهاء، الخاصة بالفصول النهائية، ومن أجل إعادة النظر أيضا في المنهاج الدراسي للمرحلة الثانوية للدخول المدرسي القادم، ولهذا أعفَى خادمه عبدو من الخدمة أيام غيابه في عاصمة الأرخبيل، وخيَّر جُمان بين الذهاب إلى بيت أمها، أو البقاء في بيتهما، فاختارت البقاء، على أن تطلب من أخيها حكيم المجيء كل مساء، لينام عندها.

في طائرة الـ DC4 التي تربط بين جزر الأرخبيل الأربعة، القادمة من جزيرة مايوت، رافقه في ذات الرحلة زملاؤه الأساتذة

غابريال لامبير، وأمادو ديالو السنغالي، وإيميلي الكندية، والتحق بهم عند نزول الطائرة في جزيرة موهيلي أستاذان آخران، لم يتعرف على جنسيتهما، في الوقت الذي تعرَّف عليهما لامبير بسرعة، واندمج معهما في حوار لم ينقطع حبله إلا مع نزول الطائرة في مطار موروني القديم.

في المطار وجدوا في استقبالهم ثُلَّة من الإداريين المُنظِّمين لجلسات الندوة التربوية، وعلى رأسهم مدير ثانوية محمد سعيد الشيخ، التي تحتضن جلسات الندوة. والتحق بهم في قاعة الاجتماعات يوسف صِدِّيق، وكيل وزارة التعليم، المكلف بالعلاقات الخارجية والتعاون الدولي، وهو صديق قديم لمصطفى، كان قد تعرف عليه أثناء الدراسة في باريس، وهو الذي اقترح عليه، من موقعه كوكيل للوزارة، منصب أستاذ العلوم في الجزر القمرية، وسهَّل له مهمة الالتحاق ببعثة الجامعة العربية للتدريس في الأرخبيل، فدعاه إلى تناول العشاء معه مساء ذلك اليوم، بعد انتهاء وقائع اليوم الأول من الندوة، لاسترجاع بعض ذكرياتهما المشتركة في باريس.

ولاحظ أثناء الندوة غياب إميلي الكندية عن الاجتماع، فسأل لامبير عنها، فأسرَّ إليه أنها غير معنية بالاجتماع، ولمَّا لم يسأله عن السبب، تطوع من تلقاء نفسه وشرح له وهو يبتسم ابتسامة ماكرة:

ـ جاءت لمستشفَى العاصمة، من أجل إسقاط جنينها..

وأثار فضوله موضوع الجنين، فسأله:

ـ لكنها غير متزوجة، حسب علمي؟

فوشوش له في أذنه:

ـ حملت من أحد تلاميذها..

ولم يعلق مصطفى بشيء، لأنه لا يرغب في معرفة فضائح الناس وعيوبهم، ولأنه يعرف أن لامبير سينقل تعليقه للآخرين، مثلما نقل إليه خبر الأستاذة المتورّطة مع تلميذها، فهو وكالة أنباء محلية، كما وصفه بعضهم، تنقل الأخبار بالمجّان، وتُفَبرِكُها إذا لم تجد ما تنشره.

في المساء، أرسل إليه يوسف الصديق سيارة خاصة، نقلته من فندق "كارتالا" إلى فندق "إتساندرا"، وهناك، على السطح الخارجي للفندق، في زاوية مشرفة على حمَّام السباحة، تناولا طعام العشاء، وتحدثا في الأول عن أجواء الندوة التربوية في يومها الأول، لكن، سرعان ما انساقا إلى ذكريات باريس، وأيام الدراسة فيها، ودورانهما في حلقة مفرغة تتكرر كل يوم، ما عدا يومي السبت والأحد، بين الإقامة في المدينة الجامعية بشارع "جوردان"، وبين قاعات ومُدرَّجات كلية العلوم في "جوسيُو"، وفي جامعة باريس

التاسعة، والتجول في مكتبات سان ميشال، والحي اللاتيني، بحثا عن الإصدارات الجديدة، والتنزه في حديقة اللوكسمورغ، والتسكع في هضبة الفنانين بمونمارتر. ولم يتحرجا في التطرق إلى نزواتهما الشبابية في تلك المدينة الكثيرة الملاهي والإغراءات، وضحكا من زيارتهما المُتكررة لحي "بيغال" و"سان دوني"، وخاصة عندما يستلمان المنحة الدراسية في نهاية الشهر، حيث كان الواحد منهما يُضحَّى بمبلغ معتبر منها، في قضاء سهرة راقصة في ملاهي شارع "سان جيرمان"، والعودة إلى الحي الجامعي مع بزوغ الفجر مشيا على الأقدام، لأن المواصلات العامة تكون قد توقفت في تلك الساعة، والجيب قد أفرغ مما يسمح بأخذ تاكسي، وقد ثقل الرأس، وتمايل الجسم، واختلت خطواته على بلاط الشارع.

لكن حديث الذكريات الجميلة في مدينة النور لم يُنْسِهما الواقع المعيش في الأرخبيل، فتطرَّقا إلى بعض التوتُّرات الاجتماعية التي شهدها البلد في الفترة الأخيرة، وإلى الأزمة المالية التي يمرُّ بها، وإلى المؤامرات التي تُدبَّر في الخفاء للإيقاع بالنظام القائم. وكان يوسف شديد الحذر وهو يتحدث عن هذه الأمور، وما كان ليخوض فيها لولا ثقته الكاملة في صديقه مصطفى. وهذه الصداقة الوثيقة هي التي جعلته يعرض على صديقة الانتقال للعمل في العاصمة مع بداية السنة الدراسية الجديدة، ليكونا قريبين من

بعضهما، ولكن مصطفى شكره على عرضه، وأعرب له عن ارتياحه في عمله بجزيرة أنجوان، دون أن يخبره بزواجه. وأبدى يوسف الصديق تعجبه من رفضه التدريس في العاصمة، مُوضّحا له أن كل المُدرِّسين الأجانب يفضّلون موروني، لأنها المدينة الأكبر، والحياة فيها أفضل، قياسا مع مدن الأرخبيل الأخرى. وبعد أن ارتشف رشفات من كأس "الباستيس"، عاد ليسأل مصطفى:

ـ ألم تتعرض لأية مضايقات في موتسامودو؟

وفوجئ مصطفى بالسؤال، وأداره في ذهنه قبل أن يجيب:

ـ لا.. ما عدا حادثة واحدة، وقعت لي مع إحدى تلميذاتي في الثانوية، قبل أن أتزوج، انتهت بسلام، بعد تدخُّل الحاكم العام، وفضّه للإشكال بهدوء وتعقُّل.

ـ تزوجت إذن؟ تهانيَّ الحارة.. لم تُخبرني بذلك..

ـ تركت ذلك للوقت المناسب.. وها أنا ذا أخبرك دون أن تسألني..

ـ تزوَّجتَ، دون شك، بمُتعاونة أوروبية..

ـ لا، بل تزوَّجتُ بفتاة أنجوانية أصيلة، تعلَّقتُ بها من أول نظرة، وأنا سعيد جدا معها..

ـ أكرِّر لك تهاني.. لكن هذا لا يمنعك، على ما أظن، من الانتقال إلى العاصمة..

ـ أراك مُصِرًّا على فكرة انتقالي إلى العاصمة.. اشرح لي ، ما الأمر؟!

وأظهر يوسف الصديق بعض التّردد قبل أن يجيبه:

ـ لا أريد أن أثير قلقك، ولكن صداقتنا تحتِّم علي أن أصارحك بأن هناك من يتآمر عليك، وأظن أن حادثة التلميذة المراهقة ليست إلا حلقة من السلسلة..

وبقي مصطفى مدهوشا، يفكر فيما صارحه به صديقه المسؤول، وفي من يكون ذلك المتآمر عليه، وقفزت إلى ذهنه صورة "أبو ـ سيندي" منسق اللجان الثورية، الذي لم يرَ من تصرُّفاته إلا ما يبعث على الاشمئزاز والنفور، وتأكد له في تلك اللحظة أن ذلك الثوري المُزيَّف، الواقع في حب نعيمة، هو من يكيد له بوحي منها، وتحت تأثيرها عليه. وانتهى إلى القول لصديقه:

ـ لن تخيفني المؤامرات، ولن تدفع بي إلى مغادرة موتسامودو.. فقد ألِفْتُ المدينة، وأحببتُ أهلها الطيِّبين..

ـ أقدِّر فيك شجاعتك ووفاءك.. ولحسن حظك أن حاكم المدينة رجل عادل، لا يحب التجاوزات، ويقدِّر عمل المُتعاونين الأجانب، ويمنع عنهم التحرُّش والمضايقة.

ـ هذا ما لَمستُه منه في الحادث الذي وقع لي..

ـ في الأخير، أنت حرٌّ في اتخاذ القرار الذي تراه مناسبا، وإذا ما غيَّرت رأيك أخبرني، ولكن، قبل الدخول المدرسي الجديد..

ولم يشأ المسؤول الحكومي أن يفضي له بأية تفاصيل أخرى عما يعرفه، خشية أن يثير مخاوفه بلا طائل. وطالت جلستهما حول مائدة العشاء، وتطرقا فيها إلى مختلف الموضوعات، ومنها موضوع الندوة التربوية، وكان مصطفى صريحا مع صديقه، حين سأله عن رأيه فيما دار من نقاش حول إصلاح المنهاج الدراسي. قال له:

ـ انطباعي الأول الذي خرجت به من النقاش في هذا الموضوع، هو طغيان العامل السياسي على العامل التربوي، وكان ينبغي أن يحظى العامل التربوي بالأولوية، وليس العكس..

ـ لا تنس أن هذا يأتي استجابة لرغبة الرئيس، وقد عُقدت الندوة بطلب منه، ويريدها أن تخرج بنتائج ملموسة تتطابق مع توجيهاته.

ـ المؤسف أن هناك من يزايد على تلك التوجيهات، ويبالغ في مدْحها..

ـ هذا صحيح، فهناك دائما من هو ملكي أكثر من الملك، ولكنني أنصحك أن لا تُبدي اعتراضك على مشروع الإصلاح ككل، حتى لا تواجهك متاعب أنت في غنى عنها..

ـ لن أبدي رأيي إلا في الجانب التربوي لا غير، أما الجانب السياسي فأتركه للمُزايدين..

ـ هذا أفضل لك وأسلم..

في حدود العاشرة ليلا، غادرا فندق إتسندرا، ليوصله يوسف الصديق بسيارته إلى باب فندق كارتالا، واتفق معه على اللقاء في اجتماع الندوة صبيحة اليوم التالي.

ومرَّت أيام الندوة الثلاثة بسرعة، صودق فيها على إصلاح المنهاج الدراسي طبقا لتوجيهات السلطات العليا، واستُحدِث في آخر جلسة بنكُ معلومات، حفظت فيه أسئلة اختبارات نهاية السنة في مختلف الاختصاصات، وعاد مصطفى إلى موتسامودو، وكله شوق إلى جُمان، التي أظهرت فرحة كبيرة بعودته، وسُرَّت كثيرا بهديته التي حملها لها من موروني، وهي عبارة عن ساعة يدٍ نسويَّة، من الماركات اليابانية المشهورة، وعبَّرت له، بلسان مُتلجلج، وعبارات مُشوَّشة، عن حاجتها الفعلية إلى ساعة تعرف بها الوقت، وتساعدها في تنظيم عملها في المستشفى، فرد عليها في ما يشبه الغزَل:

ـ عزيزتي، أنا أحسُّ بما يدور في خاطرك، وأستجيب له قبل أن تصرِّحي لي به..

ولم تفهم بدقة معنى عبارة "ما يدور في خاطرك"، فراحت تردِّدها على لسانها، ثم سألته عن معناها، فاجتهد في إفهامها باللفظ، والإشارة إلى صدرها وقلبه، إلى أن اطمأن أنها فهمت المعنى. وكان قد بدأ معها، قبل سفره إلى موروني، في مرحلة جديدة من التعليم، لا تقتصر على تعلم اللغة والحساب فقط، أو التدرب على الحوار، فعلَّمها الاتجاهات الأربعة، واستعار من الثانوية نموذجا مُصغَّرا للكرة الأرضية، استعان به على تقديم درس لها عن القارات والمحيطات، وحفَّظ لها أسماءها، وبيَّن لها على الخريطة الجزر الأربعة التي تشكِّل أرخبيل القمر. وأدهشها صغر الجزر بالقياس إلى جزيرة مدغشقر، التي بدت لها كحُوت كبير يسبح في البحر المحيط، ترافقه أسماك صغيرة، متقاربة الحجم، هي جزر القمر، وموريس، وسان دوني. ولم تشأ جمان أن تنغِّص عليه عودته، وتخبره في الحين بخبر مجموعة من الفتيات والفتيان، جاؤوا أثناء غيابه في سيارة مكشوفة، يقودها أكبرهم سنا، ودقوا عليها الباب، وأخذوا يسألونها عن ساكن البيت، وعن علاقتها به، وعندما أجابتهم بأنه زوجها لم يصدقوها، وراحوا يسخرون منها، وينعتونها بالخادمة العشيقة لرجل أجنبي، فخافت منهم، وسارعت إلى إغلاق الباب

عليها، وظلت تنتظر انصرافهم، واعتبرت نفسها محظوظة، لأنهم لم يمدوا أيديهم عليها، ولم يعاودوا الكرَّة في اليوم التالي.

غضب مصطفى غضبا شديدا، ولام جُمان على تأخرها في إعلامه بما حدث، وأدرك في الحين أن هذا الفعل لا يمكن أن يكون إلا من تدبير نعيمة، لأنها كانت تعلم، مثل طلبة صفِّها كلهم، أنه سافر إلى موروني، فاغتنمت فرصة غيابه لتحرِّض أبو ـ سندي وشلته على القيام بهذه الخطوة الاستفزازية، ولعلها كانت واحدة من الشلة التي جاءت مع المنسق إلى بيته. ولم يستطع الانتظار حتى اليوم التالي، فتوجَّه في الحين، على الرغم من الوقت المتأخر، إلى مقر الحاكم، لعلمه أنه المسؤول الوحيد في الجزيرة، الذي يستطيع أن يوقف شُلة المُراهقين من اللجان الثورية عند حدِّهم، فأدركه قبل خروجه من مكتبه، وقدَّم له شكواه عما حدث لزوجته في غيابه، وطلب منه أن يستعمل سلطته لحماية بيته وزوجته من استفزازات المدعو أبو ـ سندي. ووجد لدى الحاكم تفهُّما كاملا، وتجاوبا سريعا، حيث واعده بأنه سيستدعي منسق اللجان في الصباح، وسيوبِّخه على ما قام به، ويحذِّره من عواقب التحرُّش به أو بزوجته في المستقبل.

***

في اليوم التالي، حين عاد من الثانوية، أبلغته جُمان أن الدكتور "أبوبكر" يطلب مقابلته في أمر مستعجل، فتبادر إلى ذهنه أن الأمر يتعلق بجمان نفسها، وهو ما أثار القلق في نفسه، فوضع أغراضه، وقفل راجعا لِتوِّه، قاصدا المستشفى. ولأن وقت الدكتور لا يتسع كثيرا للمجاملات، فقد بدَّد قلقه بعض الشيء حين بادره بالقول، وهو يشير إليه بالجلوس:

ـ فرصة لا تتكرر، جاءت لزوجتك، وأحسبك رجلا عصريا، لا تعترض على ما يطوِّر قدراتها المهنية، ويُكسبها وظيفة رسمية ودائمة عندنا في المستشفى.

ـ أكيد انني لن أعترض إن كان ذلك سيعود عليها بالفائدة.. لكن، ما نوع هذه الفرصة؟

ـ باختصار شديد.. في إطار تعاون دولة جزر القمر مع جمهورية الصين الشعبية، حلَّت في هذه الأيام بالعاصمة موروني بعثة صينية، تتكون من مجموعة أطباء، من بينهم امرأة مختصة في العلاج بالتدليك، ستقيم في بلدنا مدة شهرين، لتدرِّب مجموعة من مُمرِّضاتنا على هذا النوع من العلاج، الذي نحن في حاجة أكيدة إليه في مشفانا، وخاصة في قسم النساء الحوامل، وقد فكَّرتُ في ترشيح السيدة جُمان، لتشارك في هذه الدورة التدريبية، مكافأة لها

على ما أظهرته من حب لعملها، وإخلاص في القيام بواجباتها، فما رأيك؟!

ـ من جهتي أنا، لا مشكلة، فأنا أريدها أن تتعلم أكثر، وأن يكون لها مستقبل مِهَنِي، ولكن، أخشى أن يعيقها مستواها التعليمي عن المشاركة.

ـ من هذا الجانب لا تقلق، فالتدريب لا يحتاج إلى مستوى تعليمي عالٍ، وإنما يحتاج إلى المهارة اليدوية، وإلى حب المهنة وممارستها بإخلاص، وأعتقد أن لجمان كل مؤهلات النجاح في هذه المهنة.

وفكَّر مصطفى لحظة قبل أن يسأله:

ـ وهل أخبرتَ جمان بترشيحك لها؟

ـ لا، لم أفعل.. فضَّلت أن أعرف رأيك أوَّلا، ويمكنك أن تُخبرها أنت بنفسك..

ـ ..ومتى تبدأ الدورة التدريبية، وأين؟

ـ في موروني، مع بداية الأسبوع المقبل.

ـ لكن الوقت ضيق جدا!

ـ ليس أمامكُما خيار..

ـ على أية حال، سأخبرها، ويبقى القرار الأخير قرارها..

ـ بل حاول أن تُقنِعْها بالقبول، فهذه فرصة لها لا تعوَّض..

ـ سأفعل، ولكن وأين ستقيم إذا قبِلتْ؟

ـ في مستشفى موروني نفسه، مع كل المُتدرِّبات القادمات من خارج العاصمة.

ودَّع الدكتور أبوبكر، ورجع، فوجد جمان تنتظره في قلق، لأن حدسها أخبرها أن الأمر مهم جدا، وأنه يتعلق بها. وفُوجئت بالخبر، وأصابها الارتباك حين أعلمها أن الدورة التدريبية ستجري في موروني، كيف لا وهي التي لم تُغادر موتسامودو منذ ولادتها، ولم تركب الطائرة في حياتها، وكيف ستعيش شهرين كاملين بعيدا عن زوجها وعن أهلها؟ وبلحت لمصطفى بكل هذه الهواجس والمخاوف، فسارع إلى طمأنتها بأنه سيكون معها في موروني، لأن السنة الدراسية أشرفت على نهايتها، لتبدأ العطلة المدرسية الكبرى.

وكان مصطفى قد فكَّر من قبل في قضاء العطلة في فرنسا، ولكن برنامجه سقط في الماء بعد أن تزوَّج، لاسيما أن جمان لا تمتلك جوازا يمكِّنها من السفر معه، ولم يكن متاحا لها استصدار الجواز في ظروف الفوضى الإدارية التي أعقبت حرق وثائق البلدية، لهذا جاءه الحل الأمثل، والمفاجئ، في الانتقال مع جمان إلى موروني، مما سيجنِّبه ملل قضاء العطلة وحيدا في موتسامودو.

واطمأنت نفس جُمان بوعد مصطفى لها بمرافقتها إلى موروني، وزال عنها القلق الذي اعتراها في الأول، فقامت من كرسيِّها، واستدارت حول الطاولة، لتطوِّق عنقه من الخلف بيديها، وراحت تقبل رأسه وصُدغيه، وتهمس في أذنيه بكل ما حفظته من عبارات الحب والامتنان، ومنها عبارات قالتها له بصيغة المؤنث، كما سمعته يردِّدها حين يتغزل بها، فصحَّحها لها وهو يضحك، ودعاها إلى الجلوس لتناول الغَداء، ولكن فرحتها طغت على رغبتها في الأكل، وقطعت شهيَّتها بالكامل.

عندما هدأت قليلا، راحت تفكر في موضوع العلاج بالتدليك، الذي لم تسمع به من قبل، وتسأل مصطفى عنه، فشرح لها بالقدر الذي يعرفه عن هذا النوع من العلاج، الذي يدخل في مجال الطب التقليدي الصيني، مثله مثل العلاج بالإبر. ولكي يبدِّد أيضا ما يمكن أن يساورها من شعور بالنقص، بسبب ضعف مستواها اللغوي والعلمي، أعاد عليها ما سمعه من الدكتور أبوبكر، وهو أن علاج التدليك يحتاج إلى المهارة اليدوية أكثر مما يحتاج إلى المعرفة النظرية والعلمية.

***

15

حُبٌّ وعمَلٌ وسِيَّاحة

كانت جمان في تلك الأيام التي سبقت السفر إلى موروني، لا تفكر إلا في التجربة التي هي مُقبِلة عليها في عاصمة الأرخبيل، وقد أثر ذلك على حياتها المُعتادة تأثيرا بيِّنا، فقلَّ أكلها، واضطرب نومها، وبدا ذلك واضحا في ذُبول عينيها، وضُمور جسمها، وسرَحان ذهنها، ولم تنفع معها تطميناتُ مصطفى، ولا تهوينه الأمر عليها، وتأكيده لها أنه سيلحق بها بعد أيام قليلة من مباشرتها التدريب، ليكون إلى جانبها، ويساعدها في فهم ما يُحتمل أن يُوزَّع على المتدرِّبات من دروس مكتوبة، أو رسوم توضيحية، أو ما يمكن أن يُطلب منهم تحضيره خارج وقت التدريب. وقبل السفر بيوم، ذهبت إلى بيتهم في البلدة القديمة لتودِّع أمها وأختيها، وبقدر ما كُنَّ فرِحات، وفخورات بالتقدُّم الكبير الذي حقَّقته جمان في وقت قياسي في حياتها، بقدر ما كانت هي خائفة، وقلقة، وغير واثقة من نجاحها في مُهمَّتها المهنية الجديدة، حتى إنها انفجرت بالبكاء وهي تودِّع أمها عند باب البيت، وطلبت منها، وهي تعانقها، أن تدعو لها في صلاتها بالتوفيق في مسعاها. وقبل هذا بيوم، كان مصطفى

قد طلب إجازة من إدارة الثانوية، ليرافقها إلى موروني، فحصل عليها بسهولة، لأن الدروس المقرَّرة كانت قد انتهت، وصار عمل الأساتذة يقتصر على مراجعتها مع الطلبة، في انتظار اختبارات آخر السنة.

من مطار "أواني" في أنجوان، ركبا طائرة "الديسي 4"، القادمة من مايوت، وكانت جمان، أثناء ارتفاع الطائرة في الجو، تتمسَّك بمصطفى تمسُّك الغريق بمُنقذه، وتردِّد مع نفسها بعض قصار السُّور التي حفظتها في سنوات طفولتها في المدرسة القرآنية. ولم تشعر بالأمان، ويذهب عنها روْعها، إلا حين نزلت الطائرة في مطار موروني، وتأكَّدت أن رجليها تقفان على الأرض الصَّلبة.

ولم يفكر مصطفى طويلا في المكان الذي سينزلان فيه، وركب سيارة أجرة، وطلب من السائق أن ينقلهما إلى فندق "إتسندرا"، لأنه أرقى من فندق "كارتالا" القريب من المطار، حتى وإن كان بعيدا عن مركز المدينة. وناما بعد العشاء مباشرة. وفي الصباح استيقظا باكرا، وتناولا طعام الإفطار في مطعم الفندق، ثم ركبا سيارة أجرة نقلتهما إلى مستشفى المدينة.

وتمَّت إجراءات استقبال جمان في يُسر، وتعرَّفت على القاعة التي ستلتقي فيها المتدرِّبات مع الطبيبة الصينية، وعلى المطعم الذي سيتناولن فيه وجباتهن، واستلمت مفتاح غرفتها الخاصة التي

ستقيم فيها. وقبل أن يغادرا إلى الفندق ثانية، أبَى مصطفى إلا أن يُلقي نظرة على غرفة جمان. وكانت غرفة صغيرة، في جناح خاص داخل المستشفى، يضم غرفا أخرى مماثلة، كانت كلها مغلقة، تفتح على رواق داخلي، ينتهي بغرفة مغاسل وحمَّامات مشتركة، فعلق مصطفى قائلا: "غرفة مستقلة ضيِّقة، أفضل من أن لوكان الجناح كله مرْقدا كبيرا مشتركا". وكانت الغرفة تتسع بالكاد لسرير فردي، وخزانة معدنية، وكرسي خشبي ومنضدة صغيرة.

وعادا ثانية إلى فندق إتساندرا، فحمل مصطفى حقيبة جمان الثقيلة، وحاسب مكتب الاستقبال، ورجعا إلى المستشفى، ليضعا الحقيبة في الغرفة، ويخرجا بعدها للتجوُّل في شوارع موروني. وكانت درجة الحرارة لمَّا تزل بعدُ مُعتدلة. وكان مصطفى يسأل جمان، كلما مرَّا بمحَل تجاري كبير، إن كانت قد نسيت شيئا تحتاج إليه، ولكنها كانت تجيبه، في كل مرة، أنها عملت حسابها لكل ما تحتاج إليه، وأن حقيبتها تحتوي على كل الضروريات، ومع هذا لم ترجع من جولتها خالية اليدين، فقد أعجبها حذاء جلدي جميل، رأته في الواجهة الزُّجاجية لمحل "باطا" لبيع الأحذية، فاشتراه لها.

عند الظهر. توجَّها إلى مطعم "نيو دلهي"، وهو مطعم نظيف وأنيق، تديره سيدة هندية، بمساعدة بناتها الثلاث، فتناولا فيه طعام الغداء، ثم قفلا راجعين إلى المستشفى، وكان الحر قد اشتد في هذه

الساعة، وفي الطريق، اشترى لها قنينة بلاستيكية كبيرة من الماء الطبيعي، وبعض الفاكهة، وأوصلها إلى غرفتها.

وجاءت لحظة الوداع، لأنه كان عليه أن يعود في ذلك اليوم إلى موتسامودو، في طائرة ما بعد الظهر. فدس في يدها مبلغا إضافيا من النقود، تحسُّبا لاحتياجاتها في غيابه، فمدَّت يديها وطوَّقت عنقه، وتمسَّكت به، وكأنها لا تريد أن يُفارقها، وكان مُدرِكا لحالتها النفسية في تلك اللحظة، فأجلسها على السرير، وراح يهوِّن عليها الأمر، ويكرِّر على مسمعها ما قاله لها مرارا، بأنه سيشتاق إليها كثيرا، ولن يرتاح له بال إلا حين يعود إليها في القريب، مع بداية العطلة المدرسية الرسمية، ليقضي معها كل الفترة التي يستغرقها التدريب. وأوصاها بالمحافظة على نفسها، وطلب منها أن لا تشغل بالها إلا بالمُهمَّة التي جاءت من أجلها إلى موروني، وأن لا تخرج إلا للضرورة القصوى، وأن لا تغامر بعيدا عن المستشفى، لأنها لا تعرف المدينة، ويخشى عليها من التيه في شوارعها، ولهذا السبب نفسه رفض فكرة أن تأتي معه إلى المطار لتوديعه.

***

مرَّت عشرة أيام كاملة على افتراقهما، كمرِّ السَّحاب بالحساب الزمني، ولكنها كانت أطول من شهر في حسابهما الشخصي، انتهت خلالها امتحانات آخر العام الدراسي للطلبة،

وبدأت عطلة الصيف، وتفرَّق الأساتذة الأجانب، الذين يشكلون أغلبية الهيئة التدريسية، في كل الاتجاهات، فعاد بعضهم إلى بلده، وذهب بعضهم في جولة سياحية إلى جزيرة موريس، أو مدغشقر، أو كينيا، في الوقت الذي سارع فيه مصطفى إلى العودة إلى موروني.

وصل في الصباح، فتوجَّه إلى الفندق أولا، وحجز غرفة لشخصين. ولعلمه أن جمان، تكون، في ذلك الوقت من الصباح، في حصة التدريب بالمستشفى، فقد ذهب رأسا إلى مُجمَّع الوزارات، لزيارة صديقه يوسف الصِّديق، الذي استقبله، كالعادة بالترحاب، ودعاه إلى الغداء معه، وازداد سروره عندما أخبره أنه ينوي أن يقضي عطلته في موروني، مع زوجته التي تُتابع دروة تدريبية بمستشفى المدينة، وعندئذ سأله:

ـ وأين نويت النُّزول؟

ـ في الفندق، طبعا.

ـ لكن نزولك في الفندق سيكلِّفك الكثير من المال!!

ـ وما العمل؟ هل تقترح علي تأجير بيت، مثلا؟

ـ لا هذا ولا ذاك، عندي لك خيار أفضل، يريحك تماما من التكاليف.. أنت تعلم أن العديد من المُتعاونين مع بلدنا يغادرون أثناء الصيف، وهناك منهم من انتهى عقده وغادر نهائيا، ولهذا

سأعطيك مفاتيح سكن لأحد المُغادرين، لتقضي فيه عطلتك مع زوجتك.

وسُرَّ مصطفى أيُّما سرور بمُقترح صديقه، وشكره على مساعدته الكبيرة له، واعتبرها ضربة حظ لم يحلم بها، ستجعله يقضي عطلة مريحة له جسديا وماليا. وعندما أنهيا الغداء، قام يوسف الصديق ليدفع الحساب، ولكن مصطفى اعترض عليه بقوة، وأبى إلا أن يكون الغداء في هذه المرة على حسابه هو، وأمام إصراره على الدَّفع، نزل يوسف عند رغبته. وفي طريق العودة، طلب منه يوسف أن يمُر عليه صباح اليوم التالي، في مكتبه، ليسلّمه مفاتيح الإقامة التي واعده بها.

وودَّع مصطفى صديقه، وقصد المستشفى، وكانت جُمان قد تناولت غداءها بمطعم عمَّال المستشفى، واتجهت منه رأسا إلى غرفتها، فتمدَّدت على سريرها، وغفت عينُها، فاستغرقت في النوم، خاصة أنها لم تكن تعلم أن مصطفى سيأتي في هذا اليوم، ولذلك جاءت استجابتها للطرق الخفيف على بابها متأخرة. وما إن رأته واقفا أمامها حتى ارتمت عليه، وتعلَّقت به بقوة، وأغلقت الباب خلفه، وراحت تقبِّله بلهفة شديدة على شفتيه، وعلى كل جزء تطاله من رقبته، وصدره، وشعر رأسه. وعندما هدأت قليلا، وجلسا على حافة السرير، أخذت تلومه، لأنه لم يخبرها بمجيئه، وإلا لكانت قد

انتظرته في المطار، فتركها تفرغ شحنتها العاطفية من اللوم، قبل أن يرد عليها بهدوء، وبابستام:

ـ كيف لي أن أخبرك؟ برسالة؟ والرسائل مكدَّسة في مكاتب البريد، ولن تصلك قبل شهر.. بالتلفون؟ وليس لك تلفون.. ببرقية؟ وهذه أيضا غير مضمونة الوصول إليك.. ثم إنني لا أريدك أن تتغيَّبي عن حصة التدريب من أجل أن تقابليني في المطار..

ورأت جمان أن حجَّته أقوى، فتوقفت عن لومه، وراحت تسأله عن أيامه كيف قضاها في غيابها. وكانت ترغب أن تسمع منه عبارات الشوق إليها، وانشغاله بالتفكير فيها، وشعوره بالفراغ في غيابها، فعبَّر لها عن كل ذلك بالكلمات الرقيقة، والهمسات، والملاطفات، غير أن حرارة الغرفة كانت أقوى مما يُحتمل، فتوقَّف عن الغزَل، وطلب منها أن تحمل ما تحتاج إليه لينتقلا إلى فندق إتساندرا، لقضاء ليلتهما فيه. وعلى الرغم من جو الغرفة الخانق، رأى أن لا يحرمها الفرحة، ويؤجل إخبارها بالسكن الذي سينتقلان للإقامة فيه في اليوم التالي. ولم تسَعْ الفرحة جُمان، وألحَّت عليه أن يُعلِمها بتفاصيل أكثر عن الإقامة الجديدة، ولكنه اعتذر لها، وهو يُظهر تأفُّفه من جو الغرفة الخانق، مؤجلا الحديث في الموضوع إلى حين وصولهما إلى الفندق، حيث الهواء المُكيَّف، ونسمات البحر العليل، وسألها في شيء من الإشفاق:

ـ لا أدري كيف أمْضيْتِ الأيام العَشرة الماضية في هذا السَّاونة؟!

ولم تفهم بالضبط معنى "السَّاونة"، ولكنها أدركت أنها مكان شديد الحرارة، فابتسمت له وأجابته:

ـ أنت متعوِّدٌ ليس على هذا الحَر..

فصحَّح لها: قولي: أنتَ غيرُ مُتعوِّد على هذا الحَر..

وأعادت العبارة مرتين، لترسخ في ذهنها، ثم أضافت:

ـ أنا متعوِّدة على الحَرارة..

وحملت بعض أغراضها الخفيفة، وركبا سيارة أجرة من أمام المستشفى، أوصلتهما إلى فندق إتساندرا. وما إن أخذا حمَّاما سريعا، وتطيَّبا، وتعطَّرا، وراحا يبُثان شوقهما لبعضهما، ويتهيآن لإطفاء نار الجسد التي أرغمهما الفراق على الاكتواء بها، حتى تذكَّر حبوب منع الحمِل، فسألها عنها، فاكتشفت أنها نسيتها في غرفتها بالمستشفى، وكان قد أوصاها على مُداومة تناولها كل ليلة، حتى أثناء غيابه، وهو ما التزمت به، وعندئذ أوقف مصطفى كل استعداداته، وتنحَّى عنها جانبا، فأصيبت بانتكاسة نفسية شديدة، وأحسَّت في هذه اللحظة إحساس من كان مُقبلا على أكلة اشتهتها

نفسه وقُمِع عليها بقسوة، واستغربت إصرار مصطفى على تناولها حبوب منع الحمل، وتساءلت مع نفسها بشيء من الأسى والشك: "أيكون قد تزوَّج بها من أجل المتعة لاغير؟ ليلقي بها في الأخير كقشرة موز، ويرحل عنها إلى غيرها، أو يرحل عن البلد كله؟!"، لكنها كتمت مشاعرها عنه، وما ساور نفسها من خيبة وشك. ولاحظ ما أصابها من خيبة، فأخذ يبرِّر لها سبب إصراره على أن لا تحْبَل، وكأنه قرأ ما دار بخلدها، وكرَّر على مسمعها ما قاله لها أكثر من مرة: "...أنَّ الظَّرف غير مناسب للإنجاب، وأن أمامهما مُتَّسعا من الوقت لذلك، وأن تربية الأطفال مسؤولية كبيرة، تتطلب الكثير من التضحية، والوقت، والجهد.."

وفي الوقت الذي انشغل فيه بارتداء بنطلونه وقميصه، ظلت هي مُمدَّدة على السرير، شبه عارية، تستمع إلى مُبرِّراته في صمت، وتقاوم، بصعوبة، دموعا توشك أن تطفر من عينيها، وجهشة غصَّ بها حلْقها، فتقدم منها، وأقعدها على حافة السرير بكل لطف، وقبَّل رأسها، وعينيها، ودعاها إلى ارتداء لباسها، من أجل أن يعودا إلى المستشفى لإحضار الدواء، فانصاعت إلى طلبه في صمت، وقامت في تثاقل، وارتدت لباسها، وخرجا.

عندما رجعا إلى الفندق ثانية، كان وقت القيلولة قد فات، وخفَّت درجة الحرارة، وصار الجوُّ رائقا، فاقترح عليها النزول إلى

شاطئ الفندق، للتبرُّد بمياه البحر الصافية ساعة من زمان، ولكنها لم تتحمَّس لاقتراحه، فألح عليها، فنزلت معه ولكنها امتنعت عن السِّباحة، مع أن الشاطئ كان خاليا إلا منهما، وفضَّلت أن ترتاح على كرسي خشبي، في ظل شمسية كبيرة، من تلك التي غرسها عمَّال الفندق للزبائن في رمل الشاطئ. وراحت، وهي في حالة استرخاء، تتابعه وهو يسبح، وكان بين الحين والحين يلوِّح لها بيده، ويحاول أن يغريها بالالتحاق به، لكنه لم ينجح في إغرائها، بل هو الذي اضطر إلى الالتحاق بها حيث كانت تجلس، عندما حمل لهما نادل المقهى كأسي عصير مُثلج. وظلَّا على تلك الحال من الاسترخاء، إلى أن شهدا معا غروب الشمس وهي تغوص عند الأفق في ماء البحر، وبعْدَئِذ صعدا إلى غرفتهما، وأخذا دُشًّا مُنعشا، ونزلا إلى مطعم الفندق للعشاء، ثم عادا ثانية إلى غرفتهما.

وأمضيا معا وقتا ممتعا قبل الخلود إلى النوم، عوَّضا فيه بعض ما فاتهما طوال عشرة أيام من البعد عن بعضهما. وحدَّثته عن نوعية التدريب الذي تتلقاه، رفقة مجموعة من الزميلات، أكثرهن من موروني، ولذلك لم تجاورها في الإقامة إلا زميلة واحدة جاءت من موهيلي، لها مستوى تعليمي جيد، وسنوات من الأقدمية في التمريض بمستشفى فومبوني. وحدثته

أيضا عن المُدرِّبة الصينية، التي أعجبت بشخصيتها أيما إعجاب، لجدِّيَّتها، وصرامتها في تطبيق برنامج التدريب، على الرغم من الابتسامة التي لا تفارق شفتيها، حيث خصَّصت كل الأيام الماضية لجعلهن يكتشفن، بصفة تدريجية، مكامِن الطاقة في الجسم البشري، عن طريق الرسوم التوضيحية على السبورة، في مرحلة أولى، ثم التعرُّف عليها بطريقة عملية في مرحلة ثانية، وذلك بإخضاعهن، الواحدة تلو الأخرى، لعملية الضغط باليدين، الذي تقوم به واحدة من المتدرِّبات، ثم تقوم بتدليك تلك الأماكن الحسَّاسة في جسم المتطوِّعة، تحت إشراف المُدرِّبة وتوجيهها، وأمام أنظار الأخريات، مع شرح بسيط، بلغة فرنسية مكسَّرة، ولكنها مفهومة، للغرض من عملية الضغط والتدليك، والفائدة من تحرير الطاقة الكامنة في تلك الأماكن. وقد أوضحت المدرِّبة لهن أن التدليك، وكذا الضغط بالأصابع على أماكن معيَّنة في الجسم، يؤدي الوظيفة العلاجية نفسها التي تؤديها الإبر الصينية، إلا أن العلاج بالإبر أكثر تعقيدا، ويحتاج إلى سنوات من الدراسة واكتساب الخبرة، بالإضافة إلى كون الإبر غير مُتوفِّرة دائما، وباهظة الثمن حين تتوفَّر.

وكان مصطفى يستمع باهتمام لحديث جمان، ثم سألها:

ـ وهل أعلمتكُن بما ستقُمْن به في المرحلة اللاحقة.

ـ مع بداية الأسبوع القادم، سنشرع في تطبيق ما تعلمناه على المرضى أنفسهم.

فعلق مازحا:

ـ أرجو أن لا تبخلي عليَّ بعلاجك السحري هذا.

ـ ومِمَّا تشكو أنت، يا حبيبي؟!

ـ من ألم الظهر والعضلات حينما أمارس الرياضة.

ـ لا تسخر مني، أرجوك.. مهمتنا الأساسية هي العناية بالنساء الحوامل، وتليين عضلات البطن لدَيْهن، وإزالة آلام الظهر والمفاصل، والصداع الذي يتكرَّر مع المرأة في مرحلة الحمل، و...

فقاطعها بذات اللهجة المازحة:

ـ هذا يعني أنه امتياز خاص بالمرأة وحدها، أما الرجل فلا حظ له فيه.

ـ لا، يا حبيبي، ليس امتيازا خاصا بالمرأة وحدها، إذ يمكن علاج الصُّداع، مثلا، عن طريق الضغط والتدليك، وتشنج العضلات، وآلام المفاصل لدى كبار السن، من النساء أو الرجال، وإزالة التوتُّر والكآبة عن أي مريض تظهر عليه مِثل هذه الأعراض.

ـ هذا جيد، إذن، سأعتبر نفسي أول مرضاك..

***

في صبيحة اليوم التالي، أوصلها مصطفى إلى المستشفى، وتوجَّه بعد ساعة من ذلك إلى مجمَّع الوزارات، لاستلام مفاتيح الإقامة الجديدة من صديقه يوسف الصديق، فأبَى هذا الأخير إلا أن يرافقه بنفسه لمعاينة البيت. وكان بناءً أرضيا، مستقلا بذاته، شبيها ببيته في هضبة هومبو، يقع في حي جديد، بالجهة الشمالية من المدينة، خُصِّص للمتعاونين الأجانب، ولذلك كان شبه مهجور، لأن معظم ساكنيه كانوا قد غادروه بمناسبة العطلة الصيفية، فارتاح للمكان، واطمأن لتوفُّر البيت على كل ما يلزم من أسباب الراحة. وحينئذ سلَّمه يوسف الصديق المفاتيح، وعاد إلى عمله في مجمع الوزارات.

عند الظهر، وفي انتظار خروج جمان من المستشفى، قصد وسط المدينة، واشترى مِلايات جديدة للسرير، وأكياس مِخدَّات، وما يلزم من خبز، وخضر، وفاكهة، وسمك، وماء معدني، ومواد تموينية أخرى، كالشاي، والقهوة، والملح، والزيت، والسكر، وكذا الصابون والشامبو وخَيْش مسح الأرضية. وانتظر جمان وقتا آخر بعد خروجها، جمعت فيه حاجاتها في حقيبتها، التي صارت أثقل مما كانت عليه من قبل، وزادت عليها كيسا بلاستيكيا كبيرا، جمعت فيه أغراضا أخرى، ثم انطلقا في سيارة أجرة إلى بيتهما الجديد.

انبهرت جُمان حين رأت البيت من الخارج، وازدادت انبهارا حين دخلته وراحت تتنقَّل في أرجائه، بين المطبخ، والغُرف، والحمَّام، وتُعاين الأثاث، وأواني المطبخ. ولم تجد ما تعبِّر به عن فرحتها إلا قولها: "شكرا لك، يا حبيبي.. أحس وكأنني رجعتُ إلى بيتنا في موتسامودو".

وأنستها فرحتها إحساسها بالجوع والتعب، فتناولت في الحين جردل التنظيف، وأخذت تمسح أرضية الصالون وغرفة النوم، في الوقت الذي دخل فيه مصطفى إلى الحمَّام، ليزيل عنه العرق، ويلبس لباس البيت، وعندما خرج، دخلت الحمام بدورها. وأثناء ذلك علَّق في رقبته مرْيلة، وشرع يشوي السمك الذي اشتراه، ويرتجل في الوقت نفسه سلطة مُشَكَّلة من الخيار والطماطم والبصل. وبعد الأكل، تعاونا في إلباس حشيَّة السرير والمِخدَّات بالأغطية الجديدة، وبسَطا عليها المُلاءات، وأسدلا الستائر، ثم تمدَّدا إلى جانب بعضهما، وهما في غاية السعادة، يتهامسان، ويتناجيان، ويتبادلان القُبل، إلى أن غلبهما النوم، فاستسلما لرُقاد هادئ، مليء بالأحلام الوردية.

في اليوم التالي، اكتشف مصطفى أن البيت المُجاور لم يكن خاليا من ساكنيه، كما ظن بالأمس. اكتشف ذلك بعد أن أوصل جُمان إلى المستشفى ورجع. وجد جاره جالسا في فِرَنْدا بيته، مُنهمكا

في قراءة صحيفة بين يديه. وما لفت نظره، منذ الوهلة الأولى، أن الرجل كان يرتدي جُبَّة عربية، مشقوقة الصدر، واسعة الأكمام، وكان، كما بدا له، يقاربه في السِّن. وحينما أحس الرجل به، رفع رأسه عن الصحيفة، والتفت نحوه، فبدت له ملامحه العربية بشكل لا تخطئه العين، فحيَّاه بحركة من رأسه، ثم تقدم منه ليتعرف عليه، وبادره بالسلام:

ورد عليه الرجل بعربية خالصة:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله.. مرحبا بك.. مَنِ الأخ؟

ـ أخوك مصطفى بن سعيد، من الجزائر.. جارك الجديد في هذا البيت القريب منك..

ـ أهلا بك، أيها الأخ.. وأخوك عبد الكريم القفْصِي، من تونس..

ـ خيَّار الناس.. أتشرف بمعرفتك..

ـ ولي الشرف أيضا.. ربِّي يحفظك..

ودعاه عبد الكريم إلى الجلوس، وصبَّ له شايًا أخضر، ثقيلا، ودخلا بسرعة في حديث التعارف، فأعلم مصطفى جاره بأنه نزل مؤقتا بموروني، صحبة زوجته المُمرِّضة، التي تتابع دورة تدريبية في

مستشفى المدينة، وأنه سيعود إلى عمله في ثانوية موتساmodo في نهاية شهر سبتمبر. وعلم من جاره الجديد، أنه يعمل، هو الآخر، في سلك التعليم، كأستاذ للغة الفرنسية، في ثانوية سعيد محمد الشيخ بموروني، وأنه لم يسافر في العطلة إلى تونس، بسبب زوجته التي هي على وشك الولادة، خشية أن يفقدا مولودهما في ساعات السفر الطويل بالطائرة. وسأل جاره كيف أنه لم يره في الندوة التربويَّة التي عُقدت قبل العطلة بثانوية موروني، فردَّ ذلك إلى انشغاله حينذاك بمرض طارئ ألَّمَّ بزوجته، نتج عن مضاعفات الحمل، وهو ما منعه من الحضور.

وحدَّث جُمان عندما رجعت من المستشفى عن جارهما الجديد، وطلب منها أن تقوم بزيارة لزوجته الحامل، لتتعرَّف عليها، وتستأنس بها، وتعرض عليها مساعدتها فيما قد تحتاج إليه، وهو ما بادرت جُمان إلى القيام به في تلك العشية، أثناء خروج مصطفى وعبد الكريم، في جولة غير بعيد عن سكنيْهما. وعندما عادا من الجولة، أعلمته جمان بالانطباع الجيِّد الذي تركته الجارة سُميَّة في نفسها ـ وهذا هو اسمها ـ وقد دعتها إلى مساعدتها يوم السبت في إعداد طعام الكُسْكُسي.

وارتاح مصطفى للتوافق الذي حصل بين جُمان وسُمية، وقال لها:

ـ ... وهكذا ستتعلَّمين كيف تَعُدِّين لي طعام الكسكسي مستقبلا، لأنني لم أذق طعمه منذ جئت إلى الجُزر، واشتهَيْتُ أكله كثيرا..

وفي براءة تامة، سألته:

ـ هل ينبت الكسكسي في الأرض مثل الأرز؟

وضحك من سذاجتها، وأجابها:

ـ حبات الكسكسي لا تنبت في الأرض مثل الأرز، ولكنها تصنع من طحين القمح، الذي يخرج من الأرض مثل سنابل الأرز.. لا تستعجلي الأمر، ستعرفينه يوم السبت مع السيدة سُمية..

***

قبل منتصف نهار الجمعة بقليل، وأثناء ما كان مصطفى يُعِد طعام الغداء، سمع طرقا على الباب، ففتحه، ليجد جاره عبد الكريم في حُلة مُغايرة تماما للباسه المُعتاد، حتى إنه لم يتعرَّف عليه في الأول، حيث كان يضع طربوشا تونسيا أحمر على رأسه، ويلبس جُبَّة تقليدية، مطرَّزة الصدر والكُمَّين، وينتعِل "بَلْغَة" جلدية بيضاء، ولم يتأكد من شخصه إلا حين خاطبه بلهجة أهل الجنوب التونسي المميَّزة:

ـ اليوم يوم الجمعة، ألا نَترافق إلى المسجد الجامع لأداء الصلاة؟

ومثلما تفاجأ بلباس عبد الكريم، تفاجأ بمُقترحه، ولم يجد ما يردُّ به عليه إلا بالقول:

ـ لست مُتوَضِّئا..

ـ مازال وقت الصلاة.. توضَّأ.. وسأنتظرك..

وتحرج من مصارحة جاره بأنه لا يُصلي، فقال، وهو يشير إلى المِرْيَلة التي كان يلبسها:

ـ .. أنا الآن كما ترى، مشغول بإعداد طعام الغَداء، في غياب ربَّة البيت، كما تعلم..

ـ طيِّب.. نترافق يوم الجمعة القادم، إن شاء الله..

قال عبد الكريم ذلك، ويمَّم نحو الطريق العام، قاصدا المسجد الجامع، فأغلق مصطفى الباب، وعاد إلى ما كان منشغلا به في المطبخ..

في اليوم التالي، ترافق مصطفى وعبد الكريم في جولة إلى مركز المدينة، وتركا زوجتيْهما تعُدَّان طعام الغداء، وهكذا أمضت جُمان الصبيحة مع سمية في إعداد الكسكسي، فبعد أن هيَّأت ما يلزمه من

اللحم، والخضر، والبهارات، ووضعت القدر على النار، راحت جُمان تتابع سمية باهتمام وهي تبُلُّ الدقيق بالماء في قصعة خشبية، وتدعَكه بيديها، وتفتِلُه بأصابعها، وتكرِّر بلَّه بالماء، إلى أن تحوَّل بين يديها إلى كُوَيْرات دقيقة، مُنفصل بعضها عن بعض، ثم وضعته في "كسكاس" مُثقَّب، يسمح بتسرُّب بخار الماء إليه، ووضعت الكسكاس على القِدر. وانتظرتا معا، إلى أن نضُج خليط اللحم والخُضار، وفار الكسكسي، فطلبت سمية من جُمان أن تفرغ الكسكسي مُجدَّدا في القصعة الخشبية، ثم أخذت تَفرُكه، وتُفرِد حبَّاته بين يديها، وتضيف إليه بين الحين والآخر قليلا من الزيت، لتساعد الحَب على الالتئام، وذرَّت عليه في الأخير الملح، وأعادته إلى الكسكاس، ليفور ثانية على النار، وبعدها أطفأت الموقد، وقالت لجمان:

ـ الآن صار الكسكسي جاهزا للأكل..

ووضعت سمية مقدار ملعقتين أو ثلاث في صحن، وأضافت إليها قليلا من مرق الخضار واللحم، وطلبت من جمان أن تتذوَّقه، فوجدته غريب الطعم على لسانها، ولكنه لذيذ، وعبَّرت عن ذلك بالقول:

ـ همم.. لذيذ جِدا..

وهكذا تعلمت جُمان كيفية إعداد هذه الأكلة الشعبية الشهيرة، الضاربة في القدم، في كل بلاد الشمال الإفريقي، من

مراكش إلى برقة، وحفظت مراحل إعدادها، فقالت لمصطفى، بعد أن تناولا الغداء في بيت عبد الكريم وسمية، وعادا إلى بيتهما:

ـ أستطيع أن أُعِد لك الكسكي من الغد، إذا شئت، على أن تشتري لي القِدر والكسكاس الخاص به..

ـ وهو كذلك، يا أميرتي، على أن يكون ذلك يوم السبت القادم، وندعو عبد الكريم وسمية للغداء عندنا.

وعلى الرغم من إعجاب جمان بطعم الكسكسي ولذَّته، فإنها لم تأكل منه إلا القليل، لأنها غير متعوِّدة على أكله، ولذلك شعرت، بعد أن صحَت من نوم القيلولة، بجوع شديد، لم يُسكِته إلا الأرز بالسَّمك، الذي كان محفوظا في البراد، ودعت مصطفى، وهي تمتدح لذة الأرز، لمشاركتها الأكل، ولكنه تمنَّى لها شهية طيِّبة، وقال لها وهو يبتسم، إن معدته مازالت تختزن كمية معتبرة من الكسكسي، ويريد أن يحتفظ بطعمه في فمه أطول مدة ممكنة.

وفي ذلك المساء أحس مصطفى بصداع في رأسه، وبحث عن قرص أسبرين في صيدلية المنزل يخفف به الألم، فلم يجد منه شيئا، فقالت له مازحة:

ـ يبدو أن الكسكسي هو السبب..

ورد عليها في ثقة تامة:

ـ هذا مستحيل.. فالقرويُّون في بلدنا يأكلونه كل مساء، وينامون في راحة كاملة..

وتخلَّت عن مزاحها، وعرضت عليه معالجة صداعه بالضغط، على الطريقة التي تعلَّمتها في التدريب، فاستصْوَب فكرتها، وأسلم لها رأسه، فأخذت تضغط بأناملها على صُدغيه، وعند منبت الشعر في ناصيته، وعند ملتقى الحاجبين، وما هي إلا لحظات حتى أحس براحة كبيرة، وبالصداع يتلاشى شيئا فشيئا، إلى أن زال عنه الألم تماما. وكان ينتظر أن تتوقَّف عن التدليك، ولكنها لم تتوقف، ونقلت أصابعها إلى أماكن أخرى، وراحت تداعب شعره، وتقبِّل رأسه، فقال لها وهو ما يزال مُستسلما للمسات أناملها وقبلاتها:

ـ لا أظن أن المدرِّبة الصينية قد أوصتك، وزميلاتك، بمداعبة شعر المرضى وتقبيل رؤوسهم..

وضحكت ضحكة مُدويَّة، وردت على تعليقه بقولها:

ـ غيور.. حبيبي غيور..

وتناول يدها وقبَّلها، وقال:

ـ هذا صحيح.. أنا أغار عليك، ولا أريد لهذه الأصابع اللطيفة أن تلمس رأس أو شعر رجل آخر غيري.

ـ اطمئن، يا حبيبي الغيور.. ففي المستشفى، تختص المتدرّبات بمعالجة النساء فحسب.

ـ هذا أفضل..

***

ذات صباح، وبينما كان جالسا في فرندا بيته، يشرب القهوة، ويقرأ تحقيقا في مجلة "أفريك آزي"، عن آخر مغامرات المرتزق الفرنسي العقيد "بوب دونار" في إفريقيا، توقّفت قُدّام بيته سيارة "رونو" زرقاء، ونزلت منها سيلة، في حوالي الأربعين من العمر، شقراء البشرة، زرقاء العينين، وبادرته بفرنسية ذات لكنة أنكلو-أميريكة صارخة:

ـ عفوا.. هل هذا هو بيت السيد "برونو"، أم أنا مخطئة؟

فوقف احتراما لها، ووضع المجلة على المنضدة، ورد عليها:

ـ متأسف، سيدتي، أنا لا أعرف السيد برونو، لأنني ساكن جديد في هذا البيت..

ـ كان السيد برونو يسكن هنا، أنا متأكدة من هذا..

ودعاها إلى التفضل بالجلوس، فقدّمت له نفسها:

ـ مِسْ ميري، مُتطوِّعة في جيش السلام الأمريكي..

وقدم لها نفسه بدوره، قبل أن يضيف:

ـ لا أعرف الساكن القديم لهذا البيت، ولكنني أعلم أنه غادر الأرخبيل نهائيا..

وبدت الآنسة ميري في حيرة من أمرها، ثم قالت وكأنها تحدِّث نفسها بصوت مسموع:

ـ مع أنني اتفقت معه على شراء السيارة..

ـ عذرا، سيدتي، لم أفهم ما تعنيه؟

ـ كنت اتفقت مع السيد برونو على شراء سيارتي هذه عندما أغادر إلى الولايات المتحدة..

ولم يعلق بشيء على كلامها، لأنه اعتبره إعلاما له لا غير. وقطع الصَّمت بعرضه فنجان قهوة عليها.

ـ أشكرك.. لكن، لابد لي أن أبيع السيارة، وليس معي إلا ساعتان قبل أن أطير إلى نيروبي، ومنها إلى الولايات المتحدة..

ولم يجد شيئا يقوله لها، فظلَّ صامتا، فبادرته:

ـ ألا ترغب أنت في شرائها؟

ـ لا، لم أفكر في شراء سيارة مطلقا..

ـ ألا تعرف أحدا يرغب في شراء سيارة؟

ـ لا أعرف، لأنني ساكن جديد في هذا الحي، كما قلت لك..

ـ إذن، اشترِها أنت، سأبيعها لك بنصف ثمنها..

وابتسم لها، ثم سألها بدافع الفضول:

ـ وكم يبلغ نصف ثمنها هذا؟

ـ عشرة آلاف فرنك.. انظر إليها، إنها تساوي عشرين ألفا.

ـ مع الأسف، لا أملك هذا المبلغ..

ـ كم لديك؟ سبعة آلاف مثلا؟

وفكر في إبعادها عنه بقوله:

ـ ليس معي في البنك إلا خمسة آلاف.

وقبل أن يستفيق من المأزق الذي وضع فيه نفسه، ردَّت عليه:

- OK.. أقبَلُ بخمسة آلاف، لأنني مُضطرَّة..

ووجد نفسه متورِّطا في صفقة لم يفكِّر في إبرامها، وهو الذي اعتاد أن يُفكر في كل شيء يُقدِم على فعله في حياته، وركب السيارة

إلى جانب الآنسة ميري، وتوجَّها إلى البنك ليسلمها المبلغ، وعندئذ وقَّعت له على وثيقة بيع كانت قد أحضرتها معها، وسلَّمته إياها، ومعها أوراق السيارة ومفاتيحها، وطلبت منه آخر خدمة، وهي أن يوصلها إلى مطار "هاي هايا" حتى لا تفوتها الطائرة، وهو ما قام به دون تردُّد.

وفي طريق العودة، بدا له أنه وضع نفسه في وضع مالي صعب، وتساءل مع نفسه: ترى كيف سيكون حالي لو تأخر وصول راتبي الشهري أسبوعين أو أكثر، مثلما حدث لي في مرات سابقة؟ هل سأضطر إلى بيع السيارة مجددا؟ هذا، إن وجدتُ من يشتريها منِّي !!

وأفسدت عليه هذه الخواطر فرحته بالسيارة، ولكنه عاد وتفاءل خيرا، وتمنَّى أن لا يضطر إلى بيعها، لأنه من الناحية العملية في حاجة إلى سيارة، تسهِّل له التنقُّل في المدينة، وتمكِّنه من الذهاب للاستحمام في البحر، ومن الوصول بسهولة إلى مختلف أنحاء الجزيرة، مما سيجعل عطلته ممتعة ومفيدة.

وفكَّر في الذهاب للقاء جمان بالسيارة عند خروجها من المستشفى، ولكنه لاحظ أن الوقت ما يزال مبكرا، كما تذكر أن عليه أن يُعِد طعام الغداء أيضا، فتخلى عن فكرته. وعندما نزلت جمان من سيارة الأجرة التي أتت بها من المستشفى، ورأت السيارة

الزرقاء متوقفة عند باب البيت، ظنَّت أن هناك زوَّارا في الداخل مع مصطفى، ولكنها وجدته وحيدا في المطبخ، فاستغربت الأمر، وسألته:

ـ لمن هي السيارة المتوقفة عند باب البيت؟

ومدَّ يده فأنقص النار على المقلاة، وأجابها مبتسما:

ـ هذه سيارتك.. ألم تعجبك؟

فألغز عليها الأمر، وظنَّته يمزح، فسألته ثانية:

ـ دعك من هذا وقل لي لمن هي؟

ـ قلت لك هي سيارتك..

ـ اشتريتها؟

وحرَّك رأسه بالإيجاب..

ـ قلت لكَ لا تمزح.

ـ أنا لا أمزح.

وحينئذ قفلت راجعة إلى السيارة، ودارت حولها، تتأمل شكلها ولونها، ومقاعدها، ثم عادت:

ـ أنت لا تمزح، إذن.. قلت لي إنها سيارتي؟

ـ تماما.. اشتريتها لك لأُريحك من التنقل في سيارات الأجرة..

ووقفت لحظة تنظر في عينيه، غير مصدقة ما سمعته منه، وعندما تبيَّن لها أنه صادق في نظرته، ونبرة صوته، ألقت بحقيبة يدها على الأريكة، واندفعت نحوه في تأثر واضح، وقد أوشكت أن تطفر الدموع من عينيها، وطوَّقت رقبته، وقبَّلته، واحتضنته بشدة، وخبأت رأسها في صدره، غير آبهة ببُقع الزيت في مِرْيَلته، وما علق بها من قشور الثوم والبصل، بينما ظل هو مُشرِعا يديه بعيدا عنها، حتى لا يلوِّث لها لباسها، وقد حمل سكينا في يمينه، وشوكة في يساره.

وعندما أرْخَت أخيرا قبضتيها عن وسطه، وانتبهت إلى أنها لم تغيِّر لباس الخروج بعد، راحت تنفُض عنها ما علق بقميصها وتنُّورتها من قشور الثوم والبصل، ثم قالت، وكأنها تذكَّرت شيئا مهما، وقد ارتسمت علامة الخيبة على وجهها:

ـ لكنني، يا حبيبي، لا أحسن قيادة السيارة !!

فطمأنها وهو يبتسم:

ـ سأكون أنا سائقك الخاص، وسأعلِّمك القيادة..

ـ لكنني أخاف أن أدهس المارَّة..

ـ عندما تقودين على مهل، وتكونين مُنتبهة أمامك، لن تدهسي أي أحد..

بعد الغداء والقيولة، خرجا في جولة بالسيارة، قادتهما إلى فندق إتساندرا، حيث تناولا العصير المثلج في سطح المقهى، وتجوَّلا ساعة من زمان على شاطئ البحر، وتفرَّجا معا على مغيب الشمس، ثم قفلا راجعين إلى بيتهما جَذِلَيْن، مُنشرِحَيْن.

***

16

يقَظة مُفاجِئة لعاطِفة الأمُومة

خصَّص مصطفى ساعةً واحدة لتعليم جُمان قيادة السيارة عصْرَ كل يوم، وساعتين في نهاية الأسبوع، ولم تكن المهمة سهلة في البداية، وخاصة بالنسبة لجُمان، التي انفجرت ذات يوم باكية، وكادت أن تيْأس من تعلُّم القيادة، ولكن مصطفَى هوَّن عليها الأمر، وادعى لها أن هذا ما حدث له شخصيا حين بدأ يتعلم قيادة السيارة، وظل يشجِّعها، ويصحِّح لها أخطاءها، إلى أن اكتسبت آلية القيادة شيئا فشيئا، وتعوَّدت على الانطلاق، والفرملة، وتبديل السرعة.

وأثناء توصيله لها إلى المستشفى صباحا، ورجوعه بها عند الظهر، كان يقف عند إشارات المرور التي تصادفهما، ويشرح لها معنى ما تشير إليه. وأفهمها أيضا أن شهادة السياقة غير مطلوبة في الأرخبيل، ولا وجود فيه لنظام تأمين السيارات ولا الأفراد، ولهذا تقع مسؤولية الحوادث التي يتسبب فيها السائق على عاتقه، ويدفع من جيبه ثمن كل ضرر يُلحقه بالغير، ويدفع الديَّة إن هو قتل شخصا بسيارته، وهذا ما أرعب جُمان، وجعلها تفكر في التخلي

عن تعلم السياقة، لكن مصطفى بدَّد خوفها بكونه هو من يتحمل المسؤولية في حال ارتكابها لمخالفة، أو تسبُّبها في حادث، لأن أوراق السيارة تحمل اسمه، وأوصاها، في المقابل، أن تكون حذرة، وتسوق على مهل، وتحترم المارة وقانون السَّير.

وبعد أن رافقها عدة أيام وهي تقود السيارة ذهابا وإيابا إلى المستشفى، شجَّعها على الذهاب بمفردها، فرفضت في الأول، وأصرَّت على مرافقته لها، ولكنها رضخت في الأخير لضغطه عليها، وتشجيعه لها في آن واحد. وعندما رجعت من المستشفى، في أول تجربة لها للسياقة بمفردها، كانت في قمة السرور، لأنها استطاعت أن تتغلَّب على خوفها، ونجحت في الاختبار.

***

مع الأيام، صارت السيارة جزء من حياتهما، يستعملانها في التنقل والتسوُّق، وللتنزُّه في عطلة نهاية الأسبوع، ولكن مصطفى كان حريصا أن لا تطغى النزهة بالسياق على الدروس التي ظل يعطيها لجمان في اللغة والحساب، وتوسَّع فيها قليلا لتشمل دروسا مبسطة في العلوم الطبيعية والهندسة، وصار يقرأ لها بعض المقالات الصحفية، ويناقشها فيها، وقد انعكس ذلك بشكل ملموس على مستواها في القدرة على النقاش، وفي ثقافتها العامة.

وأشركا معهما عبد الكريم وسُمية في الفُسحة المسائية بالسيارة إلى شاطئ البحر، خاصة أن سُمية كانت في شهرها التاسع، وتحتاج إلى الترويح عن نفسها، وإلى المشي يوميا لتسهيل الولادة عليها، فكانت جُمان ترافقها في السير على رمل الشاطئ، بقدمين حافيَّتين، تاركتين مصطفى وعبد الكريم يتبرَّدان في البحر، ويستمتعان بمائه المنعش، ولا يعودون إلا مع غروب الشمس.

ذات ليلة، وأثناء ما كان مصطفى وجمان مُستغرقيْن في النوم، أيقظهما دقٌّ مُلِحٌّ على الباب، فأدركا في الحين أن سُميَّة قد جاءها المخاض، وكانا يتوقعان ذلك، فلبسا ثيابهما على عجل، وركبت جمان مع سمية في الخلف، وركب عبد الكريم إلى جانب مصطفى، واضعا عند قدميه حقيبة صغيرة، كانت سمية قد أعدَّتها سلفا، تحتوي على ما يلزم النَّفْساء ومولودها من غِيَّارات. وفي قسم الولادة بالمستشفى، أعلمتهم القابلة أن الولادة الأولى للمرأة لا تكون إلا بعد ساعات طويلة من بداية آلام الطَّلْق، وكانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحا، ولذلك اقترح مصطفى على عبد الكريم أن يرجعه إلى البيت، ويعود به في الصباح الباكر، لكن عبد الكريم فضَّل البقاء في قاعة الانتظار بالمستشفى، وعندئذ عاد مصطفى بجمان إلى البيت، لتكمل نومها، حتى تستقبل يومها في التدريب بكامل قوَّتها.

وفي الصباح الباكر، قصد مصطفى وجمان قسم الولادة، فأخبرهما عبد الكريم أن سمية ولدت، وأنها في صحة جيدة، هي ومولودتها، فسارعت جمان لرؤيتها قبل أن تلتحق بقاعة التدريب، في الوقت الذي انطلق فيه عبد الكريم ومصطفى إلى السوق، لشراء ما يلزم المرأة النَّفْساء من أكل وفاكهة، وعادا إلى البيت، حيث غسل عبد الكريم الفاكهة، وشوَى قطعا من كبد الخروف، وملأ تُرمُسًا من منقوع الخولنجان، وحمل كل ذلك مع زجاجة حليب، وقنينة ماء معدني، وعاد به مصطفى ثانية إلى المستشفى. وفي الطريق سأله عن الاسم الذي اختاره للمولودة، فضحك، وروى له كيف أنه اختلف مع سمية عن تسمية المولود باسم والده أو والدها، إن كان ولدا، أو باسم أمه أو أمها إن كانت بنتا، واتفقا في الأخير على اسم مُحايد هو "الحبيب" إن كان ولدا، و"فُلَّة" إن كانت بنتا.

ـ جميل هذا الاسم، يا أبا فُلة، وهو يتفق مع أجمل الزهور وأكثرها انتشارا في هذه الجزر..

ـ كما يكثر عندنا في تونس، ويُقبل الناس على شراء "مشموم الفُل" بكثرة، ويُهدونه لبعضهم بعضا.

ـ أما اسم "الحبيب"، فيبدو أنه تيمُّنٌ باسم الحبيب بورقيبة.

ـ لا يعجبني هذا الاسم، ولكنني وافقت عليه نزولا عند رغبة سمية..

ـ يظهر أنك لا تحب بورقيبة..

ـ الحق أنني لا أحبه..

ـ لماذا؟ مع أنه يتمتع بشعبية كبيرة في بلدكم !

وتردَّد عبد الكريم في الإجابة، ثم قال:

ـ سأشرح لك السبب في وقت آخر.

وقبل أن يُنزِله من السيارة عند باب المستشفى، أعلمه أنه سيعود في الواحدة ليأخذ جُمان إلى البيت، ويمكنه أن يعود معهما إن بقي في المستشفى حتى ذلك الوقت.

عندما أنهت جُمان ساعات التدريب، سارعت لرؤية سمية في قسم الولادة، فوجدتها تستعد للمغادرة، بعد أن سمحت لها الطبيبة المختصة بالخروج ـ وهي طبيبة إيطالية، تعمل مع زوجها ضمن اتفاق تعاون بين إيطاليا والأرخبيل ـ فقامت جُمان بمساعدتها في جمع أغراضها، ووضعتها لها في حقيبتها، وعندما صارت جاهزة للخروج، نادت القابلة على عبد الكريم وسلَّمته ابنته، وتولَّت جُمان إسناد سمية، ومرافقتها حتى باب السيارة.

بعد القيلولة، أمضت جُمان كامل العشية مع سمية، تؤانسها، وتساعدها في الحاجات التي تحتاج إليها، ومن ذلك أنها ساعدتها في تحميم الوليدة، ووضعتها، بعد أن أرضعتها أمها، في مهدها، وأسدلت الناموسية على المهد. وقبل أن تفارقها في المساء، ذكَّرت سمية بوصايا الطبيبة والقابلة، بضروة الراحة التامة، حتى لا تحدث لها أية مضاعفات، وخاصة النَّزيف، وبالتغذية الجيِّدة، التي تدِرُّ الحليب، وتعوِّضها الدم الذي فقدته أثناء الولادة.

وصارت تلازم سمية في أماسي الأيام التالية، لتُؤنسها، وتُبدِّد عنها الكآبة التي تصيب النُّفساء عادة بعد الولادة، وتعتني معها بفُلَّة، وتساعدها في تحميمها، وتنشيفها، وتدليكها بالزيت الصَّيدلاني، الخاص بحديثي الولادة. وزهدت في الخروج مع مصطفى للتجول على شاطئ البحر. ولهذا صار مصطفى يصطحب عبد الكريم معه في جولاته المسائية، وهو ما أعطى لسمية وجُمان فرصة لإشباع عاطفة الأمومة لديهما، التي غلبت كل عاطفة أخرى، وكانت فرصة لهما أيضا للخوض في كل الأمور، على الرغم من الصعوبة اللغوية التي كانتا تجدانها في التعبير عن بعض المسائل، حيث كان لسان جمان يخونها أحيانا في إيجاد التعبير المناسب باللغة الفرنسية عما تريد أن تقوله، كما كانت سمية تعجز، هي الأخرى، في نقل بعض ما تكون قد فكرت فيه باللغة العربية إلى الفرنسية،

ومن ثمة تستعمل كلمات عربية، وتُحاول شرحها لجمان بالإشارة، والتكرار، حتى توصل معناها إليها. وهكذا حفظت جمان منها العديد من المفردات والتعابير العربية، وصارت تردِّدها في حديثها مع مصطفى، الذي كان يضحك من الكيفية التي تنطقها بها، ويُصحِّحها لها، ولكنه كان يشجِّعها على حفظ المزيد منها.

ومسَّت سمية وترًا حسَّاسا في نفسها، حين سألتها لماذا لم تحمِل من مصطفى بعدُ، على الرغم من مضي شهور عديدة على زواجهما! فردَّدت على مسمعها ما قدَّمه مصطفى لها من مُبررات، ومنها عدم استقرارهما بعد، والرغبة في الاستمتاع بزواجهما دون دوْشة الأولاد، ولكن سمية أبدت لها عدم اقتناعها بهذه المبررات، وسألتها سؤالا أحرجها وأثار مخاوفها:

ـ ماذا تفعلين لو أن زوجك وقع في شرَك امرأة أخرى، وطلَّقك من أجلها؟

وتذكرت في هذه اللحظة أن مصطفى كان يعاشر قبلها أندريا، ويعيش معها كزوج، ثم تخلَّى عنها، ولم تعد تخطر له على بال، فارتعبت من فكرة أن يتكرَّر ذلك معها، وتعكَّر مزاجها فجأة، وظهر الحزن على وجهها، ولكن سمية لم تُمهِلها أكثر وأضافت لها:

ـ الرجال غير مُؤتمنين، والحب بين الزوجين لا يدوم إلى الأبد.

وسألتها جمان في حيرة:

ـ وماذا أعمل، وهو لا يريد الأولاد؟

ـ عليك أن تحملي منه في أقرب فرصة، هذا هو العمل، فالأولاد هم الضَّمان الوحيد لربط الرجل في بيت الزَّوجية.

ـ ولكن كيف؟ وهو لا يريد، ويناولني بنفسه حبَّة منع الحمل كل ليلة.

وانفجرت سمية ضاحكة حتى أحست بالألم في أسفل بطنها، فعضَّت على شفتها، وردَّت عليها:

ـ هذه سهلة.. احتفظي بحبَّة الدواء تحت لسانك، ثم انصرفي إلى الحمَّام وابصُقيها، وأطلقي ماء السيفون عليها.

وتطلَّعت جُمان في وجهها، وقد ارتسمت في عينيها نظرة شك وتساؤل، فأوضحت لها سمية بصوت خفيض، كأنها تُطلِعها على سِر:

ـ هذا ما فعلته أنا مع عبد الكريم، لأنه لم يكن مستعجِلا هو أيضا على إنجاب الأطفال.

ودخلت جُمان بيتها في آخر المساء وهي منشغلة البال، وقد خلطت سمية كل الأوراق في ذهنها، ولاحظ مصطفى ذلك عليها

حينما عاد من جولته المسائية مع عبد الكريم، فسألها، فادَّعت أنها مُتعبة ومَصْدُوعة. ولم يساوره الشك في صدقها، لأنه يعرف جيدا أنها لا تكذب، وكانت حائضا، وهو ما يجعلها تشعر بالتَّعب والصُّداع.

وانقضت أيام عادتها الشهرية، ولكنها ظلت في حالة شرود، وفتور، وصمت، وعدم تجاوب مع مصطفى، وهو ما استغربه منها، فسألها:

ـ هل أنت مريضة؟

ـ لا..

ـ هل واجهتك مُشكلة في التعامل مع المريضات أثناء التدريب؟

ـ لا..

واحتار في أمرها، فسألها في لطف، وَهو يداعب يدها بين يديه:

ـ عزيزتي، صارحيني، أنا زوجك الذي يحبك، ما بك؟

فلم تجبه، وانفجرت باكية، فضمَّها إلى صدره، وراح يربِّت على كتفها، ثم راح يمسح دموعها بعد أن هدأت قليلا، وعاد يسألها:

ـ أخبريني ما بك، وأعدك أنني سأساعدك.

وعندئذ ابتعدت عنه قليلا، وسألته بلهجة غاضبة:

ـ إذا كنتَ تُحبُّني حقا، ومستعِدًّا لتلبية ما أرغب فيه، لماذا لا تريدني أن أحمل، وألد لك ولدا أو بنتا؟

وبقي بعض الوقت صامتا، ومشدوها، وأدرك أن جمان قد غارت من سمية، أو أن سمية نفسها قد حرَّضتها على طلب الإنجاب منه. وتذكَّر أن عبد الكريم كان قد أعلمه أنه لم يكن راغبا في الإنجاب من عامه الأول بعد الزواج، ولكن سمية فاجأته بأنها حامل، وادعت أنها أخطأت الحساب في تناول دواء منع الحمل. وسألها بكل لطف:

ـ عزيزتي، ألم نتحدث في هذا الموضوع من قبل؟ ألم نتفق على تأجيل الإنجاب إلى وقت مناسب؟

وردَّت عليه باللهجة الغاضبة نفسها:

ـ لكن إلى متى؟ أليس من حقي أن أكون أمًّا، ويكون لي ولد أو بنت؟

ـ بالتأكيد، ولكن ليس الآن..

ـ إلى متى؟

ـ إلى وقت يكون مناسبا.

وانقطع الحوار بينهما عند هذا الحد، وباتت ليلتها تدير له ظهرها. وفي الصباح، اكتفت بردِّ التحية باقتضاب، ودون ابتسامة، وحملت فطورها، على غير العادة، في كيس بلاستيكي، واتجهت نحو باب الخروج، دون أن ترد على تنبيهه: "مازال لديك متسع من الوقت لتناول فطورك". ولم تودِّعه بقُبلة خفيفة مثلما اعتادت، فلم يغضب من تصرُّفها، وخرج إلى الفرندة ليودِّعها، فلم تلتفت نحوه، وركبت السيارة وتهيأت للانطلاق، فحذَّرها وهي تنطلق:

ـ لا تسرعي.. كوني حذرة..

***

ومرَّ عليهما أسبوع كامل، تميَّزت فيه علاقتهما ببرود شديد، حاول فيه مصطفى أن يسترضيها بكل الوسائل، ولكن، دون تراجع عن موقفه من مسألة تأخير الإنجاب، وقد استرضاها بأربعة أساور ذهبية، اشتراها لها أثناء تجواله في حي صناعة الحلي بالمدينة، لأن يديها كانتا عاطلتين من أيَّة حِلْيَة، ما عدا خاتمها الذهبي الذي أهداه لها ليلة الدُّخلة، وساعة يدها، فلم تستطع أن تخفي فرحتها بالأساور، وعانقته، وقبَّلته، وكان ذلك بداية لعودة العلاقة بينهما إلى ما كانت عليه من الدِّفء والحميميَّة، غير أنها امتنعت عن مرافقته إلى بلدة "ميتساميولي"، في نهاية الأسبوع، مفضِّلة البقاء إلى جوار صديقتها

سمية، بالقرب من رضيعتها فُلة، التي تعلَّقت بها تعلقا شديدا، وصارت مع مرور الوقت كأنها أمٌّ ثانية لها.

في مقابل بقائها في البيت، رحَّبت بإعداد طبق الكسكسي بنفسها في هذه المرة، ودعوة سمية وعبد الكريم للغداء عندهما، فذهب مصطفى إلى السوق، واشترى ما يلزم من اللحم والخضار، وساعد جُمان في إعداد الوليمة، بتقطيع اللحم، وتقشير الخُضار، وقام بدور المراقب لمراحل الإعداد، وقدَّم لها أثناء ذلك نصائح وإرشادات، تتعلق بنوعية وكمية البهارات التي تضاف إلى المرق. وعندما جلس أربعتهم إلى مائدة الغداء، راحت جمان تترقَّب في شيء من القلق ردة فعل ضيفيهما، وكان عبد الكريم هو المبادر بامتداح طعم الكسكسي مع أول لقمة يضعها في فمه، وثنَّت سمية على مديح زوجها، وقالت لجمان بالعربية التونسية:

- يعطيك الصَّحة، أختي جُمان، تعلَّمتِ في ساع..

وقام مصطفى بترجمة ما قالته سمية، فظهر السرور على وجه جُمان، وابتسمت لضيفتها في امتنان، وزال عنها القلق الذي ساورها في البداية. وطالت جلستهم على المائدة، وأتبعوا الغداء بكاسات شاي أخضر، ثقيل، انصرفت بعده سمية وجُمان للعناية بفُلة وإرضاعها، في الوقت الذي جلس فيه مصطفى وعبد الكريم

في الصالون يتبادلان الحديث. وفي هذه الجلسة وجد عبد الكريم فسحة للإجابة عن سؤال كان قد طرحه عليه مصطفى من قبل: لماذا لا يحب بورقيبة؟ فامتدح ماضي الرجل، ودوره الكبير في تحرير البلد، لكنه أنكر عليه تضخُّم ذاته، وتحوُّله إلى رجل مُستبِد، يحكم البلد بقبضة من حديد، ويقمع كل مُعارض لنظامه..

وقاطعه مصطفى، ملاحظا له:

ـ لكنك تتحدث هنا عن صفة يشترك فيها معظم الزعماء العرب، فبورقيبة ليس استثناء بينهم!!

ـ هذا لا يبرر استبداده ولا استبدادهم كلهم، ولكنك أنت سألتني عن بورقيبة فأجبتك.. وقد سجنني، مثل كثير غيري، بسبب أفكاري، باعتباري إسلاميا.. ولا أكشف لك سِرًّا إذا قلت لك: إن وجودي هنا في أرخبيل القمر إنما هو نوع من النفي لي، وقد ارتضيته لنفسي، بحثا عن راحة البال.

وحرك مصطفى رأسه، مبديا عدم اقتناعه، وعلق قائلا:

ـ حكاية النفي هذه لا أفهمها، فأنت هنا أستاذ مُعار بصفة رسمية من وزارة التربية والتعليم التونسية..

فاستدرك عبد الكريم قائلا:

ـ دعني أغيِّر كلمة "النفي" بكلمة "الإبعاد". فنظام بورقيبة يستعمل مع الجميع سياسة العصا والجزرة، حتى مع أنصاره ومؤيديه، وأضرب لك مثالا على ذلك بالشاعر مْنوَّر صْمادح، الذي كان بمثابة شاعر البلاط، حيث زجَّ به بورقيبة في السجن، بعد أن ضاق الشاعر ذرعا بالاضطهاد الذي يمارسه على خصومه، وهجاه في أبيات مشهورة، صار الناس يردِّدونها في مجالسهم الخاصة.

ولمعت عينا مصطفى اهتماما، وطلب منه أن يسمعه ماقاله الشاعر مْنوَّر صْمادح.

ـ لم أعد أحفظ مما قاله إلا هذه الأبيات:

عهدي به جِدًّا فكان مِزَاحـــا   بدأ الضَّحيـــة وانتهَى سفَّاحا

مَن حرَّر الأصفاد من أجْسادها   عَقَل العُقول وكبَّل الأرْواحـا

كان السَّجينَ فصار سجَّانا لها   يا مَن رَأى سَمَكًا غدَا تِمْساحا!

ـ عظيم.. رائع !! ردَّد مصطفى، إعجابا بأبيات الشاعر، ثم أضاف:

ـ هذا هو الشعر الذي يهُز نفوس الأحرار، ويزعزع عروش الطُّغاة..

وقام من حينه، وأحضر دفترا وقلما، وطلب من عبد الكريم أن يُملي عليه الأبيات ليحفظها.

***

في تلك الأيام، وقعت جريمة، راحت ضحيتها امرأة في إحدى ضواحي موروني، ارتكبها رجل جاء مع موجة القمريِّين المُرحَّلين من مدينة "ماجنكا" بمدغشقر، في أواخر عام 1976، ارتكبها من أجل الاستيلاء على ذهب جارته، فأحدثت اضطرابا وقلقا في نفوس القمريِّين، الذين لم يتعودوا على وقوع جرائم القتل في مجتمعهم، إذْ لم تحدث بينهم جريمة قتل طيلة أربعين عاما، الأمر الذي جعل الرئيس يُصدر أمرا بقتل القاتل، رميا بالرصاص في الساحة العامة. وشهد مصطفى وعبد الكريم، مع جمهور كبير من الناس، تنفيذ الإعدام في المجرم.

ولسوء تقدير المسؤول عن الدعاية والأخبار في وزارة الداخلية، سمح بإعطاء الكلمة للقاتل، قبل تنفيذ الحكم فيه، أذيعت على الهواء مباشرة، أعرب فيها، بكلام مؤثر، عن ندمه الشديد عما اقترف في حق الضحية، وطلب الصَّفح من أهلها، ومن الجمهور الحاضر. وتحوَّل إلى واعظ يستدر عطف الجمهور، ويذكِّر الناس بما ينتظرهم في الآخرة، وينصحهم بالابتعاد عن الشر، وأخْذ العبرة من تورُّطه في قتل جارته من أجل حطام الدنيا الفانية، فكان

لكلمته أثرٌ عميق في نفوس المستمعين والمشاهدين، جعلهم يشعرون بالشفقة عليه، ويتمنون أن يتراجع الرئيس عن قرار قتله، لكن، كان السيف قد سبق العذْل، فاخترق الرصاص صدر المجرم، وفجر رأسه.

وفي طريق عودتهما، راحا يعلقان على ما شاهداه، فاستنكره مصطفى، واعتبره ممارسة همجية من مُخلَّفات القرون الوسطى، في حين، اعتبره عبد الكريم وسيلة رادعة لكل من تُسوِّل له نفسه قتل النفس التي حرَّم الله، واستدلّ على ذلك بالآية: "ولكُمْ في القِصاصِ حيَاةٌ يا أُولِي الألْبَاب لَعَلَّكُم تتَّقون". ودخلا في نقاش حول مفهوم العدل والقصاص، ففسَّر مصطفى معنى الآية التي استشهد بها عبد الكريم بقوله:

ـ إن الآية توصي بإقامة العدل بتطبيق القصاص، ولكنها لم تحدِّد وسيلة القصاص أو كيفيَّة تنفيذه.

ـ نعرف كيفية التطبيق بالرجوع إلى السُّنة النبويَّة.

ـ هذا صحيح، ولكن الزَّمان تغيَّر، وينبغي أن يتكيَّف تطبيق الأحكام مع هذا التغيُّر.

فرد عبد الكريم مُتعجِّبا:

ـ لكن، كيف نكيِّفه إذا ورد في نص قرآني صريح؟!

ـ .. نكيِّفه بكيفيات عديدة، ومنها مثلا، أن لا ينفَّذ حكم الإعدام في الساحة العامة.

ـ وأين نجد عنصر الردع إذن في عملية القصاص؟!

ـ نجده في تطبيق عملية القصاص نفسها، حتى لا يتحوَّل سخط الناس على القاتل إلى تعاطفهم معه، مثلما شاهدنا اليوم.

ودخلا في نقاش مطوَّل حول مفهوم العدل والقصاص في الشرائع الدينية، وفي القوانين الوضعية، وحول الغرض من معاقبة المُجرمين، أهو ردع للمُجرم، أم هو انتقام للضحية، أم هو منع لوقوع الجريمة وردع لمن يفكِّر في ارتكابها؟ وقدَّم كل واحد منهما حجَّته، ودافع عنها، وافترقا دون التوصُّل إلى نتيجة، خاصة أن أعصابهما كانت مُتأثرة بمشهد الإعدام.

ولم يعودا في الأيام اللاحقة إلى مناقشة موضوع الجريمة والعقاب، لكنهما تبادلا أخبار إقالة مسؤول الدعاية والأخبار، ومدير الإذاعة من منصبيهما، دون أن يعلقا بشيء على ما جاء في خطاب الرئيس، الذي تدخَّل في اليوم التالي بخطاب عبر الإذاعة، وكان هدفه أن يمحو الأثر الذي خلَّفته كلمة الجاني في نفوس الناس، حيث ندَّد بجريمته النكراء في حق جارته بأشد العبارات إدانة، وأكد على ضرورة أن تقوم الدولة بحماية المجتمع من آفة الإجرام، وردع كل من تسوِّل له نفسه العبث بأمن البلد وسلامة المواطنين.

ولم يكرِّر عبد الكريم دعوة مصطفى لصلاة الجمعة، تفاديا للإحراج، كما فهم مصطفى، فارتاح لذلك، لأنه لم يكن مستعدًّا لتلبية دعوته، وكان في الوقت نفسه يود أن يحافظ على حسن الجوار معه، وعلى العلاقة الطيبة التي كانت تجمعهما، وتجمع بين زوجتيهما.

***

ومرَّت أيام عطلة الصيف سريعة، كما تمُر كل الأيام الجميلة، وأنهت جُمان دورتها التدريبية بنجاح، دون أن يقف مستواها التعليمي عقَبة في طريق نجاحها، بفضل إرادتها، ورغبتها في التَّعلم والتطوُّر، وبفضل تشجيع مصطفى، ومساعدته لها في التغلب على كل الصعوبات التي واجهتها أثناء التدريب، حتى إنه خصَّص لها دروسا في التَّشريح، وبيَّن لها بالصور والرُّسوم ما يحتوي عليه جسم الإنسان من جهاز عصبي، وهضمي، وتنفُّسي، ووظيفة كل جهاز في حياة الكائن البشري، وركَّز لها، بالخصوص، على الجهاز العصبي، وهو ما مكَّنها من الفهم الدقيق للدروس التطبيقية في العلاج بالضغط والتدليك، وأكسبها مهارة يدوية في ذلك، حققت بها تفوُّقا ملحوظا على زميلاتها، وذلك ما لاحظته المدرِّبة الصينية، وشجَّعتها على المضي في كسب المزيد من المهارة.

وبمناسبة الانتهاء من التدريب، أقامت إدارة المستشفى حفلا صغيرا، حضره وزير الصِّحة شخصيا، وسفير الصين في الأرخبيل، إلى جانب مدير المستشفى، وأطباء، وممرضين، ألقيت فيه كلمات، وسُلِّمت للمتدربات شهادات التخرُّج، وسُمِح لأقاربهن وأصحابهن بحضور الحفل، فحضره مصطفى وعبد الكريم وسمية، التي أبت إلا أن تحضر الحفل، وأتت معها برضيعتها.

وفي طريق العودة إلى البيت، وأثناء ما كانت جُمان تداعب فُلَّة وتقبِّلها، انهمرت دموعها فجأة، حين فكرت أنها ستفارقها في القريب، فأخذت سمية تواسيها، وتقول لها، وقد ظنت أنها تبكي من فرحتها بالنجاح:

ـ أنتِ معذورة، يا أختي.. ومِن حقك أن تبكي فرحًا بنجاحك..

وردَّت جمان وهي تمسح دموعها:

ـ أنا لا أبكي فرحا بنجاحي.. أنا أبكي لأننا سنرحل وشيكا، ولن يكون في إمكاني رؤية فُلَّتي الغالية..

وتأثرت سمية بهذا الحب الفياض من جمان لطفلتها، واغتنمت الفرصة لتقول لها في شيء من الخُبث، وبصوت تعمَّدت أن يَسمعه مصطفى:

ـ ما عليك يا أختي إلا أن تتشجَّعي، وتأتي بفُلَّتك الخاصة بك بعد تسعة أشهر.. أم عندك ما يمنع؟

ولم تفوِّت جُمان الفرصة بدورها، لترد عليها:

ـ هذا السؤال جوابه عند مصطفى..

وبسرعة، أدرك مصطفى أنها مؤامرة نسويَّة تستهدفه، وتريد أن توقعه في الحرج، فتجاهل الأمر، وكأنه لم يسمع شيئا، وساعده في الإفلات من الفخ سؤالُ عبد الكريم له:

ـ وماذا ستفعل بالسيارة حين تعودان إلى أنجوان؟

ـ فكَّرتُ في شحنها على متن مراكب إلى موتسامودو، لأنني تعوَّدت عليها، وصرت غير قادر على الاستغناء عنها..

وكان لدى مصطفى وجمان مُتسعٌ من الوقت لمدة يومين، فاستغلاه في الراحة والتجوال في أرجاء الجزيرة، وفي شراء هدايا لأهل جمان. واستغلا عطلة نهاية الأسبوع، ليدعو يوسف الصديق وزوجته للغداء في بيتهما، ثم وسَّعا الدعوة لتشمل عبد الكريم وسميَّة، فاتخذت جلسة الغداء شكل حفل أسري بهيج، وحضر الكسكسي على المائدة، إلى جانب أطباق الأرز، وأكلات أخرى، لأن صاحبي الضيافة لم يكونا واثقين أن الكسكسي سيعجب يوسف وزوجته.

وبعد أن فرغوا من الأكل، خرج الرجال في الفرندة، ليشربوا الشاي في الهواء الطلق، ويخوضون في أحاديث مختلفة، في حين، فضَّلت النسوة البقاء في الصالون، ليَخُضن بدورهن في الأمور التي تعنيهن، كشؤون البيت، وما يعجب الأزواج وما لا يعجبهم، وشؤون الإنجاب وتربية الأطفال. وكانت السيدة "ريهانة" أسبقهن في هذا المجال ببنت وولدين، فحثَّت جمان على الإسراع في إنجاب الطفل الأول، وأقنعتها بحجة أرعبتها، حين سألتها: "وكيف تتأكَّدين أنك قادرة على الإنجاب إذا لم تجرِّبي، وتحبِلي بطفلك الأول؟".

***

حينما ودَّعا ضيوفهما عصرا، أسرعت جمان إلى غرفة النوم، وأسدلت ستارة النافذة، وتمدَّدت على السرير، وتظاهرت بالنوم، حتى لا يبدو عليها التأثرمما سمعته من سمية وريهانة. ولم يشأ مصطفى إزعاجها حين رآها نائمة، مع أنه كان لا يحبِّذ النوم بعد العصر، وبرَّر ذلك بعدم نومها في القيلولة كما اعتادت، وكان يرغب في التحدث إليها عن العزومة التي أقاماها، ويريد أن يعرف الانطباع الذي كوَّنته عن صديقه يوسف وزوجته. وعاد إلى الفرندة ليتفرغ لقراءة موضوع جديد، نشرته مجلة "جون أفريك"، عن القلاقل التي ما فتئ العقيد "بوب دونار" يثيرها في أنحاء متفرقة

من القارة الإفريقية. وعندما انتهى من القراءة، قصَّ المقال من المجلة، ووضعه مع المقالات السابقة التي جمعها من قبل عن هذا المغامر الخطير، وكان ينوي أن يكتب مقالا مطوَّلا في هذا الشأن، لإحدى الأسبوعيات اللبنانية الكبيرة التي كانت تصدر في باريس، وتصله مجانا بالبريد.

ولم تستيقظ جمان من نومها إلا وقت الغروب، وكانت مُعكَّرة المزاج، وتعاني من دوخة في الرأس، وتلبُّك في المعِدة، وخُمول في كامل الجسم، فذكَّرها مصطفى بما كان ينصحها به، وهو أن لا تركن إلى النوم بعد العصر، لما للنوم في هذا الوقت من أثر سيء على صحة الإنسان ومِزاجه، واقترح عليها أن يخرُجا في جولة، مَشيًا على الأقدام، لتتخلص من الوَعْكة التي ألَّمت بها، وتنام جيدا حين تؤوي إلى فراشها في الليل، فاستجابت لاقتراحه بكل سرور.

وتعمَّد أن يسرع في مشيه، حتى كاد سيرهما يتحوَّل إلى هرْوَلة، ولم يعودا إلى البيت إلا بعد أن نال التعب منهما، وتصبَّبا عرقا، فأخذا حمَّاما سريعا، أزالا به العرق والتعب، وتناولا بعده سلطة وفاكهة، فتحسَّن حال جمان، وزال عنها الخمول والتوعُّك.

في يوم الاثنين، قصد مصطفى ميناء موروني، وقام بإجراءات شحن السيارة بحرا إلى موتسامودو، وعرَّج على يوسف الصديق في

مجمَّع الوزارات، لاستلام أمر وزارة الصحة بإلحاق جُمان بموظفي مستشفى موتسامودو، غير أن وثيقة الإلحاق كان ينقصها توقيع وكيل وزارة الصحة، الذي تأخر في الحضور إلى المجمع، مما اضطره إلى الانتظار أكثر من ساعتين.

وعندما سلمه يوسف الصديق الوثيقة أخيرا، ممهورة بتوقيع وكيل الوزارة، أعلمه أنه سيحجز للعودة إلى موروني في طائرة اليوم التالي، وأنه سيمر عليه في المجمَّع، وهو في طريقه إلى المطار، ليودِّعه، ويعيد إليه مفاتيح البيت، ولكن يوسف سهَّل عليه الأمر، حين طلب منه أن يسلم المفاتيح إلى جاره عبد الكريم، ليستردها منه في وقت لاحق، لأنه سيخرج في مهمة مع الوزير، ولن يعود إلا في وقت متأخر من المساء، وعندئذ عانقه مصطفى، مودِّعا، وشاكرا له أفضاله عليه. وقام يوسف فشيَّعه حتى باب المُجمَّع.

في تلك الليلة حزما أغراضهما، وتهيآ للسفر، وفي الصباح، وأثناء خروج مصطفى لإحضار سيارة أجرة، وقفت جمان تودِّع سمية، وكانت لحظة وداع صعبة، نظرا للصداقة التي نشأت بينهما وتوثقت أواصرها، ولشدة ما ألفت جمان الطفلة فُلَّة وتعلقت بها، ولذلك حملت الرضيعة بين يديها، وراحت تضمُّها بحنان إلى صدرها، وتغمرها بالقبلات، ولم تُعِدها إلى أمها، مضطرة، إلا حين رجع مصطفى بسيارة الأجرة، ووضع مع السائق الحقائب في

الصندوق، فتبادلت القُبل الحارة مع سمية، وقد اغرورقت عيناهما بالدموع. وسلَّم مصطفى مفاتيح السكن لعبد الكريم، وصافحه مودِّعا، فقالت سُمية لجمان:

ـ نأمل أن نراكما في العطلة القادمة..

وردَّت جمان بصوت مخنوق، وهي تمسح دموعها، بعد أن جلست في المقعد الخلفي للسيارة:

ـ إن شاء الله.. شأشتاق إليك كثيرا، وإلى فُلَّتي الغالية..

***

17

امرأةٌ تقودُ سيَّارة.. يا عجبا!

في اليوم التالي لعودتهما، توجَّه مصطفى وجمان إلى المستشفى، فاستقبلهما الدكتور أبوبكر بالحفاوة والترحاب، وهنأ جمان على نجاحها في التدريب، وعبَّر لها عن سعادته باستقبالها للعمل بصفة رسمية في المستشفى، كممرضة متخصِّصة في المعالجة بالضغط والتدليك، وأثناء حديثه كان يقلب بين يديه وثيقتي التخرج والتوظيف، ثم قال موجِّها كلامه لمصطفى:

ـ كنت واثقا من نجاحها في هذا التخصص حين رشَّحتها دون غيرها من المُمرِّضات، لأن الفترة التي أمضتها معنا كمتطوعة أثبتت لي أنها جديرة بوضع الثقة فيها، حيث كانت دائما مثالا في الانتظام في الحضور، وحب التعلُّم، والجِد في العمل، والتفاني في خدمة المرضى.

وأحنت جُمان رأسها خجلا وهي تسمع كل هذا الإطراء، فتولَّى مصطفى مهمة شكر الدكتور أبوبكر نيابة عنها، على تشجيعه لها، وعلى حسن ظنه بمواهبها، ثم أضاف:

ـ أنا على يقين أنها ستحافظ مستقبلا على هذه الثقة التي وضعتَها فيها، وستظل تعمل حسب توجيهاتك، وتحت إشرافك وإشراف السيدة إفلين.

ـ سنُعِدُّ لها حُجرة خاصة، نجهِّزها بما يلزم من وسائل، لتمارس فيها مهمتها الجديدة في العلاج..

فكرَّر مصطفى شكره للدكتور أبوبكر نيابة عن جمان، التي انعقد لسانها تأثُّرا بما سمعته من إطراء، وغادرا المكتب وقلبها يكاد يطير فرحا وسعادة.

***

كان عبدو قد استأنف عمله في المطبخ منذ اليوم الأول لعودتهما، وكان طيلة غيابهما في موروني، يكتفي بتفقُّد البيت وتنظيفه مرة في الأسبوع، وحيث أن جُمان لم يعد في استطاعتها الجمع بين عملها في المستشفى وبين شغل البيت كما كانت، فقد خيَّره مصطفى بين أن يضيف ما كانت تقوم به من خدمة في البيت إلى خدمته، ويزيده ألفي فرنك على راتبه الشهري، أو يأتي بخادم غيره يقوم بها، فاختار أن يضيف عملها إلى عمله، مثلما كان قبل مجيء جمان، وفرح كثيرا بزيادة راتبه إلى تسعة آلاف، وهو مبلغ يفوق ما يحصل عليه الموظف الحكومي. وفي الحين، شرع في عمله بكل

همة ونشاط، وقصد غرفة النوم ليبدأ عمله الجديد منها، لكن مصطفى أوقفه، ونبّهه إلى أن تنظيف غرفة النوم وترتيبها سيظل من اختصاص جمان وحدها.

***

استلم مصطفى سيارته في مرفأ موتسامودو بعد خمسة أيام من عودتهما، لأن حركة الملاحة بين الجزر غير نشيطة، ومعظم النقل البحري بينها يتِمُّ بمراكب صغيرة، غير مهيأة لنقل السيارات، ولا تقوى على حملها، أما نقل الرُّكاب فيقتصر على الطائرة وحدها، على الرغم من قِصر المسافات بين الجزر.

ولأول مرة يشاهد الناس امرأة من أهل البلد تقود السيارة في شوارع موتسامودو، وهو ما أثار تعجُّبهم، وأربك جُمان، وشتَّت انتباهها في البداية، لكنها سرعان ما تعوَّدت على وقوفهم مدهوشين حين تمر بالسيارة أمامهم. وكانت أول مرة تقود فيها السيارة في موتسامودو، يوم أن ذهبت لزيارة أهلها، فأوقفتها عند حدود السوق، أمام دهشة المتسوّقين، نظرا لضيق الشوارع داخل المدينة القديمة، وكان فضول أختيها بسماتا وآية لا حدود له، عندما علمتا أنها جاءت وهي تقود سيارتها الخاصة، فرغبتا رغبة شديدة في رؤيتها، ولبَّت جمان رغبتهما، واشترطت عليهما إقناع الأم

بالخروج معهن، وهو ما وُفِّقنا فيه بعد لأْيٍ، لأن الأم لا تحب الخروج من بيتها إلا للضرورة القصوى، فخرجْن جميعا، قاصدات مكان موقف السيارة.

وفي الطريق، قابَلهن أخوهنَّ حكيم، فأشارت إليه جُمان بالسير أمامهن، دون أن تشرح له السبب، فاستغرب ذلك منها، وخاصة خروج أمه معهن، حتى وإن استنتج أن جُمان هي التي دعتهن، وأنَّهن في الطريق إلى ما وراء السوق، لأخذ سيارة أجرة من هناك إلى هومبو، فسار أمامهن دون أن يسأل، غير أنه لم يفهم سر ضحكات بسماتا وآية إلا حينما رأى جُمان تتقدَّم نحو سيارة سماوية اللون، تقف عند مدخل السوق، لتفتح بابها الخلفي، وتدعو أمها وأختيها إلى الركوب، ثم تجلس خلف المقود، وتدعوه بدوره إلى الركوب إلى جانبها.

واختلطت أصوات الإعجاب بالسيارة، بالأسئلة التي انهالت على جمان منْ خلفها: أهي سيارتك الخاصة؟ متى تعلَّمت قيادة السيارة؟ من علَّمك القيادة؟ من أين لك المال لشراء سيارة؟ وردَّت جُمان بعد أن انطلقت، وهدأت ضجَّة الإعجاب والأسئلة قليلا من حولها لتُصرِّح:

ـ مصطفى اشتراها لي، وهو من علَّمني القيادة.

فقالت آية، وهي ما تزال مُنبهرة:

ـ إنه يحبك كثيرا، هذا المصطفى، يا أختي، وإلا لَمَا دلَّلك كل هذا الدَّلال!!

وقرَصَتها بسماتا في فخِذها، مُعيبة عليها التفوُّه بهذا الكلام، الذي قد تفهم أختهما منه أنها تحسدها، ولكن آية لم ترتدع، وردَّت عليها مُحتجَّة:

ـ هل في هذا عيب؟! زوجها اشترى لها سيارة، وهذا يعني أنه يحبُّها كثيرا!

ولكي تغيظ بسماتا أكثر، رفعت يديها بالدعاء على مسمع من الجميع:

ـ يا رب، ارزقني بعريس عربي غني، يُحبني مثل حب مصطفى لجُمان..

وتدخلت الأم لتنهرها بصوت هادئ ولكنه حازم:

ـ كفى من التَّهريج، يا بنت، ولا تشوِّشي انتباه أختك، فتتسبَّبي لها في حادث..

وجاء دور حكيم في الكلام، ليطلب من جمان أن تُعلِّمه قيادة السيارة، مبررا طلبه برغبته في ترك العمل في مراكب الصيد،

ليشتغل سائق سيارة أجرة، فواعدته بتعليمه في عُطل نهاية الأسبوع، حين تجد الفرصة، ويكون الجو صحوا..

***

مع الدخول المدرسي الجديد، بدأت علامات الخريف تعلن عن نفسها بقوة، ليس من خلال اصفرار العُشب وأوراق الشَّجر كما يحدث في شمال القارة السمراء، ولكن، من ارتفاع درجة الحرارة عما كانت عليه في فصل الصيف، ومن تشبُّع الجوّ بنسبة عالية من الرُّطوبة، تجعل التنفس في بعض الأحيان نوعا من اللُّهاث، وتُحيل جسم الإنسان إلى إسفنجة تنِزُّ عرَقا، مع انتشار كثيف للبعوض والذُّباب، يتحرك في شكل سحائب سوداء، ويتسرَّب من كل المنافذ، مهما كانت ضيِّقة، ويُصدِر طنينا وهسيسا لا يتوقف في الليل ولا في النهار. يحدث هذا في تزامُن مع نُضوج ثمَر "المانجو"، كأن هناك علاقة ما بين نضوجها وبين توالد هذه الحشرات المؤذية وتكاثُرها. لهذا كله كان يبدو لمصطفى، حين يصعد من الثانوية إلى بيته في هضبة هومبو، كأنه ارتقى من وادٍ عميق إلى قمة جبل شاهق، حيث يصير الجو ألطف، والهواء أرق، وأسراب البعوض والذباب تصير أقل كثافة، وأقل شراسة.

وكان قد عرف هذا المناخ الاستوائي غير المعتاد بالنسبة إليه، حين حل بالجزيرة في مثل هذا الشهر من العام السابق، الذي

يتميَّز، زيادة على شدة الحرارة والرطوبة، بالأمطار الطوفانية، التي تقاس بالمتر، لا بالمليمتر، ولذلك فهي كفيلة بإغراق الجُزر في ظرف ساعة واحدة، لولا تُربتها البُركانية الخشنة التي تبتلع المياه بسرعة فائقة، مهما كانت كمِّياتها. ويستمر هذا المناخ في الشدة مع مرور الأيام، ليبلغ ذروته في شهر يناير ـ حيث يصير الماء، لمن يلجأ إلى السِّباحة في البحر، كالمرق السَّاخن ـ ويكون مصحوبا برياح قوية، تتحول في بعض الأحيان إلى إعصار يكتسح كل شيء في طريقه.

مع هذا الجو، عاد الأساتذة الذين رحل معظمهم عن المدينة في عطلة الصيف، فقابل مصطفى ذات الوجوه القديمة التي عرفها في العام الدراسي الماضي، باستثناء إميلي الكندية، التي قيل له إنها رجعت إلى بلدها نهائيا، وحلَّ محلها في تدريس اللغة الإنكليزية أستاذ من جزيرة موريس، قُدِّم له باسم "مارتن مُوزس"، وهو رجل خُلاسي، في الثلاثينيات من العمر، أسمر البشرة، أجعد الشعر، أزرق العينين، ويتحدث الفرنسية بلكنة إنكليزية، وغاب الأستاذ السينغالي أمادو ديالو أيضا، الذي ظل منصِبه شاغرا في مادة اللغة الفرنسية، ولا يُعرَف إن كان سيعود في وقت لاحق، أم يكون قد غادر نهائيا هو الآخر.

الشيء الذي لفت نظر مصطفى أكثر، هو التبدُّل المُزري الذي طرأ على الأستاذ خليل اليمني، حيث لاحظ انطواءه على نفسه في

ركن من القاعة، بعيدا عن بقية الأساتذة، الذين تجمعوا في شُلل صغيرة، وراحوا يتحدثون بحماس عن الأماكن التي قضوا فيها عطلتهم الصيفية، وعن الراحة والسياحة التي استمتعوا بها في أشهر الصيف، كما لاحظ هُزاله الشديد، وارتِسام الحزن على وجهه، وإهماله لهندامه وشعر رأسه. وكانت كل الدلائل تشير إلى أنه ظل قابعا في بيته طوال العطلة، يعاني من الكآبة والوحدة، وربما يكون قد عاني من الجوع أيضا، لتأخر رواتب الموظفين المحليِّين، كالعادة، يجترّ شعوره بالخيبة ـ دون شك ـ من فراق ماريان له، وعجزه عن إعادتها إليه، وإعادة مولوده معها، الذي سيرَى النور بعيدا عنه، ويُحرم من بُنوَّته، لأنها ستكتبه في سجلات المستشفى والبلدية باسم "مجهول الأب"، وهو إجراء قانوني شائع في فرنسا، وتحرِمه بذلك من مُطالبتها بابنه أو ابنته، ومن رؤيته ينمو ويترعرع أمام عينيه. وحين تقدَّم منه، ليسلِّم عليه، لم يجده بتلك الحيوية التي عهدها فيه، ولم يردُّ عليه التحية إلا باقتضاب، وبتبرُّم واضح من أسئلته عن الصحة والأحوال، فاحترم رغبته في الصمت والانزواء، وتركه لحاله.

وعلى خلاف الوجوه القديمة لهيئة التدريس، وجد نفسه في صفِّه أمام طلبة جُدد بالكامل، حيث كان طلبة العام الماضي قد تخرجو، وتوظَّف بعضهم في المصالح الحكومية، واختار بعضهم المهن الحُرة، وهاجر بعضهم إلى خارج البلد، للعمل أو لمواصلة الدراسة. هذا ما

علمه من عبد الرحمان، المُراقب العام، أما الفتيات فلم يصله من أخبارهن إلا النُّزر، ومنهن نعيمة التي قال المراقب إنها تزوَّجت أثناء الصيف من رجل وَجيه، من جزيرة موهيلي، وانتقلت للعيش معه في فومبوني عاصمة الجزيرة، وكذلك ماريامًا، ابنة صديقه رضا كوجا، الذي أخبره والدها شخصيا، حين التقى به في حديقة الثانوية التي ظل يعتني بها طوال الصيف، أنه تمكَّن من الحصول لها على منحة من الدولة الفرنسية، بفضل مساعي أصدقائه القُدامى في فرنسا، وقد سافرتْ قبل أيام، للتخصُّص مثله في دراسة النباتات الاستوائية.

وأثناء تسقُّطه لأخبار طلبته ومعارفه، قابل مُصادفة ساعي مكتب أندريا، فسأله عنها، فأخبره أنها رحلت إلى مدغشقر، وحلَّ محلَّها في شركة المنشآت مُحاسبٌ جديد. وبقدر ما شعر بالأسف على مغادرتها، لِما كان له معها من ذكريات جميلة، وكذا على رحيل نعيمة التي كان معجبا بذكائها وقوة شخصيتها، بقدر ما شعر بالارتياح لاختفائهما من حياته، لِمَا تسبَّبتا له فيه من مُضايقة وإزعاج، بدافع غيْرة أندريا من جُمان، التي اعتبرتها قد أعْمت عيني حبيبها، على الرغم من كونها خادمة، واختطفته منها، وغيرة نعيمة من الاثنتين، لاعتقادها أنها هي الأسبق منهما، وهي الأحق بحب أستاذها، فسعت إلى فضحه وتشويه سمعته، وجرّته إلى تحقيق السلطات معه، بعد أن فشلت في إغرائه، والإيقاع به في شباكها.

وحيث أن الشيء بالشيء يذكر، فقد تساءل مع نفسه عن الكيفية التي يكون أبو ـ سيندي، "منسق اللجان الثورية" قد قابل بها زواج نعيمة التي كان يعشقها، ويأتمر بسبب ذلك بأوامرها، فحاول أن يتخيَّل ردَّها عليه، حين لامها، دون شك، عن تخليها عنه، من أجل رجل معادٍ للثورة، بحكم وضعه الاجتماعي المُريح، وأكبر منها سِنًّا: "هل تستطيع أن تدفع لي مَهْرًا مثل الذي دفعه لوالدي؟ وهل تستطيع أن توفِّر لي سكنا لائقا مثله، خاصة أن والدي غير قادر على توفير سكن لي حاليا؟ وهل يمكنك أن تضمن لي عيشا مُرفَّهًا كالعيش الذي ينتظرني مع الوجيه الموهيلي؟!". حقا، إن الحب وحده لا يستطيع أن يُطعِم فمًا جائعا، أو يكسو جسمًا عاريا!! ولا شك أنها تكون قد أفحَمته، وأشعرته بالخزي والمهانة، وأن شعاراته الثورية لا تستطيع أن تغني عنه شيئا أمام بريق الذهب وإغراءات المال.

وعلى الرغم من أن مصطفى لم يرتح إلى المدعو أبو ـ سيندي منذ اليوم الأول الذي عرفه فيه، وسبَّب له ولجمان الأذى والإزعاج، فإنه لم يشعر بالتشفي فيه، أو الاغتباط بما حصل له مع نعيمة، غير أنه تمنَّى أن يكون قد أخذ العبرة من تقلُّبات الأيام، ليُغيِّر سلوكه، ويكُف أذاه عن الناس.

***

في نشرة أخبار الثامنة بالفرنسية من إذاعة موروني، وكان مصطفى حريصا على الاستماع إليها لمعرفة أخبار البلد، أُذيع حوار مع رجل أجنبي يُدعَى "روجي"، اعترف فيه بأنه عمل جاسوسا مكلفا من جهة أجنبية بجمع معلومات عن تحركات الرئيس علي صواليح، وتصوير مقر إقامته الدائمة، والمراكز الأمنية المحيطة به، والثكنات العسكرية القريبة من الإقامة، ومعرفة عدد الرجال المكلفين بحراسته"، واعترف أيضا بأنه كان يتخفّى وراء صفة تمثيله لشركة أوروبية لم يذكر اسمها، متخصصة في استيراد الزهور من الأرخبيل لصناعة العطور. ونفَى في اعترافه أن يكون قد كلفه أحمد عبد الله بهذه المهمة، أو العقيد بوب دونار.

واكتفت الإذاعة بهذا الجزء المقتضب من اعترافات الجاسوس المقبوض عليه، لتفسح المجال لضابط من المخابرات، لم تذكر اسمه ولا رُتبته العسكرية، ليقدِّم الأدلة على أن المدعو "روجي" ـ وأغفل ذكر اسمه الكامل وجنسيته الأوروبية ـ هو عميل لزعيم المرتزقة، العقيد بوب دونار، الفرنسي الجنسية، الذي يخطط للقيام بانقلاب دموي على الدولة القمرية، بتمويل من الرئيس السابق أحمد عبد الله، الذي يريد العودة إلى حكم الأرخبيل.

وفي نهاية الأمر، لم يقدم الضابط، في الوقت الطويل الذي أتيح له، أية أدلة أو حقائق، لا عن المتهم بالجوسسة، ولا عن

الانقلاب الذي يجري الإعداد له، بحجة أنها أدلة وحقائق سرّية، تُلحق الضرر بأمن الدولة إذا تم الكشف عنها، وتساعد المتآمرين على تغيير خططهم.

وعقب إذاعة هذا الحوار مباشرة، خرجت من الثكنات شاحنات صغيرة من نوع "مازدا"، تجوب شوارع المدينة وأحياءها، وهي مكتظة بأعدادا كبيرة من شباب اللجان الثورية، راحوا يهتفون بحياة الرئيس، وبشعارات الموت لأعداء الثورة، ولطبقة البورجوازيّين، المتحالفين مع القوى الرجعية والاستعمار، وخرج الناس من بيوتهم ليتابعوا المشهد المثير، وقد حمل بعضهم أجهزة الراديو الصغيرة، ليتابعوا أصداء مظاهرات التأييد للرئيس في الإذاعة المحلية، التي كانت تنقلها على المباشر.

وبدا لمصطفى أن هذا السيناريو مُعدٌّ سلفا، بالتنسيق مع الجيش، والأجهزة الأمنية، واللجان الثورية، وليس عفويا، كما راح المذيع يكرّر في تعليقه، بغرض رفع المعنويات، وكسب التأييد الشعبي لشخص الرئيس، حتى وإن لم يستبعد وجود خطر خارجي حقيقي يتهدّد البلد، وهو الخطر الذي لَمّح إليه يوسف الصديق أكثر من مرة أثناء لقاءاتهما بموروني، دون أن يفصح له أكثر عما يعرفه عنه.

واكتملت حلقات السيناريو في مساء اليوم التالي، بخطاب للرئيس، مُوجَّه إلى الشعب عبر الإذاعة، دعا فيه كل القوى الحية في البلد إلى اليقظة، وإلى الاستعداد للدفاع عن الثورة ومكتسباتها. ولأن الخطاب كان باللغة المحلية، فقد فات مصطفى الكثير منه، على الرغم من استعانته بجمان في ترجمة بعض ما ورد فيه، وذلك حين ترتفع نبرة الرئيس أكثر من المُعتاد، أو تعلو هتافات الجمهور.

والحقيقة، أن نظام علي صواليح كان يشعر بقلق شديد، إزاء مؤامرات تُحاك ضدَّه في بعض العواصم الأوروبية، بالتنسيق مع دوائر معادية له في القارة الإفريقية، ولا سيما مع النظام العنصري في بريطوريا، بالتعاون أيضا مع عملاء في الداخل. وعلى الرغم من كل هذا، فإن ما كان يهدد النظام القائم في الجزر، حسب تقدير مصطفى، ليس هو الخطر الخارجي الحائم حوله، وإنما هو ما كان يعاني منه البلد في الداخل من اختلالات خطيرة، وخاصة سوء الأحوال المعيشية، وهشاشة الاقتصاد، واستفحال الفقر والبطالة في المجتمع، وصعوبة توفير القوت اليومي للشعب ككل، وخلوُّ الخزينة العمومية من النقد. وهذا، في الواقع، هو ما يجعل النظام يلجأ لمختلف الوسائل الدعائية، لإلهاء الشعب عن مشاكله اليومية الضاغطة، وتوجيه أنظار الناس نحو العدو الخارجي، وهذا نفسه هو ما يعطيه المُبرر لقمع الاحتجاجات الاجتماعية بشدة مهما كانت

نوايا أصحابها، وإسكات الأصوات المعارضة بالإفراط في استعمل القوة معها.

من ذلك ما حدث من تنمُّر قبل فترة غير بعيدة، حين تأخرت الحكومة في استيراد الأرز، لشُح الموارد المالية لديها، ممًّا تسبب في ندرة حادة في وجود الأرز في السوق، وهو مادة غذائية أساسية في معيشة السكان، لا يمكنهم الاستغناء عنها، ومع ندرة الأرز بدأ شبح المجاعة يلوح في الأفق، ولم ينفع معه لجوء الناس إلى ما تجود به الغابات، بشكل طبيعي، من الموز وبطاطا "المانيوك" و"ثمار الخبز" إلا بقدر يسير. وحين وصل المركب الذي يحمل الأرز المستورد في الأخير، أعطت السلطات الأولوية في الحصول على الأرز للمتعاونين الأجانب، وهو إجراء لم ينكره مصطفى، من حيث المبدأ، نظرا لكونهم ضيوفا على البلد، وعددهم قليل، لكنه أنكر أن تخصَّهم السلطات بكميَّات تزيد عن حاجتهم منه بكثير. عرف ذلك حين طُلِب منه التوجُّه إلى مخزن التوزيع، ليأخذ حصَّته من الأرز، وهي قنطار بأكمله، فاستشار جُمان في الاكتفاء بربع قطار من أجلها وحدها، لأن الأرز لم يدخل ضمن عاداته الغذائية إلا حين نزل بالجزر، ولذلك لم يكن يهمُّه أن يحضر أو يغيب عن مائدته، غير أن جُمان طلبت منه إحضار حصته كاملة من أجل أسرتها، فاستجاب لرغبتها، وأعطى منها كمية لعبدو.

كان مصطفى قد جمع تحقيقات صحفية، ومقالات تحليلية، وأخبارا متفرّقة عن شخص العقيد بوب دونار، وعن مغامراته العسكرية في إفريقيا، ومن ضمن ما جمعه عنه، ما تعلق بالانقلاب الذي قاده في سبتمبر 1975 على أحمد عبد الله ـ أول رئيس حَكم الجُزر، عقب استفتاء شعبي جرى في شهر جويلية من السنة المذكورة لصالح استقلال الأرخبيل عن فرنسا، وهو الاستقلال الذي جاء منقوصا، بانسلاخ جزيرة مايوت من الأرخبيل، حين اختارت الأغلبية من سكانها البقاء في كنف فرنسا ـ ليضع مكانه في سدة الرئاسة المهندس الزراعي علي صواليح، ثم غادر البلد، بعد اختلافه مع الرئيس الجديد، بسبب توجُّهاته الثورية الماركسية، التي كان بوب دونار يمقتها مقتا شديدا، وظل ما يقرب من ثلاث سنوات يخطط للانتقام منه، فجمعته المُصادفة في جنوب إفريقيا بالرئيس المخلوع أحمد عبد الله، الذي كان يقيم بها كلاجئ سياسي، فوقّعا صلحا بينهما، واتفقا على العمل معا من أجل الإطاحة بعلي صواليح، على أن يتكفل الأول بإعداد العدة لذلك من سلاح ورجال، ويتكفل الثاني بما يلزم من مال. ولم يكن المال لينقص أحمد عبد الله، الذي كان قد جمع ثروة كبيرة من احتكاره لواردات الجُزر من الأرز، فوضع مع بوب دونار خطة تقضي باستئجار طائرة نقل من جنوب إفريقيا، تنطلق بالمرتزقة من

مستعمرة روديسيا، لتعبر الأجواء الموزمبيقية، وتحط في مطار "حاي حايا" الجديد بالقمر الكبرى، لكن الخُطة سقطت في الماء، حين رفض الرئيس الموزمبيقي، "سامورا ماشل"، أن تستعمل أجواء بلده للاعتداء على دولة مُجاورة، ومن جهة أخرى، أبلغتهم العيون أن علي صواليح استشعر عملية الإنزال الجوي، ووضع حراسة مشدَّدة في المطارين الجديد والقديم بموروني، وحواجز في المدارج تُعيق نزول الطائرات، لا تزاح إلا في أوقات معيَّنة من النهار، لتمكين الطائرات المدنية من النزول.

راجع مصطفى بتركيز شديد كل هذه المعلومات التي اجتمعت لديه، القديمة منها والحديثة، ليكتب مقالا باللغة الفرنسية، بعنوان "ظاهرة بوب دونار، بين تواطؤ القوى الاستعمارية القديمة، وتخاذل الأنظمة الإفريقية"، ووقَّعه باسمه المختصر: "م. بن سعيد"، وبعث به إلى مجلة "أفريك آزي"، نظرا لخطها الافتتاحي الثوري، المتعاطف بشكل صريح مع "الأنظمة الثورية" العربية والإفريقية، مُفضلا إياها على منافِستها "جون أفريك"، الليبرالية التوجُّه، خشية أن يُلقى بمقاله في سلة المهملات، حفاظا من المجلة على مصالحها مع الدولة الفرنسية، وعلى مكانتها في أكشاك بيع الصُّحف في البلدان الإفريقية التي توصف بالمعتدلة. وكان في الأول قد فكر في كتابة مقاله باللغة العربية، ليبعث به إلى

الأسبوعية العربية الباريسية، ولكنه غيَّر رأيه، حينما لاحظ عدم اهتمام الأسبوعية العربية بالشؤون الإفريقية. وعلى غير ما توقَّع، حظِي مقاله باهتمام كبير لدى مجلة "أفريك آزي"، فنُشِر بسرعة فائقة، وبعناية خاصة، ووُضِع عنوانه على غلاف المجلة مع العناوين المهمة، ومع صورة لبوب دونار، وأضيف إليه في الصفحات الداخلية تذكير بمغامرات المرتزق الفرنسي في اليمن، وكاتانغا، وبيافرا، والبنين، وجزر القمر، وهو ما أبهج مصطفى وأشعره بالاعتزاز، فأشرك جُمان في ابتهاجه، وأطلعها على منشوره في المجلة، ودعاها إلى العشاء في ملهى "عش الغراب"، احتفاء بهذه المناسبة. ووجد مقاله صدى كبيرا لدى زملائه الأساتذة في الثانوية، فهنَّأه بعضهم عليه، كما سأله بعضهم عما إذا كانت المجلة قد اعتمدته مراسلا لها في الأرخبيل، وهو ما نفاه. وعلى غير عادته من قبل، احتفظ مصطفى في هذه المرة بعدد المجلة كاملا، وكان من قبل لا يحتفظ إلا بقصاصاتٍ ممَّا تنشره المجلات ويدخل ضمن اهتماماته.

***

في تلك الأيام، لاحظ مصطفى ازدياد عدد دوريات الدرك والجيش، وتحرُّكها ليلا على غير العادة، بحيث كان شخير شاحناتها الصغيرة يوقظه من عز النوم حين تنطلق من المركز الأمني القريب من بيته، أو تعود إليه، وكانت ترجع في الغالب بأشخاص

موقوفين، لم يكن يشاهدهم بعينيه، ولكنه كان يسمع صرخاتهم حينما يقذف بهم من الشاحنات، وتنهال عليهم العصي والأقدام بالضرب المُبرح، وهو ما كان يؤرّقه، ويمنع عنه العودة إلى النوم، لاسيما إذا حاول أن يتصور ما يعقُب هذا من عمليات تعذيب للموقوفين، في دهاليز تلك البناية الأمنية الرهيبة، التي قضى الليل في أحد مكاتبها، حين اتّهمته نعيمة بمحاولة اغتصابها. وقد استنتج من هذه التحركات والتوقيفات، والإمعان في التعسف والاعتداء، قلق النظام الحاكم، وتوقعه بحدوث انقلاب عليه في أية لحظة، ينطلق من جزيرة أنجوان التي ظل أهلها أوفياء لابن جزيرتهم، ورئيسهم المُطاح به أحمد عبد الله، وله فيها أنصار ومؤيدون كثيرون، لا يذكرون اسمه إلا مقرونا بالتقدير والتبجيل، وبصفة "محرر الأرخبيل من الاستعمار".

في هذا السياق، علم أنهم استدعوا الشيخ عصمان أكثر من مرة إلى المقر الأمني القريب منه، وأرهقوه بالتحقيق معه في شأن معارضين مبحوث عنهم، شكّوا أنه قد يكون آواهم في المسجد. وقد استغرب مصطفى أن لا يتوقف الشيخ في باحة بيته، مثلما فعل في المرة الأولى، ليشرب الماء، ويرتاح قليلا، قبل أن يواصل طريقه، ولكنه عاد ففسّر ذلك بأن الشيخ صار أكثر حذرا وتحفظا، لعلمه أنه مراقب في كل خطوة يخطوها، وأنه سيُسأل عن علاقته بأي شخص يتصل به، أو

يتحدث إليه، وعن فحوى حديثه معه، فتفادى أن يتوقف عند بيته لهذا السبب.

وعلم أيضا أن أماكن اللهو والمُجون نفسها لم تسلم من المداهمات الأمنية المفاجئة، وضمن هذه المداهمات قُبِض على السيد موريس، واتُّهِم هو الآخر بأنه آوى جواسيس في فندقه.

في هذا الجو المشحون، خطر ببال مصطفى غريمه أبو ـ سندي، ودار بخلده أنه قد يستغل الوضع المتوتّر، ليكيد له كيدا، أو يدبّر له فضيحة مثل تلك التي حدثت له مع نعيمة، فقرَّر أن يكون حذرا في تعامله مع أيٍّ كان، وأن يُراقب نفسه فيما يتحدث به مع الطلبة، أو مع زملائه الأساتذة، مراعاة لكونه أجنبيا عن البلد، ويمكن أن يختلقوا له مبررا للاستغناء عن خدماته كأستاذ، بل، قد يُرحَّل عن البلد كالمجرمين إن هو دسَّ أنفه، بشكل أو بآخر، في الشؤون السياسة.

***

18

وطاويط وغِربان

هبَّ الزعيم من نومه فزعا، مبهور الأنفاس، ومدَّ يده في الظلام، بحثا عن جرعة ماء يرطّب بها جفاف حلقه، فأوقع قنينة الويسكي التي كانت إلى جانبه على منضدة السرير، وتطاير زجاجها، واندلق ما بقي فيها من شراب، فلعن الظلام، وأشعل النور، فلم يجد أمامه على المنضدة إلا إناء الثلج، وكانت قوالبه قد ذابت وتحوَّلت إلى ماء، فبلَّ ريقه بجرعة منه، وغادر السرير، وراح يتنفس بعمق، ويستعيد في ذهنه صور الكابوس الذي شاهده في نومه، وأطار السُّكر عنه، ومدَّ يده إلى رأسه الحليق يتحسَّس موقع نقرات الغربان التي كانت تنقضُّ عليه بمناقيرها الحادة، وتوسعه نقْرًا، فاطمأن إلى سلامته، وحينئذ انتبه إلى المرأة التي كانت تشاركه السرير، وكانت غارقة في النوم، لم توقظها الضجة التي أحدثتها قنِّينة الويسكي وهي تتهشم على الأرض، ولا النور الذي أضاء الغرفة، وكانت مُضطجِعة على ظهرها، عارية من كل ستر، وقد بانت سوْءَتُها، ونفر ثدياها نحو الأعلى، وانتفخا كضَرع مِعزاة لم

تُحْلب، فاشمأزت نفسه من منظرها، وبدت له في أقبح صورة وأحطِّها، فدقَّ الجرس، ليدخل عليه رئيس حرَسه بعد الاستئذان، فبادره، وهو يشير إلى المرأة المُضطجعة:

ـ نادِ على اثنين من الحرس، ليُلقوا بهذه الجِيفة بعيدا عنِّي.

وفي الحين، نفَّذ رئيس الحرس الأمر، فلفَّها حارسان في ملاءة السرير، وأمسكا بها من تحت إبطيها، وأمسكها حارس ثالث من رجليها، وحملوها إلى خارج الغرفة، وأثناء حملها، فتحت عينيها الثَّملتين، وتعْتعت بألفاظ مُتعثِّرة، ثم أغمضتهما وعادت ثانية للنَّوم بين أيدي الحُراس.

وخرج الزعيم إلى شرفة القصر، وقد طار النوم من عينيه، واتكأ على درابزين الشرفة، وراح ينقل بصره بين نجوم السماء وبين ضوئها المنعكس على صفحة البحر أسفل الهضبة، محاولا أن يفهم دلالة الوطاويط التي شاهدها في حُلمه تحوم حوله، والغربان التي هاجمته بشراسة، وكادت تثقب بصلة رأسه. وظل يقلِّب الأمر في ذهنه على جميع الوجوه، وينظر إليه مرة كنذير شؤم يُنبئه بمصيبة ستقع على أم رأسه، ويفسِّره مرة أخرى بكونه أضغاث أحلام، نتجت عمَّا ازدرَده من لحم وسمك في العشاء، وما عبَّه من كؤوس الويسكي طوال السهرة، ويعيده مرة ثالثة إلى تلك "الزَّانية"

الشَّيقة التي قاسمته الفراش، وهي زوجة وزيره للسياحة والمَعالِم الأثرية، حيث تهيَّأ له أن حفرتها أشبه ما تكون بفوهة بُركان "كارتالا" حين يكون في أوج نشاطه، لا شيء يملؤه، ولا شيء يطفئ لهيبه، فامتصَّته حتى النخاع، وأخرجت آخر قطرة في صُلبه وترَائبه، وأزْرَتْ بفُحولته التي كان يَعتدُّ بها ويظنُّها لا تخذُله أبدا مع أية امرأة. ولم ينقذه منها إلا سُكرُها في الأخير، وغلبة سلطان النوم عليها.

كان قد رآها في حفل مع وزيره، فأثارت كوامن شهْوته، فغمز لها، فاستجابت له بسرعة لم يتوقَّعها. وقالت له عندما جاءته في المساء: "سافرَ وزيرُك إلى "السيشل"، ورفض أن يصحبني معه، مُدَّعيا أنها زيارة رسمية، ولا وقت فيها للاستجمام والسياحة، لكنني أدركتُ حقيقة رفضه". وأتْبعتْ قولها بضحكة ماجنة، ثم أضافت: "الْعِنِّين.. أراد أن يرتاح مني ليلة أو ليلتين". وتجاوب مع ضحكتها بضحكة ساخرة، وفكَّر مع نفسه في خُبث: "ماذا لو أخبرتُها أنني أنا مَن دبَّر له مهمة السفر إلى السيشل! هل ستنال الحيلة إعجابها؟" غير أنه فضل أن يُبقِي ذلك سرا في نفسه. وعندما جرَّبها في الفرش، أدرك سبب رفض زوجها المسكين أن تسافر معه.

ظل الزعيم في الشرفة على تلك الحال، تتقاذفه الهواجس والتصوُّرات المتشائمة، إلى أن بزغ الفجر، فعاد إلى فراشه لينام

بعض الوقت. وعندما أفاق، وتناول فطوره، استدعى رئيس حرسه، وطلب منه أن يحضِّر له الشاحنة الصغيرة المغطَّاة، التي اعتاد على استعمالها في تنقلاته السِّرية، ولم يسأله رئيس الحرس عن وِجْهته إلا بعد أن اتخذ له مكانا في مؤخرة الشاحنة، فطلب منه أن يأمر السائق بالذهاب إلى عريشة العرَّافة إيَّاها، التي تعوَّد على زيارتها بين الحين والآخر خُفية عن الأعين. وعندما بلغوا مقصدهم، طلب من رئيس الحرس أن يبقى مع السائق، ويمنع أيا كان من دخول عريشة العرَّافة، وتوجه بمفرده ليدفع برجله باب العريشة المُتهالك، ويدخل بدون استئذان.

وبعد أن روى لها ما رآه في نومه، راحت العرَّافة تُلقي بالبخور في الموقد، ليعلو دخانه في فضاء العريشة، وأخذت تهمهم بتعويذة لم يتبيَّن عباراتها، ثم قالت له محذِّرة، وهي تركِّز بصرها في جمر الموقد: هذا الثعبان الأسود، انظر إليه.. حذارِ.. إنه يريد أن يلدغك..

وسألها في ضِيق وحيرة:

ـ لا أرى أي ثعبان في الموقد.. أنا سألتك عن الغربان والوطاويط التي هاجمتني في نومي..

فأضافت وهي تُبعثِر عِظاما إلى جانب الموقد وتجمعها:

ـ هو ثعبان أسود، وقد يكون غُرابا أسْحم.. لا أتبيَّنه جيِّدا..

وألقت المزيد من البخور على الجمر، ونشطت شفتاها في ترديد التعاويذ، ثم شرحت له:

ـ سواء أكان ثُعبانا أرْقم، أو غُرابا أسْحَم، فهو يوشك أن ينفث سُمَّه الزُّعاف فيك، ويُنهِي حياتك.

والتبس عليه الأمر أكثر، وبقي صامتا، مُفكِّرا، يُتابع همهمات العرَّافة وحركات يديها، وهي تلقي بمزيد من البخور في الموقد، وتعيد جمع العظام ثم تفرِّقها. وتساءل مع نفسه: "ترى، ماذا تقصد هذه العجوز المُشعوِذة؟ أتقصد ثعباني الذي أحتفظ به في غرفة نومي، أم تقصد ثعبانا آخر؟ ثم سألها في استنكار:

ـ أنتِ نفسك قلتِ لي في لقاء سابق: حافظ على حياة الثعبان الأسود، وأطْعِمْه الفئران وبيض السلاحف، لأن حياتي متعلِّقة بحياته، فكيف يصير اليوم خطرا عليَّ؟! وكيف يتمكَّن منِّي وهو في صندوق زجاجي مُحكم الغلق؟!

ـ كل شيء مُمكن، فلا تكن غافلا عن الثعبان الأسود..

ـ وماذا عن الغراب الذي ثقب رأسي بمنقاره؟

ـ إنه الثعبان الأسودنفسه، وهو الغُراب الأبيض، ذو الرِّيش الأسود.. حذارِ منه ثم حذار.

وضاق صدره أكثر بما تفوَّهت به العرَّافة، وانزعج من كلامها الغامض، وزاده بلبلة واضطرابا، فقطع جلسته معها، وخرج ساخطا عليها، وحاله أشد طِيرة وتشاؤما مما كان عليه قبل زيارتها. وفي الشاحنة الصغيرة قال لرئيس حرسه:

ـ إذا جاء الليل، ابعث بمن يتكفل بهذه العجوز المُشعوِذة.

ـ تعني، سيدي الرئيس، أن نكافئها على خدماتها؟

فحدجه بنظرة مَن خاب ظنُّه في فهمه، وشرح له:

ـ تبعث بمن يحملها في قارب صيد، ويُلقي بها مع حجر ثقيل في عمق البحر.

ـ فهمتُ، أمرك سيدي الرئيس.. عُلِم وسيُنفَّذ بالحَرف!

***

في الثامنة مساء فتح مصطفى الراديو على الإذاعة المحلية، للاستماع إلى النشرة الإخبارية بالفرنسية، وتابع، بدون اهتمام كبير أخبار الرئيس، التي تتصدَّر النشرة، كالعادة، وكان أهمُّها في ذلك اليوم، تنقُّل فخامته إلى جزيرة موهيلي بطائرته الشخصية الصغيرة، ليُنصِّب حاكم الجزيرة الجديد، ويُلقي خطابا توجيهيا على المسؤولين المحلِّيين، وعلى قادة "شباب الثورة" الذين حضروا حفل

التنصيب. وقدَّم المذيع ترجمة لأجزاء مطوَّلة من الخطاب، ثم نبَّه إلى إعادة إذاعة الخطاب كاملا بعد النشرة، لأهميته القصوى، كما قال. وانصرف ذهن مصطفى إلى تلك الطائرة الخفيفة، من نوع "سيسنا" التي كان يراها في سماء "موروني"، حينما كان مقيما هناك أثناء الصيف، وكانت تنطلق عصر كل يوم، في تحليقات مُتكرِّرة، من المطار القديم قرب ثانوية "محمد سعيد الشيخ"، لتعود إليه في نهاية تحليقها، وقيل له، حين سأل عنها، إنها طائرة الرئيس، وكان آنذاك يتدرب على قيادتها مع طيار متقاعد، جاءه خصيصا من جزيرة موريس ليدرِّبه عليها.

وتاه مصطفى عن نشرة الأخبار، مُفكِّرا في موضوع طائرة السيسنا الصغيرة، ومتسائلا عن غرض الرئيس من التدرُّب على قيادتها، أهو إشباع لهواية في نفسه، أم لغرض عملي يستوجب ذلك، مثل تنقله اليوم إلى جزيرة موهيلي، مما يجعله متحررا من مواعيد طائرة "الديسي4"، التي تضمن خط النقل يوميا بين الجزر، أم لحاجة أخرى في نفس الرئيس حسب لها حسابها؟ ورأى أن كل هذه الفرضيات محتملة، ولها ما يبرِّرها منطقيا، ولكنه، بالنظر إلى القلق الواضح الذي يعيشه نظام الحكم في تلك الأيام، رجَّح أن تكون الفرضية الأخيرة هي الأقوى، إذْ ماذا على الرئيس أن يفعل لو وقع انقلاب عليه من الداخل، أو وقع هجوم عليه من الخارج

ولم يتمكن من إفشاله أو صدّه؟ ستكون الطائرة حينئذ طوق نجاته الوحيد، ليلجأ إلى إحدى دول الجوار، خاصة أن مدى طيرانها يسمح له بالوصول إلى دار السلام بكل راحة، أو حتى إلى إلى تناناريف، ليجد له ملجأ عند صديقه نيريري، أو عند صديقه راتسيراكا.

وعاد مصطفى ليتابع النشرة حين شد انتباهه خبرٌ مثير فيها، هو هروب وزير السياحة والآثار إلى بلاد أجنبية، لم يذكر المذيع اسمها، حاملا معه مبلغا كبيرا من المال، كما أضاف المذيع، سرقه من قطاعه الذي كان يُشرف عليه. ولم يُعِر مصطفى أهمية لتعليق المذيع بعد ذلك، الذي راح يصف الوزير الفار بخائن الوطن، وسارق أموال العمال والموظَّفين، والعميل لجهات خارجية، وما إلى هذا القبيل من النُّعوت والأوصاف الجاهزة لمثل هذه الحالات.

وذكَّرته هذه الحادثة بفرار وزير الفلاحة السابق قُبل أشهر، وهو صديق الرئيس وزميله السابق في معهد الزراعات الاستوائية بفرنسا، وكان يثق به كثيرا، ويكلّفه بالمهمات الصعبة، ولذلك أرسله إلى "كامبالا"، في مهمة خاصة لدى الرئيس الملاكم عيدي أمين، ومن هناك ركب الوزير طائرة الخطوط الجوية الفرنسية ليلجأ إلى فرنسا، وقيل عنه، هو الآخر، إنه هرّب أموالا طائلة معه، ووُصِف بالخائن، والسارق، وبكل الأوصاف السيئة التي وُصِف بها وزير السياحة. وانتشرت إشاعة آنذاك، تقول إن الرئيس جرَّد

الوزير الفار من كل ما كان يملك، وانتقم منه بحبس زوجته وأولاده، متخذا منهم رهائن، إلى حين أن يعود الوزير، ويسلِّم نفسه.

في هذه الأثناء، كانت جُمان قد أوَت إلى فراشها، لتستيقظ باكرا، وتُباشر عملها بالمستشفى في السابعة صباحا. وقبل أن يلحق بها، أخرج مصطفى دفتر مُذكّراته، ليلخّص فيه خبر فرار وزير السياحة، ويدوّن مصدره، وساعته، وتاريخه، دون أن يضيف إليه أي تعليق مما أسهب المذيع في سرده، أو مما خطر بباله هو نفسه عن دلالة الحادثة، وعن الأسباب المُحتملة التي دفعت بالوزير إلى الهرب. وكان قد شرع في تسجيل أهم الأحداث المحلية، منذ أن كتب مقاله لأسبوعية "أفريك آزي" عن بوب دونار، وخانته الذاكرة في ضبط تواريخ بعض الأحداث.

***

من مرفأ "بور لويس"، بمقاطعة "بروتاني"، شمال غرب فرنسا، انطلقت سفينة "أنتيبِيَا"، بقيادة الكومندان "بيار غِيُّوم"، الملقب بـ"السَّلطعون الطَّبال"، صديق بوب دونار، ورفيقه في حرب "بيافرا"، وكانت في طريقها إلى "أرض النار"، في مهمة علمية، حسب ما أُعلِن عن ذلك، تهدف إلى دراسة الزلازل وتحوُّلات القشرة الأرضية في تلك المنطقة من جنوب القارة

الأمريكية، لكن أنتينِيَا لم تواصل طريقها نحو أرض النار، وغيَّرت اتجاهها حينما بلغت أقصى جنوب البرتغال، ما بين مقاطعة "الغرب" وجزيرة "ماديرا"، لتتَّجه شرقا نحو مضيق جبل طارق.

في هذه المرحلة من الرحلة، التحق بقمرة قائد السفينة، رجلٌ في منتصف الأربعينيات من العمر، طويل القامة، أزرق العينين، خالط البياض شعر رأسه الأشقر، ولم تستطع قبَّعة البحَّار التي وضعها على رأسه من ظهور نقرة صغيرة عند منبت الشعر، في الجهة اليمنى من رأسه، هي الأثر الذي خلفته رصاصة أصابته في إحدى الحروب الكثيرة التي خاضها في حياته، وأصابت عصبا في رأسه، فسببت له ارتعاشة خفيفة لازمته منذ ذلك الحين، تجعله يُحرِّك رأسه بين الفينة والأخرى، يُخيَّل معها لمُحدِّثه أنه لا يتفق معه في الرأي. هذا الرجل هو العقيد "بوب دونار"، الذي جمعه بالسلطعون الطبال تماثلُ حياتهما فيما خاضاه من مغامرات وحروب، الأول كمرتزق في حرب اليمن، وكردستان العراق، وكاتانغا، وبيافرا، والثاني كضابط في البحرية الفرنسية، في حرب الهند الصينية، وفي حرب الجزائر، ثم كعضو بارز في "منظمة الجيش السري الخاصة"، التي أنشأها الجنرالات المتمرِّدون في الجزائر على سلطة الجنرال ديغول، رفضا منهم لاستقلال الجزائر، وارتكبت المجازر الوحشية في حق الجزائريين، قبل وقف القتال في

مارس 1962 وبعده. كان كلا الرجلين يؤكد، في مختلف المناسبات، أنه يخدم المصلحة العليا لفرنسا، وهذا صحيح، ولكنه لم يكن يرفض أن يؤدي خدمات لكل من يدفع له مقابل تحقيق مصلحة خاصة، حتى لو كان عدوا له بالأمس، وكان هذا هو الحال بين بوب دونار ورجل الأعمال أحمد عبد الله، رئيس أرخبيل القمر المُطاح به. لهذا لم ير ثلاثتهم مانعا من عقد صفقة تقوم على المصلحة المشتركة بينهم، عملا بالقاعدة المعروفة: "في السياسة، ليس هناك صداقة دائمة، ولا عداوة دائمة، وإنما هناك مصالح دائمة"، وبناءعلى هذا العقد، جهَّز "بوب" نفسه، بالتعاون مع صديقه "السلطعون"، واجتمعا على ظهر السفينة أنتينِيَا، بعد أن جهزا كل شيء، لتنفيذ عملية "الأطلنتيد"، عقب الصفقة التي أبرمَها بوب معِ أحمد عبد الله، الرجل الثري، العاشق للزعامة، الذي ينتظر بفارغ الصبر ساعة الانتقام من غريمه اللدود علي صواليح، والتربُّع من جديد على عرش الأرخبيل، فاكتمل لهما العدد من مقاتلين مُحترفين، صعدوا على ظهر السفينة كبحَّارة عاديِّين، مع العدة اللازمة للمهمة، أهمها القوارب المطاطية للنزول على السواحل، وأسلحة متطوِّرة، وذخيرة، شُحنت كلها في صناديق مغلقة، باعتبارها أجهزة غطس وقياس لسبر شواطئ أرض النار.

وأثناء تناولهما كؤوسا من الشامبانيا، سأل غيوم شريكه بوب:

ـ هل تنوي أن ترحل عن الأرخبيل بعد إتمام المُهمَّة؟

وتأخَّر بوب في الرد بعض الوقت، قبل أن يجيب بحركة نفي من رأسه، تساوَقتْ مع حركته اللاإرادية، ثم أضاف، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة:

ـ ولماذا أرحل، وكل الظروف تدعوني إلى البقاء؟! لقد اتفقت مع من يُفترض أن يكون الرئيس الجديد، أن أتولَّى حقيبة الدفاع، وأؤمِّن له الحراسة الشخصية الخاصة به؟

ـ كنت أظنك ستخلد إلى التقاعد المُسبق، وتستمتع بالمال الذي كسبته من وراء هذه الصفقة!

ـ ظنُّك في غير محله، يا صديقي، فمثلي لا يتقاعد أبدا.. ثم ما يمنعني، وأنا سيِّد الجُزر، أن أمتِّع نفسي بشواطئها الرائعة طوال العام، وبالمجَّان، بما يدفع السياح الأوربيون في سبيله الكثير من المال، مقابل التمتع بأيام معدودة؟ وما يقلقني، وأنا المتحكِّم في خيوط اللعبة كلها، وأستطيع أن أكسب المزيد من المال، دون عناء؟!

وحرك غيُّوم رأسه في اقتناع كامل:

ـ هذا صحيح.. ما دامت خيوط اللعبة ستكون كلها في يدك..

***

بعد يومين، عبرت أنتينيا مضيق جبل طارق، تحت أعين البريطانيين المفتَّحة على الآخر، الذين كانوا يراقبونها من موقعهم في أعلى صخرة الجبل، ويرصدون بالمناظير المُقرِّبة كل حركة فيها. ولأن رجال بوب دونار كانوا يرتدون لباس البحارة العاديِّين، فإن أعين البريطانيِّين لم تلاحظ أي شيء يثير الرِّيبة. وواصلت أنتينيا طريقها، تشُق عباب البحر المتوسط في بطء، ولكن في تصميم وعناد.

سأل بوب الكومندان غيُّوم عن الوقت الباقي للوصول إلى قناة السويس، فأجابه بتصفيرة وهو يمُد يده بطولها، تعبيرا عن بعد المسافة، ثم قال:

ـ مازال الكثير.. خمسة أيام بلياليها، على الأقل..

ـ أخشى أن يصيب الرجال الملل من طول الرحلة.

ـ هذا شيء لا مفرًّ منه، ولكن اطمئن. سنمنحهم إجازة في جيبوتي، حين نتوقف للتزود بالوقود، تنسيهم ملل الرحلة وطولها.

ـ أتظن ذلك؟!

ـ بل، أنا متأكد من ذلك، لأنهم سيغرقون في مُتعة الخمر والنساء طوال عشر ساعات كاملة، وحينئذ سيكونون مستعدِّين لتحمُّل ملل الأيام الباقية من الرحلة.

وانقطع الكلام بين الرجلين، وغادر بوب قمرة القيادة، ليصادف في طريقه نائبه الأول، دومينيك مالاكرينو، الملقَّب بالرائد "سيام"، وهو المكلف بالمراقبة والنظام على ظهر السفينة، فطلب منه أن يقدم له تقريرا شفويا عن وضع الرجال على السفينة، فأجابه:

ـ معنويات الرجال عالية، ما دامت التسبيقة المالية المُعتبرة التي قبضوها في جيوبهم، وقد ابتدعوا طرقا شتَّى للتغلب على ملل الرحلة، فأكثرهم يبقون في المطعم بعد الأكل، ليحوِّلوه إلى خمَّارة كبيرة، وإلى موائد للقمار، والأقلية الباقية تقضي وقتها في التَّجوال على سطح المركب، أو في أروقته الداخلية والخارجية، والكل يعلم أن الرحلة طويلة، فاستعدوا لها نفسيا، وراح الكل يقتل وقته بطريقته الخاصة، في التشمُّس على سطح السفينة، وفي النوم، والأكل، والشرب، والقمار، حتى إن بعضهم يتناول أقراص "الفاليوم" ليصل الليل بالنهار وهو نائم.

ـ هذا جيد.. يبدو أن فكرة إعطائهم حريتهم الكاملة على ظهر المركب قد أعطت ثمارها.

ـ تماما.. ولا ينقصهم إلا شيء واحد...

وأتبع الرائد عبارته بابتسامة لها دلالة خاصة، وحين رأى التساؤل في عيني رئيسه أوضح قائلا:

ـ النساء، سيدي العقيد.. النساء..

فردَّ عليه في هيئة صارمة:

ـ نحن في مهمة قتالية، أيها الرائد، ولسنا في نُزهة سياحية!.

ثم أضاف بعد لحظة صمت:

ـ ...وعلى أية حال سيكون لهم ما يريدون، حين نتوقف في جيبوتي للتزوُّد بالوقود..

***

دخل بوب إلى قمرة القيادة، فوجد القائد واقفا، يتطلع من وراء الزجاج نحو الأفق الجنوبي، مستعملا منظارا مُقرِّبا، وكان مشدود الانتباه إلى ما كان يتطلع إليه، بحيث أنه لم يشعر بدخوله عليه، فبادره سائلا:

ـ غِيُّوم، هل هناك ما يُقلق؟

وحينئذ نزع غيُّوم المنظار عن عينيه، والتفت إليه ليُطمئنه:

ـ لا شيء مقلق.. نحن في المياه الدولية، ولا أحد لديه السيادة عليها.. لكن، هناك شيء محزن.. انظر هناك..

فمدَّ بوب بصره نحو الجهة التي أشار إليها الرُّبان، وقال:

ـ لا أرى في نهاية الأفق المُضبَّب إلا ما يشبه جبلا مكسوًّا بالثلج، ولو كان في الجهة الشمالية لقلت

إنه "البيرينيه" أو "الألب"..

وزفر الرُّبَّان في تنهيدة عميقة وهو يسلِّمه المنظار ويقول:

ـ معك حق.. ليس ما تراه هو البيرينيه ولا الألب، ولكنها مدينة الجزائر البيضاء..

ونظر بوب عبر المنظار المقرب، فرأى مدينة يغلب على بناياتها اللون الأبيض، تتسلق هضبة عظيمة، في شكل سلالم صاعدة من البحر، لتلامس السحاب في الأعلى، ثم علَّق على المشهد المُبهِر بقوله:

ـ إن منظرها جميل حقا، وتبدو للناظر إليها من بعيد كعروس تلبس الطرحة البيضاء..

ـ هي كذلك، يا بوب.. إنها عروس الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، ولكن، يا حسرتاه، ضاعت منا إلى الأبد، بعد أن حرَّرناها من قبضة الأتراك، وخلَّصنا أوروبا من شرِّ القراصنة..

وأدار بوب في ذهنه ما قاله صديقه قبل أن يرد عليه في لهجة حِجاجيَّة:

ـ ولِمَ البكاء على الجزائر وحدها؟ لقد ضيَّعنا قبلها شمال وغرب ووسط إفريقيا كلها!!

ـ هذا صحيح، ويا للأسف.. ضيَّعها ديغول بسياسته الحمقاء، لننكمش بعدها على أنفسنا في رقعة التراب الفرنسي، التي لا تعادل مساحتها إلا ربع مساحة بلاد "المور"..

وأدرك بوب أن أفكار صديقه الكومندان تتطابق تماما مع أفكاره، ولكن حسرته على زوال امبراطورية فرنسا الاستعمارية ارتبطت في ذهنه بالجزائر، لما لها من علاقة بتجربته الشخصية، ولذلك سأله:

ـ كم قضيتَ في السجن بعد أن فشل انقلاب الجنرالات على ديغول؟

ـ أربع سنوات، وبعدها صدر العفو العام عنا جميعا..

بعد خمسة أيام من هذا الحوار، كانت أنتينيا تعبر قناة السويس، وكان طبيعيا أن يتذكَّر بوب وغِيُّوم حرب السويس سنة 1956، وكان الرجلان يعرفان جيدا دوافع تلك الحرب التي شنتها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر، بريطانيا لإقدام ناصر على تأميم قناة السويس، وفرنسا لدعمه غير المشروط للثورة الجزائرية، أما إسرائيل فوجدت في ذلك فرصة، وأرادت أن توجِّه ضربة قاضية

لمصر، عدوتها الأولى في المنطقة، وزعيمة العرب في العمل على تحرير فلسطين من احتلالها. قال غِيُّوم:

ـ كان مسار التاريخ سيتغيَّر لو أننا تمكَّنا من القضاء على نظام عبد الناصر، لكن أمريكا خذلتنا..

ـ أين كُنتَ أنت أثناء اندلاع الحرب؟

ـ كنتُ على ظهر السفينة الحربية "الماريشال فوش"، وكنا متوجهين من مدينة "بونة" إلى السويس، للمشاركة في الحرب، إلا أننا تلقينا أمرا بالعودة قبل الوصول، لأن الحرب كانت قد انتهت..

***

حين انفضَّ العرس، وأشبع رجال بوب نهمهم من السكر والعربدة في جيبوتي، وبعثروا الكثير من المال على أقدام المومسات، أقلعت أنتينيا مُجددا من مرفأ جيبوتي، وعندئذ سارع العقيد بوب دونار إلى عقد اجتماع مع مساعديه، الرائد مارك، والنقيب سِيام، بحضور ربَّان السفينة بيار غيوم، لمناقشة تفاصيل خطة "الأطلنتيد" وإقرارها، وكانت الخطة تقضي، كما شرحها العقيد دونار على الخريطة، بانطلاق كل الرجال من السفينة بالقوارب المطاطية، في تمام الساعة الثانية من "الليلة صفر" نحو النقطة "أ"، وهي شاطئ "إتساندرا"، ومن هناك ينقسمون إلى

ثلاث مجموعات، لتتوجه الأولى، بقيادة دونار نفسه، نحو النقطة "ب"، أي إلى مقر إقامة الرئيس، وتقوم المجموعة الثانية، بقيادة النقيب سيام، بمساندة المجموعة الأولى، أي أنها تأتي في إثرها، وتطوِّق الثكنة القريبة من الإقامة الرئاسية، لتمنع جنودها من أي ردٍّ محتمل على الهجوم، أما المجموعة الثالثة بقيادة الرائد مارك، فتكون وِجْهتها هي النقطة "ج"، أي مقر الإذاعة، لتستولي عليها، وتتمركز فيها.

وعندما انتهى العقيد من شرح خطته، وفتح المجال للنقاش، سأل الرائد مارك:

- كم تبعد الإذاعة عن النقطة "أ"؟

- حوالي ثلاثة كيلومتر ونصف جنوبا، في اتجاه المدينة..

- نحتاج إذن إلى حوالي ثلاثين دقيقة، سيْرًا بالخطوة السريعة..

- عند وصولكم إلى الإذاعة، نكون نحن قد سيطرنا على الرئاسة وعلى الثكنة المجاورة لها، وسنلتزم الصمت بدرجة الصفر في المرحلة الأولى للهجوم، ثم نربط الاتصال بيننا باللاسلكي على الموجة التي اتفقنا عليها.

وسأل النقيب سيام:

ـ كم يوم بقي لنا للوصول إلى الهدف؟

ـ هذا السؤال جوابه عند الكومندان غِيُّوم.

وتوجهت الأنظار كلها نحو بيار غِيُّوم، الذي أجاب:

ـ بقي لنا حوالي ألف وخمس مئة ميل بحري للوصول إلى الهدف، ونحتاج لقطع هذه المسافة إلى ما يزيد عن خمسين ساعة.. لكن، أود هنا أن أقدم ملاحظة مهمة: إذا كان الهجوم سيتم في الساعات الأولى من الصباح، فهذا يحتِّم علينا، من أجل أن لا نلفت نظر العدو إلينا، أن نعمل حسابنا للوصول قبالة شواطئ الهدف مع حلول الليل.

ـ هذه مهمتك ـ قال دونار ـ فأنت قائد السفينة..

ـ هناك مسألة أخرى لا بد من وضعها في الحسبان، يا بوب. ماذا لوفشل الهجوم، كيف سيتم الانسحاب؟

وأجابه العقيد في تصميم، وقد تشنّج وجهه، وزادت حركة رأسه اللاإرادية عن المعتاد:

ـ نحن لن ننسحب في هذه المرة، مهما كلفتنا المعركة من تضحيات، وأعدك بأن ما وقع لنا في "كوتونو" لن يتكرَّر في الأرخبيل..

ورد عليه غيُّوم مبتسما:

ـ على أية حال، لا أظن أنك ستحرق أنتينيا، كما فعل قائد البرابرة المسلمين في إسبانيا، حين أحرق سفنه حتى لا يفكر جنوده في الانسحاب..

ـ اطمئن، لن أنسحب، ولن أحرق السفينة، على الرغم من إعجابي بما فعله قائد "السَّارازانيِّين"، إذ من عادتي أن أقدِّر الفعل الشُّجاع، حتى لو قام به عدوٌّ لي.

وانفض الاجتماع، بعد أن ضُرِب له موعد آخر للانعقاد مساء الوصول قُبالة النقطة الهدف.

***

19

في ليْلةٍ غابَ فيها القَمر

قبل الوصول بيوم إلى سواحل الأرخبيل، أُخرِجتْ الأسلحة والذخيرة واللباس من المخازن في قعر السفينة، ووُزِّعت على الرجال، وبدأ بذلك العد العكسي للهجوم، وعندما بدأت أنتينيا تقترب من السواحل القمرية، أعطيت الأوامر بمنع الصعود إلى سطح السفينة، أو التجول في أروقتها الخارجية، وعقدت القيادة اجتماعا لها برئاسة بوب دونار، وضعت أثناءه آخر الترتيبات، ووُزِّعت المهام، وبعده صدر أمر بتقديم موعد العشاء في هذا اليوم إلى الساعة السادسة، وأغلِقت الحانة، وطُلب من الجميع الرُّكون إلى أسِرَّتهم في عنابر النوم عند الساعة السابعة، على أن يناموا بلباسهم الكامل، وبأسلحتهم الشخصية، مع أمرٍ بالتجمع السريع على سطح الباخرة عند سماع جرس الإنذار.

في تمام الثانية صباحا، ومن سطح السفينة "أنتينيا"، التي كانت قد رستْ على بعد سبعة أميال من الساحل الجنوبي الغربي لجزيرة القمر الكبرى، قام بوب دونار بتبادل الإشارات الضوئية

المُتفق عليها مع رجال أحمد عبد الله، الذين سيساعدون رجاله في الوصول إلى أهدافهم بسرعة وسرِّية تامة، وحين اطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام، طلب من غيُّوم إطلاق جرس الإنذار، فتجمَّع رجاله على ظهر أنتينيا في ظرف دقائق معدودة، بكامل عددهم وعُدَّتهم، وفي الحين أصدر أمره إلى الرجال بإنزال زوارق "الزُّودْياك" إلى الماء، والانطلاق نحو نقطة التجمع الأولى "أ"، ولم تمض أكثر من عشر دقائق حتى أرسوا بزوارقهم على شاطئ إتساندرا، حيث وجدو المتعاونين المحلِّيين، بقيادة العميل سعيد عصماني، في انتظارهم على الشاطئ، وكان هؤلاء قد سيطروا على إدارة فندق إتساندرا ومُستخدَميه المُداومين في تلك الليلة، واستولوا على غرفة الاتصالات الهاتفية، لمنع أي اتصال بالسلطات. وبسرعة انقسم الرجال إلى ثلاث مجموعات، كما هو مخطط لهم من قبل، وانطلقوا مُهروِلين نحو أهدافهم المحدَّدة.

كانت مجموعة النقيب جان بول سيام هي الأسبق في تطويق الثكنة القريبة من الرئاسة، حيث اتخذوا لهم مواقع مُحصَّنة حولها، والإصبع على الزناد، وراحوا يرصدون أي تحرك يصدر منها، في الوقت الذي تقدمت فيه مجموعة بوب دونار إلى مقر الرئاسة، فقتلت الحراس، وسيطرت على المقر بسهولة لم تكن متوقعة، مستغلين في ذلك عنصر المفاجأة، ومستعملين المسدَّسات الكاتمة

للصوت. وعندما اقتحم بوب دونار غرفة نوم الرئيس، التي كانت مُعتمة، لا يضيئها إلا مصباح أحمر ضعيف، وجده يغط في نوم عميق، وعلى طاولة صالونه ما لا يعد من قناني البيرة والويسكي، وكان يحتضن امرأة عارية، مستغرقة في نومها هي الأخرى، فوضع ماسورة البندقية في خده، ولكن برودة الماسورة وحدها لم توقظه، وفي هذه اللحظة انتبهت المرأة التي كان يحتضنها، وأطلقت صرخة استغاثة، فعاجلها الملازم "كلود"، الملقب بالقط، بطلقة من مسدسه الكاتم أسكتتها على الفور، وبإشارة من بوب، أشعلت أنوار الغرفة، وعندئذ فتح الرئيس عينيه، ليتفاجأ برجل طويل القامة يقف عند سريره، ويصوِّب بندقيته نحو رأسه، ويسأله بسخرية:

- هل عرفتني، أيها المهندس الزراعي؟ أم أن الويسكي قد ضيَّع عقلك وذهب ببصرك؟

وتفرَّس الزعيم بعينيه الواسعتين وجه الرجل الواقف أمامه بلباسه الأسود، فقفزت إلى ذهنه صورة كابوس الغربان، وأدرك أنه هو ذلك الثعبان الأسود الذي رآه في منامه، وأجابه بصوت مُتودِّد:

- بل عرفتك.. أنت صديقي بوب، أليس كذلك؟

وضحك دونار في سخرية من عبارة "صديقي"، ورد عليه:

ـ بوب، نعم.. صديقك لا !! لأنك لم تكن وفيا للصداقة.. والآن قم.. كلِّم بالتلفون قائد الثكنة المجاورة، واطلب منه أن يأمر رجاله بالخروج من الثكنة، واحدا واحدا، عُزَّلا من السلاح، وأن يسلموا أنفسهم لأفراد الوحدة التي تطوِّق المكان.

وقام الزعيم بخطوات مُتعثِّرة من السُّكر إلى مكتبه، وأدار قرص التلفون بِيَد مُرتعشة، وأمر الضابط المسؤول بتنفيذ ما طلبه دونار منه، بالحرف، وحين أراد الضابط أن يستفسر عن الأمر الغريب، استشاط الزعيم غضبا، وقال له:

ـ نفِّذ ما أمرتك به ولا تناقش.

وأغلق عليه التلفون. وعلى المكتب نفسه، فتح عسكري من مرافقي دونار آلة تسجيل، ووضع دونار أمام الزعيم ورقة مُعدَّة سلفا، وطلب منه وهو يصوِّب مسدَّسه إلى رأسه قراءة بيان استقالته. وأمام المنظر المُرعب للمرأة الغارقة في دمها على السرير، لم يكن أمام الزعيم أي خيار إلا قراءة البيان، الذي كان موجَّها إلى عموم الشعب في الجزر الثلاث، وإلى جميع وحدات الجيش والأمن واللجان الثورية، طالبا من الجميع البقاء في بيوتهم، وفي ثكناتهم ومكاتبهم، والالتزام بالهدوء، في انتظار الأوامر التي ستصدر في الساعات القادمة، عمَّن سيَخلِفه في القيَّادة مؤقتا، ويشرف على تنظيم انتخابات عامة في البلد، تكون حرة، ونزيهة، وديمقراطية.

وما إن انتهى من قراءة البيان، حتى أطلق القط، بإشارة من دونار، رصاصة على رأس الزعيم، فانكبَّ على وجهه فوق المكتب، غارقا في دمه. وفي هذه الأثناء، كان الرائد مارك قد استولى على مبنى الإذاعة، بالسهولة نفسها التي تسلل بها دونار إلى إقامة الرئيس، وأرسل إلى هذا الأخير رسالة لاسلكية يخبره بنجاح المهمة مئة بالمئة. ومع بزوغ الأشعة الأولى من شمس ذلك اليوم، أخذت محطة الإذاعة المحلية تذيع الموسيقى العسكرية، وتطلب من المواطنين البقاء في بيوتهم، وانتظار بيان هام سيصدر عن الرئاسة، سيقرأه الرئيس بنفسه.

وبعد حوالي ساعة من الانتظار، وقد تأكد الرائد مارك أن كل الآذان مشدودة إلى أجهزة الراديو، طلب من التقني إذاعة بيان استقالة الرئيس، بصوته. وكان المستمعون يعرفون صوته جيدا، لكثرة ما سمعوا خطاباته في الإذاعة، وتدخلاته عبرها، بمناسبة وبغير مناسبة، لأنها الوسيلة الإعلامية الوحيد المتوفِّرة، والسريعة الوصول إلى الجمهور العريض، في كامل أنحاء الأرخبيل.

وبسرعة فهم الجميع أن الأمر يتعلق بانقلاب على حكم علي صواليح، ومع ذلك ظلوا حذرين، يترقَّبون ما سيأتي بعد بيان الاستقالة، الذي تكررت إذاعته عبر الأثير عدة مرات. وعقب إذاعة البيان، ألغيت الدراسة في هذا اليوم، وسُرِّح الطلبة، وعاد الأساتذة

إلى بيوتهم. وقبع كل من يمتلك جهاز راديو في بيته، ينتظر ما سيذاع لاحقا. وهذا ما فعله مصطفى حين عاد إلى بيته، حيث بادر بإعفاء عبدو من عمله في ذلك اليوم، وجلس إلى جانب الراديو، يستمع إلى الإذاعة، منتظرا ما ستسفر عنه الأمور من جديد، لكنه كان قلقا بعض الشيء على جمان، لأنها لم ترجع من عملها في المستشفى، فظل سمعه مُوزَّعا بين صوت الراديو، وبين دوي محرك سيارتها، الذي كان يتوقع سماعه في أية لحظة.

وحين طالت عودة جمان، وازداد قلقه عليها، وضاق ذرعا بالموسيقى العسكرية، وبتكرار إذاعة بيان الاستقالة، حوَّل مؤشر محطات الراديو إلى إذاعة فرنسا الدولية، فعثر على بغيته، وتأكد له خبر وقوع الانقلاب على حكم علي صواليح، وعرف بالأسماء من يقف وراءه، ومن موَّله، ومن نفَّذه. وتبيَّن له خطورة الوضع، وما يمكن أن ينجرَّ عنه من انزلاقات، في ظل انقلاب عسكري يقوده المرتزقة، ويحظى بالتأييد الضّمني من الحكومة الفرنسية، لكن السؤال الذي حيَّره ولم يجد له جوابا هو: كيف يسقط نظام دولة، مهما كان جيشها ضعيفا، وشعبها قليل العدد، بهذا الشكل السريع والُمهين، على يد كمشة من المرتزقة، لا تحكمهم قيمٌ ولا أخلاق، ولا يقاتلون إلا من أجل الحصول على المال؟!

ومع مرور الساعات، بدأت الحقائق تتبلور في ذهنه، وبدأت الإجابة على سؤاله المحيِّر تتشكل معالمها وتتضح، حين راح يقارن بين ما حدث في ذلك اليوم، وبين ما حدث في بلدان إفريقية أخرى من انقلابات مماثلة وحروب داخلية، إما بدافع الاستحواذ على السلطة، وإما نتيجة مؤامرات حيكت خيوطها في الخارج، بغرض نهب ثروات الشعوب وخيراتها الطبيعية. وفسَّر هشاشة هذه الأنظمة وسرعة انهيارها، بانفصالها الكامل عن شعوبها، وقهرها للصوت المعارض في بلدانها، وهذا ما يفقدها شرعيتها، ويجعلها تعيش في عزلة، ولا تجد لها من جماهير الشعب ظهيرا ولا نصيرا حين تواجه عدوانا خارجيا. وتناول القلم والورق، وأخذ يدوِّن بعض هذه الأفكار والخواطر، ليصوغها في مقاله القادم، الذي سيكتبه من وحي ما حدث صبيحة ذلك اليوم.

وأخيرا، سمع محرك سيارة جمان يقترب، ثم يتوقف في باحة البيت. قالت له:

ـ تأخرت في العودة بسبب امرأة حامل، وصلت المستشفى وأنا أتهيأ للخروج، وكانت وضعيتها حرجة، مما اضطرني إلى البقاء لمساعدة السيدة إفلين في العناية بها، وإنقاذ حياتها وحياة مولودها.

ولم يعلق مصطفى على ما قالته بأي شيء، لأن تفكيره كان منشغلا بالانقلاب، وبتتبع آخر الأخبار عنه، ومع ذلك لم يفته أن

يلاحظ حالة الإرهاق الذي كان باديا عليها، وانعكاسه على ملامح وجهها.

ولأنها لاحظت، هي الأخرى، انصرافه عنها إلى أخبار الراديو، فلم تحدثه عن الصدى الذي لقيه الانقلاب في الوسط الاستشفائي، وتوجهت إلى الحمام لإزالة العرق عنها، وبعد الحمَّام تناولت حبة أسبرين، ودخلت إلى غرفة النوم لتستريح.

وانتظر أن تأتي لتناول الغداء معه، ولكنها ظلت نائمة، فدخل عليها وسألها:

ـ حبيبتي، هل أنت بخير؟

ـ أنا بخير.. أحس بشيء من الإرهاق، وأعاني من صداع..

ـ هل تناولت مُسكِّنا؟

ـ بلى، فعلت..

ـ ألا تشاركينني الأكل؟

ـ كُلْ بالهناء.. لا أشعر بالجوع. أنا في حاجة إلى الراحة، وسآكل فيما بعد..

فتركها وانصرف، وواصل تتبع الأخبار أثناء الأكل، فكان يتنقل بين محطات الراديو المختلفة، للاطلاع على المزيد من أخبار

الانقلاب، أما جمان فكان ما حدث معها أقوى من تأثرها بأخبار الانقلاب، إذ أنها شعرت في اليومين الأخيرين بأعراض الحمل، وأكدت لها السيدة إفلين، بعد ما فحصتها، أنها حامل، فقرَّرت أن تخفي ذلك عن مصطفى، إلى أن يكتشف ذلك بنفسه، حينما تبدأ آثار الحمل تظهر عليها، خاصة أنها كانت تخشى من رد فعله على ذلك، وتعرف جيدا أنه لن يصدِّق ادعاءها أنها تتناول حبوب منع الحمل بانتظام. وتذكَّرت، وهي مُمدَّدة على السرير، غارقة في خواطرها، صديقتها التونسية سُميَّة، وتمنَّت أن تقابلها، أو على الأقل، أن تكلمها بالتلفون، لتشكرها على نصيحتها الغالية لها، التي وضعتها أخيرا موضع التنفيذ، بعد أن تردَّدت كثيرا، وفكَّرت في عواقبها كثيرا، لتقول لنفسها، في كل مرة كانت تلقي بحبة منع الحمل في المرحاض: وما فائدة الزواج إذا لم أنجب الأولاد؟!

***

في مساء ذلك اليوم، وصلت زوارق رجال بوب دونار، بقيادة الرائد مارك، إلى مرفأ موتسامودو، ليُستقبَلوا استقبال الأبطال، ويهتف جمهور المستقبلين لهم "بمُحرري البلد من الحكم الاستبدادي، ومن الشيوعية". لاسيما أن أكثرهم كان قد علم أن أحمد عبد الله، زعيمهم، وابن جزيرتهم، هو من يقف وراء الانقلاب، إلا أن الرائد مارك لم يظهر كبير اهتمام بذلك التعاطف

الذي استُقبل به، ولا بتلك المظاهر الاحتفالية من عموم الناس، لأن همه الأول كان الوصول إلى قصر الحاكم العام، للشروع في تنفيذ المخطط الجاهز الذي حمله معه، وبدأه في الحين بالاستيلاء على الثكنات والمقرات الأمنية، وبتجريد أفراد الجيش والأمن من أسلحتهم، والقبض على رموز النظام السابقين، ووضعهم في الحجز، وكان أولهم حاكم الجزيرة العام، وكبار ضباط الجيش والأمن، ورؤساء اللجان الثورية.

وقام الرائد مارك بزيارة الثانوية في صبيحة اليوم التالي، والتقى فيها بالأساتذة، وتحدث معهم بكثير من اللطف، وتعرّف عليهم واحدا واحدا، وانبسط على الخصوص بحديثه الوُدّي مع الأستاذين غابريال لامبير وأرتور لانسون، وعلَتْ ضحكاتُهم أثناء الحديث أكثر من مرة، وعند انصرافه طمأن الأساتذة باستتباب الأمن في الجزيرة، وحثّهم على استئناف عملهم مع طلبتهم، كالمعتاد.

***

في مساء ذلك اليوم، فوجئ مصطفى بمفرزة من الجنود المرتزقة تدق عليه الباب، وتقتحم بيته دون استئذان، أمام دهشته ودهشة جمان وخوفها، ليقوم أفرادها بتفتيش البيت، وحجز كل ما عثروا عليه من أوراق، وكل ما كان بحوزته من صحف ومجلات، ثم قادوه

إلى قصر الحاكم العام، ليقضي ليلته هناك، جالسا على كرسي. وفي الصباح عُرض على الرائد مارك، الذي استقبله بابتسامة عريضة، وأمر له بفنجان قهوة، وعرض عليه سيكارة، ثم راح يسأله عن وجوده في مدينة موتسامودو، وعن الجهة التي بعثت به للتدريس فيها، وضمن أي نوع من التعاون. وأجابه مصطفى عن أسئلته بكل هدوء، وبكل وضوح، لكنه أحس بشيء من الاستفزاز حين سأله الرائد عن انتمائه العقائدي والسياسي، فرد على سؤاله بسؤال كان قد أجّل طرحه عليه حتى تلك اللحظة:

ـ هل لك أن تفهمني أولا، يا حضرة الرائد، لماذا أنا هنا منذ الأمس، ولماذا كل هذه الأسئلة، ؟!

فلم يجبه عن سؤاله وأخرج له من درج المكتب مجلة "أفريك آزي"، وفتحها على مقاله فيها، سائلا:

ـ ألست أنت من كتب هذا المقال؟

وأجاب مصطفى، دون تردُّد:

ـ بلى، أنا من كتبه، فهل هناك ما يمنعني من التعبير عن رأيي؟

ـ ما يمنعك هو أنك جاريتَ هذه المجلة الشيوعية في ترويج الأكاذيب عن العقيد.

ـ كل ما كتبته رجعتُ فيه إلى ما نشرَتْه الصحافة الفرنسية عن العقيد.

وصمت الرائد لحظة ثم استأنف:

ـ هل أنت شيوعي؟

ـ لا.

ـ تنتمِي إذن إلى أحد الأحزاب اليسارية؟

ـ لا.. أنا لا أنتمي إلى أي حزب يساري أو يميني.

ـ هل كنت صحفيا قبل أن تأتي إلى ميدان التعليم؟

ـ لا، لم أمارس في حياتي إلا التعليم.

ـ وكيف تُفسِّر لي أنك تكتب في الصحافة؟

ـ مجرد هواية..

هواية؟! من الصعب تصديقك.. لكن أجبني بصراحة، ألست معجبا بأفكار ناصر، أو العقيد بومدين الثورية؟

ـ لا، أنا صاحب فكر حُر، وغير مُعجب بأي أحد.

وتمطَّى الرائد على كرسيه الوثير، ومال بجذعه إلى الخلف، ووضع يديه خلف رأسه، ثم أنهى مساءلته بقوله: على أية حال،

سأطلق سراحك الآن.. اذهب إلى بيتك لتستريح، وأعدَّ نفسك للرحيل غدا إلى موروني لمقابلة العقيد شخصيا، ولا تنس أن تأخذ جواز سفرك معك، إذ ربما ستحتاج إليه.

وبعد لحظة صمت، أضاف بلهجة ساخرة:

ـ ..وأنصحك أن لا تفكر في الهرب، لأنك لن تستطيع الإفلات منا.

وآثر مصطفى أن لا يرد على سخريته إلا بالتجاهل، وهبَّ واقفا، منتظرا أن يأذن له بالانصراف، فاكتفى الرائد مارك بإشارة من يده نحو باب المكتب.

وتوجَّه نحو بيته مشيًا، لقرب البيت من المكان، وقد اتضح له، بما لا يدع مجالا للشك، أن هناك من وشَى به بشأن مقاله في مجلة "أفريك آزي"، وأنه لن يكون إلا واحدا من زملائه الأساتذة الذين اطلعوا على المقال، وأظهروا، نفاقا، إعجابهم به. وحين دخل البيت، استقبلته جمان بالعناق، وكان باديا على وجهها أنها لم تنم الليل، وانهالت عليه بسيل من الأسئلة عن سبب اعتقاله، وأين أخذوه، وكيف قضى ليلته، فطمأنها على حاله، ورجاها أن تُعِد له الفطور، وأن تنتظر حتى يغتسل، ويجلسا إلى المائدة، ليخبرها عن كل شيء.

وطوال الدقائق التي قضاها في الحمام، كان باله مُنشغلا بقرار ترحيله إلى موروني، ومُحتارا في الكيفية التي سيخبر بها جمان عن ذلك، مُتوقِّعا أن الخبر سيصدمها، ولكنه لا يدري كيف سيكون رد فعلها، ولا كيف سيهوِّن عليها الأمر. وفي الأخير قرر أن لا يخبرها بشيء، ويتركها تتفاجأ بترحيله في الصباح، إشفاقا منه عليها، وتفاديا لقضاء ليلة مضطربة معها، قد تكون هي الليلة الأخيرة التي تجمعهما.

وفرحت جُمان بعودته سالما مُعافى، هدأت نفسها، وأعدَّت له مائدة شهية، وارتاح هو بعد خروجه من الحمام لعدم إلحاحها عليه بالأسئلة، فأكل، وشرب، ونام عدة ساعات، وقضى مع جمان ليلة هادئة، لم تنغِّصها عليه بالبكاء. لكنها انتبهت إليه في الصباح، حين رأته يعدُّ حقيبة سفره، واستغربت أمره فسألته، فأخبرها بما كتمه عنها بالأمس، فتشبثت برقبته، وأخذت تبكي وتنوح، وكادت تنهار بين يديه، وراحت تلومه أشد اللوم، لأنه أخفى عنها قرار ترحيله. وعبثا حاول أن يهدِّئها، وأن يقنعها أن غيبته لن تطول، وأنه سيعود إليها بعد أيام قلائل، فلم ينفع ذلك كله معها، وظلت عيناها باكية، ونفسها منهارة، إلى أن جاء المرتزقة، وانتزعوه من بين يديها وهي تتشبَّث به في إصرار.

قادوه رأسا إلى المرفأ، وأركبوه أحد الزوارق المطاطية، حيث وجد فيها عدة وجوه من رموز النظام المنقلب عليه، وهذا ما

استنتجه حين رأى من بينهم غريمه "أبو ـ سيندي"، والحاكم العام، فحيَّى هذا الأخير بتحية من رأسه، لأنه كان يُكنُّ له التقدير والاحترام، ولكنه لم يكلمه. وانطلقت الزوارق بعد ساعة بمن فيها، متجهة نحو جزيرة القمر الكبرى.

في موروني عُزل مصطفى عن بقية الموقوفين، ونقل رأسا إلى فندق إتساندرا، حيث وجد معظم غرفه محتلة من قِبل رجال بوب دونار، فأقام بالفندق عدة أيام، يأكل، ويشرب، وينام، ويفكر في حال جمان وفي حاله، ولكنه كان ممنوعا من مغادرة الفندق، ومن الاتصال بأي كان، بشكل مباشر أو بالتلفون. وفي نهاية الأسبوع، دخل عليه الجنود المرتزقة، وطلبوا منه جواز سفره، وأخذوه مع حقيبته، وأركبوه سيارة "جيب"، وانطلقوا به، فظن أن الفرج قد قرب، وأنه سيقابل بوب دونار، وكان يأمل أن يقنعه بأن ما كتبه عنه لم يزد فيه شيئا عما نشرته الصحافة الفرنسية عنه، ولكنه لاحظ أن سيارة الجيب لم تتجه به إلى القصر الرئاسي حيث ظن أن يكون بوب دونار هناك، واتَّجهت به نحو مطار "حاي حايا" الدولي، فسأل الجندي الجالس إلى جانبه:

ـ إلى أين تأخذونني؟

ـ إلى المطار

ـ لنماذا؟

ـ لست مُخوَّلا لكي أجيبك عن سؤالك..

في مكتب بالمطار، ظل ينتظر، إلى أن حطَّت فيه طائرة الخطوط الجوية الفرنسية، القادمة من مدغشقر، فمرَّروه مباشرة إلى الطائرة، دون المرور على مصلحة مراقبة الجوازات. وبعد ثلاث ساعات من الطيران، توقفت الطائرة في جيبوتي مدة ساعة، ثم واصلت رحلتها لتصل إلى باريس بعد خمس ساعات ونصف من الطيران.

انتهت

في مدينة لافال ـ كيبيك ـ كندا.

يوم الجمعة 1443/02/03هـ الموافق لـ 10/09/ 2021 م

e.mail : menourah@gmail.com

فهرس

-1	ثورة ثقافية على الطريقة الماويّة	05
2 -	درس في التشريح	25
3 -	عرس بلجيكي قمري	47
4 -	انقلاب صيفي في عز الشتاء	67
5 -	سهرة في بيت الدكتور أبوبَكر	87
6 -	شجار عسكر من أجل راقصة	111
7 -	راقصة من زنْجِبار	143
8 -	رحلة طلابية إلى باتسي	163
9 -	تطورات لم تكن في الحُسبان	183
10 -	مخاطر المهنة	207
11 -	درس عن مرض الملاريا	229
12 -	القلب وما يعشق	249
13 -	أيام كلها عسل	271
14 -	تحرُّش وإزعاج	293
15 -	حب وعمل وسياحة	317
16 -	يقظة مفاجئة لعاطفة الأمومة	345
17 -	امرأة تقود سيارة؟ يا عجبا!	369
18 -	وطاويط وغربان	389
19 -	في ليلة غاب فيها القمر	411
	فهرس	427

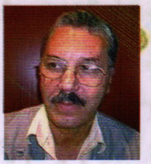

أحمد منور

كاتب قصّة ورواية ومسرح ومترجم
أستاذ التعليم العالي بجامعة الجزائر سابقا)
مختصّ في الأدب الجزاري بالعربية وبالفرنسية.

مكتبة نوميديا

من أعماله المنشورة:

- مسرح الفرجة والنّضال في الجزائر، دراسة (دار هومة الجزائر)
- الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، دراسة (دار التنوير/الجزائر)
- شروق المسرح الجزائري، ترجمة (جمعية الجاحظية، الجزائر)
- الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين، (دار التنوير/الجزائر)
- البحيرة العظمى، رواية للفتيان (دار الساحل، الجزائر)
- من أجلهما عشت، رواية (دار التنوير/الجزائر)
- الأمير يعود في منتصف الليل، رواية (دار التنوير/الجزائر
- البازار الكبير، رواية (دار التنوير/الجزائر)

• في موتسامودو، عاصمة الجزيرة، كان الشُّبان الثائرون قد أخرجوا كل محتويات دار البلدية من وثائق، وأرشيف قديم، وكل ما خُطَّ عليه حرفٌ أو رقم، أو رمز، وألقوا بها كلها في الساحة الخارجية للبلدية، ولم تسلم من أيديهم اللوحةُ الرُّخامية الكبيرة المُثبَّتة في أعلى البناية، تحت الساعة الكبيرة، التي كانت قد توقَّفت بعد رحيل الاستعمار قبل ثلاث سنوات، وبقي عقرباها يشيران إلى منتصف النهار وعشرين دقيقة. كانت اللوحة تحمل اسم البلدية منذ العهد السابق، فألقوا بها من الأعلى، لتتحطَّم على إسْفلت الشارع، وتتناثر شظايا وفُتاتا، ثم أضرموا النار فيما جمعوه في الساحة من محتويات البلدية، من أوراق، وملفَّات، وسجلاَّت، وأختام، وأدراج خزائن، ومقاعد خشبية، تحت صيحات الابتهاج التي ارتفعت من حناجرهم في السماء. وعندما اشتدَّ لهيب النار، راحوا يرقصون حولها فيما يشبه رقص الوثنيِّين، على ألحان الأناشيد التي انطلقت من مُكبِّرات الصوّت التي علَّقوها في شرفة مبنى البلدية.

ISBN:978-9947-561-02-7

دار التنوير للنشر والتوزيع
DAR TANOUIR ALGERIE